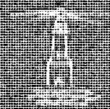


عبد الرحمن الرافعي

شعراء الوطنيات
ومصر

تراجمهم وشعرهم الوطني
والناسبات التي نظموا فيها قصائدكم



دار المعارف

شعراء الوطنيت ومصر

تراجمهم وشعرهم الوطني
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الطبعة الثالثة



دار المعارف



عبد الرحمن الرافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هي الطبعة الثالثة من كتاب المغفور له والدنا عن شعراء الوطنية في مصر
تطابق تماما الطبعة الأولى التي ظهرت سنة ١٩٥٤ ، ولاشك أن جهد دار المعارف
بأعضائها جميعا كان له أثره في ظهور الطبعة الثالثة التي هي الآن في متناول
القارئ ..

والله ولى التوفيق ..

كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

أقدم الطبعة الثانية لهذا الكتاب طبق الأصل للطبعة الأولى التي أخرجتها سنة ١٩٥٤ وهى ضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ حركتنا الوطنية - أحمد الله وأشكره على نعمائه، وكم كنت أتمنى أن أضيف إلى تراثنا الشعرى الوطنى ما جادت به قرائح شعرائنا الجدد فى المناسبات الوطنية تمشياً مع روح الاشتراكية والتطور فى عهدنا الحديث خاصة وقد لا يست الأمة المصرية ظروف وضحت فيها معالم القومية والوطنية والكفاح والجهاد، وليس أدل على ذلك مما ظهر عقب الاعتداء الثلاثى من قصائد لشعراء وطنيين وغير ذلك من المناسبات الوطنية المعروفة لولا - مرضى الذى منعى عن جمع وتسجيل قصائد هؤلاء الشعراء فلهم منى صادق اعتذارى.

والله ولى التوفيق..

عبد الرحمن الرافعى

يوليه سنة ١٩٦٦

مقدمة

عندما أرخت الحركة القومية في أدوارها المتعاقبة، تبينت مبلغ ما للشعر الوطني من أثر عميق في التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية في نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة في تاريخ مصر القومي، ومن يومئذ وأنا تواق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفيراً منفرداً، يجمع معظم ماجادت به قرائحهم من الشعر الوطني، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التي أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

ولقد كنت أرجو أن أضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء، وعنيت فعلاً بأن أقتبس في شتى المناسبات، ولكنني وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفي للتنويه بفضلهم، وإبراز مبلغ مساهمتهم في غرس الشعور الوطني في نفوس الأجيال المتعاقبة، فواعدت نفسي أن أتفرغ يوماً لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية، وها أنذا أوفى بوعدي.

وإني لأشعر أني باخراج هذا الكتاب، أؤدي واجباً نحو أولئك الشعراء، ونحو الحركة الوطنية ذاتها، فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية في قصائدهم، واهتزت لها مشاعرهم، واستجابوا إلى نداء الوطن في عالم الشعر والفن والخيال، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم، وترجمانا لهم في آمالهم وآلامهم، وأحاسيسهم وأهدافهم، هؤلاء خليقون جميعاً بتقدير الوطن وثائته، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم في سجل واحد.

على أني لا أقصد تقديراً لهم فحسب، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم، وإذا كان مما تعتمد إليه الأمم أن تغذى نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية، فأجدر بنا أن نشيع الشعر الوطني ونجعله في متناول المواطنين جميعاً، رجالاً ونساء، شبياً وشباناً، فكلنا في حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغر التي تملأ النفوس وطنية وإيماناً، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة، والتفاني في أداء الواجب الوطني، فلعلها تدفعنا إلى السير دائماً إلى الأمام، غير متوائمين ولا متناهبين، مستمسكين بالمثل العليا في حياتنا القومية.

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية - إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه - هي قطعة من تاريخ الحركة الوطنية، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب، والأدب الوطني له الأثر الذي لا ينكر في تكوين المواطن الصالح، والشعر بما

بطبع في نفس الشاعر من التحليق في سماء الخيال، والتطلع إلى الملل العليا، يهدد للنهضات الوطنية ويغذيها، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة، ويستحياها على النفور من الذل، وإباء الضيم، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد، وسعراء الوطنية في مصر لهم في هذه الناحية فضل عظيم، فكم ناصروا الحركة الوطنية في مختلف عهودها، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم، وسجلوا حوادثها الهامة، وأشادوا بمفاخر الشعب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم، وكم انتصروا الإنسانية أن تهب لنصرتهم، وتتنصف له من المظالم التي حاقت به، وإن كثيراً من روائع الأدب التي جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية، وكان السبب يحفظها عن ظهر قلب، فتذكى في نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية.

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر في نفوس المواطنين وستحركها على الدوام، مهما تقادم عليها الأعوام، ألسنت ترى إلى نشيد المارسليلز؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويتير في نفوسهم روح الجهاد والفداء، ويفدرون له قدسيته الفنية والوطنية.

ولعل في جمع عيون الشعر الوطني في كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء في إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوي يتجدد على تعاقب العهود والعصور، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفاناً لفضلهم، وتقديراً لذكرياتهم، وما أجمل وفاء الأمم للمجاهدين السابقين من بنينا، في مختلف الميادين، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر، ولا هي وقف عليه، بل هي مرة الجهود المتواصلة التي يتوارثها المواطنون جيلاً بعد جيل، وما أضعف الروح الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد، لأنها بذلك تكون رخوة البناء، مقفرة المعالم، أما الوطنية الوطيدة الأساس، العالية الذرى، فهي التي تجمع بين مجد الماضي، وجهاد الحاضر، وأمل المستقبل.

إن في قبيلة الشعر سلوى للقلب، وغذاء للروح، وإنها لتوحى إلى النفوس أسمى معاني الإنسانية، وما أجمل هذه القيتارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية.

هذه المعاني والخواطر هي التي ألهمتني إخراج هذا الكتاب، وكم يطيب لي أن أنسر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم، بل تنسينا أسماء بعضهم، في حين أن فضلهم لا يصح أن ينسى وآثارهم في بعث الوطنية لا تمحى، والأدب في حاجة إلى استذكار أسعاريهم، فإنها حقاً عماد الأدب الرفيع وكيانه، وهذه الأسعار هي في ذاتها سبيل لنسر النفاة الوطنند بن أفراد السحب في مختلف طبقاته.

من أين نبدأ

لقد ساءلت نفسي قبل أن أرسـم. خطوط الكتاب: من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطنى؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد سوفى وحافظ وسمعتها ووعيناها وكان لها صداها فى أحياء مناعرنا الوطنية؟ إننا إذ نحدد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطنى، وأغفلنا مرحلة سبقت سوفى وحافظ، وهذا ما لا يقره الحق والإنصاف ولا يرضاه شوفى وحافظ، على علو كعبهما وبلوغهما الذروة بين شعراء الوطنية.

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على سوفى وحافظ.

إننى عندما أرخت مصطفى كامل بحثت فى بداية الحركة الوطنية الحديثة، وتساءلت هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تاريخه تاريخاً لها، أم أن لها بداية سبقت ظهوره؟ وعلى أننى تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذى له هو من البواعث على إخراجى لتاريخه، كما نوهت إلى ذلك فى مقدمة كتابى عنه، فإنى قد وجدت من الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل، لأفـف عند حدّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحديثة، وانتهى بى البحث إلى أن بدايتها - فى تاريخ مصر الحديث - ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر، ومن سم تطورت الفكرة عندى من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ.

وأرانى فى تأريخ الشعر الوطنى أميل إلى سلوك مثل هذا المنهج، فرجعت فى بدايته إلى الماضى، ووجدت أن روح الوطنية - بمعناها الحديث - قد بدأت تدخل الشعر المصرى، وتبعث فيه من حياتها وبهائها، وتضفى عليه من جمالها، وجلالها منذ أوائل القرن التاسع عشر، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوى، فالى هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطنى فى مصر، وهكذا يبدو التقارب بين ظهور الحركة الوطنية وظهور الشعر الوطنى فى تاريخنا الحديث.

فلنبداً إذن برفاعة رافع الطهطاوى ولندرس تطور الشعر الوطنى من بعده إلى وقتنا الحاضر. ويطيب لى فى صدد التنويه بشعراء الوطنية، أن أعتذر عما فاتنى من تأريخهم، وأعوزنى الحديث عنهم، فأنى أفصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره، فإذا كان فاتنى أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأياً تقديرياً، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا لى مغموراً فى بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغض بداهة من

منزلتهم في عالم الشعر والأدب، وحسبي عذرا لى أن رأبى التقديرى في تخيّر شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفيضة، عكفت عليها سنين عديدة، ولم أقتصر على ما وعته ذاكراتى من الشعر الوطنى في مختلف المناسبات، ولا على دواوين الشعراء، بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى في مجاميع الصحف والمجلات، عاما بعد عام، قرابة نصف قرن من الزمان، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم ينشر من قبل في كتاب أو ديوان، ومع ذلك فإذا نبهنى القارئ الكريم إلى شاعر فاتنى الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فانى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص في الطبعة التالية من الكتاب، لأننى أود حقاً أن أستكمل أى نقص بدا منى في هذه الناحية، وليس أحب إلى نفسى من أن أسجل في كتابى كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطنى.

والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة ما يعين على نشر الأدب الوطنى وإذاعته، وتعميمه بين المواطنين، والحمد لله أولاً وأخيراً.

نهته سنة ١٩٥٤

عبد الرحمن الرافعى

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣



مصريٌّ صميم، من أقصى الصعيد، ساء نشأة عادية، من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وبنى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون، ولكنه بذَّ الأقران، وتفرد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب، ذلك أنه كان يحمل بين جنبه نفساً عالية، وروحاً متوثبة، وعزيمة ماضية، وذكاء حاداً، وشغفاً بالعلم، وإخلاصاً للوطن وبنه، تهيأت له أسباب الجِدِّ والنوْغ، فاستوفى علوم الأزهر في ذلك العصر، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد علي، وارتحل إلى معاهد

علم في باريس، واسنروح نسيم الثقافة الأوروبية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه وقوميته، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد، ماضى العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبرَّ بوعده، ووفى بعهد، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفاً وترجمة، وتعليماً وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعاربته، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضيء به أرجاء البلاد، وينير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيفاً وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية في عصر محمد علي، وامتدت زعامته إلى عهد اسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى^(١).

ولد في طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ)، وبدت عليه مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنف وألف ودرس وهو في الحادية والعشرين من سنه، ثم عين واعظاً وإماماً في أحد أليات الجيش المصري، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن

(١) عن ترجمته في كتابنا تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد علي.

التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التي سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشيء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب في التعليم، وأنتسأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦ وكانت أسنبيه ما تكون بكلية الآداب والحقوق في مصر، وكان رفاة يتولى نظارتها ويلقى فيها دروسه على الطلبة، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر، وتنقل في المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حبه لآخر مصنفاته ومعارفاته في العلوم والآداب إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣^(٢).

وهو أول رائد نهضة العلم والأدب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخلص نيته، وقد استثار رحيله عن مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة في نفسه الحساسة، فجادت قريحته وهو في باريس بقصيدة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله، والإشادة بمفاخره، قال في مطلعها:

ناح الحمائم على غصون البانٍ فأباح شيمة مغرمٍ ولهان

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها وقال:

هذا لعمري إن فيها سادة قد زُينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافي عليك فخارها فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفت بأن مصر لجنة وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهي شرابه لأبر كل البر في أيمان

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة.

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من أكرم العواطف وأنبهها، وقد قدمها هو بقوله «وقلت أيضاً وطنية»، فالروح الوطنية تتمشى حتى في تقديمه لقصائده، قال:

يا صاح حب الوطن حلية كل فطن

محبة الأوطان من شعب الإيمان

(٢) راجع ترجمته تفصيلاً في كتابها الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد علي

في أفخر الأديان آية كل مؤمن

مساقط السُّرُوس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنا وكل حزن

ومصر أبهى مولد لنا وأزهى محتد
ومربع ومعهدي للروح أو للبدن

شدت بها العزائم نيطت بها التمايم
لطبعا تلائم في السر أو في العلن

مصر لها أياد عليا على البلاد
وفخرها ينادى ما المجد إلا ديدنى

الكون من مصر اقتبس نورا وما عنه احتبس
فخر قديم يؤنر عن سادة ويُنسر
زهو مجد تنر منها العقول تجتنى

دار نعيم زاهية ومعدن الرفاهية
أمره ونأهية قدما لكل المدن
قوة مصر القاهرة على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهره خصت بذكر حسن

أبناءؤها رجال لم يمتهم محال

وَجُنْدُهُمْ صَنْدِيدٌ وَقَلْبُهُ حَدِيدٌ
وخصمه طريد بل مُدْرَجٌ في كفن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال:

وعزيز الموطن نخدمه يرضا في النفس نحكمه
مالُ المصرى كذا دمه مبذول في شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرها
تهدى في نيل نظائرها بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره:

تُنَظَّمُ جُنْدُنَا نَظْمًا عَجِيبًا يُعْجِزُ الْفَهْمَا
بِأَسَدٍ تُرْعِبُ الْخَصْمَا فمن يقوى يناضلنا؟

رجالُ مالها عددُ كمال نظامها العددُ
حُلاها الدرع والزرْدُ سنان الرمح عاملنا

وهل لخيولنا شِبةٌ كرائم ما بها شِبةٌ
إليها الكل منتبِهُ وهل تخفى أصائلنا؟

لنا في الجيش فرسان لهم عند اللقاء شان
وفي الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا
فها الميدان (والشقرا) سَقَتْ أذن العدا وُقْرا
كأنا نرسل الصقرا فمن يبغي يرسلنا

مَدَافِعُنَا الْقِصَا فِيهَا وَحُكْمُ الْحَتَفِ فِي فِيهَا
وَأَهْوَتْهَا وَجَافِيهَا تَجَوَّدُ بِهِ مَعَامِلُنَا

لنا في المدن تحصين وتنظيم وتحسين
وتأييد وتمكين منيعات معاقلنا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل في وصف الجيش المصري، ولا شك أن رفاة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش في عهده، فهو يصور العصر الذي عاش فيه تصويراً صحيحاً، لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصري تسير إلى ميادين الحرب، تحف بها أعلام النصر والظفر، تخوض غمار القتال، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، وتجاهه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مجهزة بالسلاح والمدافع «تجود به معاملنا»، ولو لم يشهد رفاة مفاخر الجيش المصري في ذلك العصر، لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذي يعيش فيه، والبيئة التي تحيط به، ويصور الحياة على عهده فكأنما هو قطعة من عصره، أو امرأة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

وإنك لتلمح أيضاً عظمة الجيش المصري من قول رفاة في قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود:

يا أيها الجنودُ والنفادة الأسود
إن أمكم حسودُ يعودُ هامى المدع
فكم لكم حروبُ بنصركم تؤوبُ
لم تثنىكم خطوبُ ولا اقتحامُ مغمع

* * *

وكم شهدتم من غى وكم هزتم من بغى
فمن تعدى وطفى على جماكم يصرع

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية في تعريبه نشيد الحرية (المارسلييز)، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبوب إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاة رافع، حتى مالت نفسه إلى تعريبه، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية في حلة عربية قشبية. وإذا تأملت في شعر رفاة رافع الذي نقلنا طرفاً منه وجدت فيه تقدماً نسبياً إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التي سبقت، كالشبراوى والطار والخشاب وغيرهم، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التي حمل لواءها البارودى، وإسماعيل صبرى، وشوقى، وحافظ.

حقاً إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقي مثلاً، لجاء في المرتبة الثالثة، أو الرابعة، ولكن
نحب ألا ننسى أن رفاعة رافع نسياً في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها
واضمحلالها، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر.



عبد الله نديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦



ظل الشعر في مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوى
خلوًا من المعاني الوطنية، إلى أن تجددت في شعر عبد الله
نديم.

هو خطيب السورة العرابية، وهو أيضًا شاعرها،
انطبع في خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة، وروح
النورة.

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدأت عليه منذ صباه
مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه في الترسل في
الكتابة والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة في
الروح، وميل إلى الفكاهة، وجرأة وإقدام، واستخفاف
بأحداث الزمان.

ولما ظهرت النورة العرابية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية،
وتتطلع إلى الحرية والمجد، وتجلبت مواهبه الخطابية، فصار خطيب النورة العرابية.

ومما يذكر عنه في صدد الحديث عن شعره الوطني أنه لما سافر الألاى السودانى الذى كان
يقوده الأميرالاي عبد العال حلمى أحد زعماء النورة من القاهرة إلى دمياط، فى أوائل أكتوبر
سنة ١٨٨١. كان سفره يومًا مشهودًا، فاحتشدت الجموع فى محطة العاصمة لتحية الألاى حين
سفره. وكان من بين المودعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع
الحاسد وألقى خطبة حماسية فىاضة، بدأها بقوله مخاطبًا رجال الجيش:

«حماة البلاد وفرسانها!

«من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والتوازل عرف مقدار ما وصلتم
إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يُرَدُّ الأمر وهو عظيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه
فرُدُّوا عنان الخيل نحو مخيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطأة
فإنى بكم طول الزمان رحيم
فمن أين يأتى للديار نعيم؟
تأخر عنه صاحبٌ وهميم
تقلبه إبين البيوت نسيم
فمشدود أطراف الجهات قويم
فليس لمغلول اليمين حريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان!)، فنادى الجميع (رضينا بالموت في حفظ الأوطان!).

ولما شبت الحرب العراقية لازم النديم عرابى كفر الدوار ثم في التل الكبير، وكانت مجلته (الطائف)، تصدر في معسكر الجيش المصرى.

وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مخلصاً للثورة في محتتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مختفياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأعيا الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لن يرشد عنه، ولكنها لم تهتد إليه.

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه في قصيدة تفيض وطنية وإيماناً وفخراً وشجاعة، وهى من غرر قصائده. قال:

أتحسبنا إذا قلنا بلينا
نعم للمجد نفتحم الدواهى
تناوشنا فتقهرونا خطوب
سواء حربها والسلم إننا
بلينا أو يروم القلب لينا
فيحسب خامل أنا دُهينا
ترى ليث العرين لها قرينا
أناس قبل هدنتها هدينا

إلى أن قال:

إذا ما الدهر صافانا مرضنا
لنا جلد على جلد يقينا
ألفنا كل مكروه تفدى
فأعيا الخطب ما يلقاه منا
فإن عدنا إلى خطب شفيها
فإن زاد البلا زدنا يقينا
له فرسانه بالراجلينا
ولكننا صحاح ما عينا

سليتنا يا خطوب فقد عرفنا
وقرى فوق عاتقنا وقولى:
علينا للعلا دين وضعنا
فهل يمسى رهين فى سرور
إذا ما المجد نادانا أجبنا
يغنيننا فيلهينا التغنى
ولسنا الساخطين إذا رزنا
فإننا فى عداد الناس قوم
إذا طاش الزمان بنا حلمنا
إلى أن قال:

سلوا عنا (منابرنا) فإننا
لحكمتنا تقول إذا هذرت
سرى فينا من الآباء سر
فإن عشنا منحنا سائلينا
تركنا فى منصتها فطينا
ألا هبى بصحيتك فاصبحينا
يسوق البر نحو المعوزينا
وإن متنا نفحنا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذى كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم:

أنسى يوم مصر والبلايا
فكنت^(١) الغوث فى يوم كرية
مدحنا فيه فى إشراق شمس
وهل أنسى هجوم الجند عمراً
أحاطوا بى وسدوا كل باب
وكان السطح مملوءاً بجند
فأدركت الوحيد وكان صيداً
وأرشدت النديم إلى مكان
وأعمى الله عنا كل عين
وصرنا فوق سطح فيه علو
تطاردنى ولا ألقى معينا
أخاف الشهم والخبر السمين
فلما جاء مغريه هجيناً!
بلا علم وقد كنا فجيناً
وصرنا بين أيدي الباحثينا
وخلف البيت كم وضعوا كميناً
قريباً من فخاخ الطالبينا
رآه بعد حيرته مكيناً
وكنّا للعساكر ناظرينا
يحطم هاوياً منه متينا

(١) الخطاب هنا وفى الأبيات التالية موجهة إلى الرسول ﷺ، والتديم شريف النسب

فلم أرهب ونوبى من طمار
ويوم الغيظ كنت لنا مجيرا
فقد كنا بلا ستر يرانا
وكم سرنا بلا خوف جهارا
وإني الآن فى خطب عظيم
أتانا مخبر عن قوم سوء
وخاف الضر أحببى جميعا
فعجل بالرحيل بلا توان
فأدرك يا أبى نجلا دهاه
فما خفت المنون ولا الأعادى

فسرت الليل يصحبني نبات
ورافقتي خليل كان قبلا
وأدركنا القطار بغير خوف
وألقي الله ستر الحفظ فضلا
وكان الخل منتظرا قدومى
ونجى الله بعد اليأس عبدا
لحل نحو منزله دُعينا
يوافى حين كنا ظاهرينا
وكنا بالنياب منكرينا
فلم ترنا عيون الملسينا
بخيل أوصلتنا سالمينا
يرى الرحمن خير المنقذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة. وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن السدائد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن ونجلى جواهرها فى لهب النار، فاحتفظ النديم فى سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم نابت، وصمود على الأيام، وكذلك السدائد والمحن، يختلف أثرها فى نفوس الناس، فبينما تبعث اليأس والجزع فى النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة تباتاً وصبراً، وسجاعة وإيماناً، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه فى أوج انتصارها.

وفى الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العربيين الذى استمر فى جهاده ضد الانجليز ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال، وتلك لعمري ميزة كبرى جدية بأن تحيط اسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج

القطر، وفي أوائل عهد الخديو عباس الثاني عُفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التي لم تضعفها الهزيمة ولم تنل منها التذات، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل اللورد كرومر، وأمر بإبعاده عن مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣، وودع قراءه وداعاً مؤثراً في آخر عدد صدر منها (في ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال:

«ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقلة يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً في أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلاً:

أودعكم والله يعلم أنسى أحب لقاءكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواعٍ تبدت فالسلام عليكم!

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الآستانة حيث توفي سنة ١٨٩٦، وشيعت جنازته في احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى، ودفن هناك.

بالأمس كان غريباً في ديارهم واليوم صار غريب اللحد والكفن!

محمود سامي البارودي

١٨٤٠ - ١٩٠٤



محمود سامي البارودي هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى في نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدتها بعد طول الخمود.

ولد سنة ١٨٤٠، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية في الجيش المصرى، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف في عهد محمد على، وسمى البارودي نسبة إلى إيتاي البارود التي كان أحد أجداده الأمير مراد البارودي ملتزماً لها في عهد الالتزام.

وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدي أساتذة

خصوصيين في سراى والده بغيط العدة (القرية من باب الخلق) والمعروفة بسراى البارودي. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتظم في المدرسة الحربية، وتخرج منها سنة ١٨٥٥، والتحق بخدمة الجيش المصرى، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاي، وخاض غمار الحروب في ثورة كريد سنة ١٨٦٦، إذ كان ضابطاً في الجيش الذى أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار في مواقع عدة.

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشاً لنجدة تركيا كان البارودي من ضباطه، وأبلى في الحرب بلاء حسناً، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء، وعين مديراً للشرقية، وكان محافظاً للعاصمة حين ألف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ في أوائل عهد الخديو توفيق، فاختره فيها وزيراً للمعارف والأوقاف، واشترك في حوادث الثورة العراقية، وكان من زعمائها المشار إليهم بالبنان، وتولى رئاسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢، ثم كانت الهزيمة، وتفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) وظل في منفاه نيفاً وسبعة عشر عاماً، وأسبغ عليه النفي سمات التضحية والبطولة^(١).

(١) راجع ترجمته تفصيلاً في كتابنا (الثورة العراقية والاحتلال الإنجليزي).

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العراقية في متفاهم حياة ألم وحزن، إذ انقطعت صلتهم بالناس، وطال اغترابهم عن أرض الوطن، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم، ولم يكثر لهم أحد، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب)، وجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين إلى الوطن، والحزن على فراقه، مما يعد آية في البلاغة، وبلغت سليقته الشعرية في منفاه ذروة العظمة والجلال.

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:

نَحَا الْبَيْنُ مَا أَبَقَتْ عَيُونُ الْمَهَا مَنِي
عَنَاءٌ وَيَأْسٌ وَاشْتِيَاقٌ وَغُرْبَةٌ
فَشِئْتُ وَلَمْ أَقْضِ اللَّبَانَةَ مِنْ سَنِي
أَلَا شَدَّ مَا أَلْقَاهُ فِي الدَّهْرِ مِنْ غَبْنِ

إلى أن قال:

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
أهبت بصبري أن يعود فبزني
وما هي إلا خطوة ثم أقلعت
فكم مهجة من زفرة الشوق في لظي
وما كنت جربت النوى قبل هذه
ولكني راجعت حلمي وَرَدَّنِي
ولولا بنيات وشيب عواطل
مدامعنا فوق الترائب كالمزن
وناديت حلمي أن يشوب فلم يغن
بنا عن خطوط الحَيِّ أجنحة السفن
وكم مقلة من غرزة الدمع في دجن
فلما دهتني كدت أقضى من الحزن
إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن
لما قرعت نفسي على فانت سني

الصبر على الشدائد

وتجلت في منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس واحتمل آلام النفي بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية.

قال وهو في سرنديب (سيلان):

لم أقترف زَلَّةً تقضى علىَّ بما
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
فلا يظن بي الحساد مندمة
أصبحت فيه فماذا الويل والحرب؟
ذنب أدان به ظلماً وأغترب؟
فإنني صابر في الله محتسب

أَيْدِي الْحَوَادِثِ مَنِ فَهُوَ مَكْتَسِبٌ
وَلَا يَتَّيِدُ بِذِكْرِ الْخَامِلِ النَّشْبِ^(١)

أَنْرَيْتَ مَجْدًا فَلَمْ أَعْبَأْ بِمَا سَلَبَتْ
لَا يَخْتَنُضُ الْبُؤْسُ نَفْسًا وَهِيَ عَالِيَةٌ
وَقَالَ مُتَبَرِّيًا إِلَى مَصَادِرَةِ أَمْلَاكِهِ:

خُذْ لِي بِحَقِّي مِنْ يَدِي مَا طَلَى
مِنْ كَسْبِي الْحَرَّ بِلَا نَاطِلِ^(٢)
ذِي رَوْنَقٍ كَالصَّارِمِ الْقَاطِلِ^(٣)
فَفَضَّلَ رَبِّي حَلِيَّةَ الْعَاطِلِ

يَا نَاصِرَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
أَخْرَجْنِي عَمَّا حَوْتَهُ يَدِي
مِنْ غَيْرِ مَازِنٍ سِوَى مَنْطِقِ
فَإِنْ أَكُنْ جُرِّدْتُ مِنْ ثَرَوِي

وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى فِي مَقَاوِمَةِ الظُّلْمِ وَالصُّمُودِ أَمَامَ الْمَحْنِ وَالْخَطُوبِ:

عَلَيْهِ فَلَا يَأْسَفُ إِذَا ضَاعَ بُحْدُهُ
أُضِرَّ عَلَيْهِ مِنْ حَمَامٍ يَوْدُهُ
يَسِئُ وَيُتَلَّى فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ
أَيَفْرَحُ فِي الدُّنْيَا بِيَوْمٍ يَعُدُّهُ؟
بِهَا بَطْلًا يَحْمِي الْحَقْبَقَةَ شَدُّهُ

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْفَعْ يَدَ الْجَوْرِ إِنْ سَطَّتْ
وَمِنْ ذَلِكَ خَوْفُ الْمَوْتِ كَانَتْ حَيَاتُهُ
وَأَقْتُلْ دَاءَ رُؤْيَا الْعَيْنِ ظَالِمًا
عَلَامَ يَعْيشُ الْمَرْءُ فِي الدَّهْرِ خَامِلًا
عَفَاءً عَلَى الدُّنْيَا إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْشَ

وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

ب) وَفِيضِي آبَارَ (تَكَرُّور) تَبْرَا
وَإِذَا مِتَ لَسْتُ أَعْدِمُ قَبْرًا
نَفْسٌ حَرٌّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كَفْرًا

أَمْطَرِي لَوْلَا جِبَالِ (سَرَنْدِي
أَنَا إِنْ عَشْتُ لَسْتُ أَعْدِمُ قُوتًا
هَمَّتِي هَمَةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي الْحَنِينِ إِلَى الْوَطَنِ وَالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ:

وَيَا بَنَاتِ الْأَيْكَ نُوحِي مَعِي
مُرِّي بِرِيَّاكَ عَلَى مَرْبَعِي
بِاللَّهِ غَنِّي طَرِبًا وَاسْجَعِي
بِذِمَّةِ الدَّمْعِ فَلَا تَهْجَعِي

فِيَا دَمُوعَ الْقَطْرِ سِيلِي دُمًّا
وَأَنْتِ يَا نَسَمَةَ (وَادِي) الْغَضَا
وَأَنْتِ يَا عَصْفُورَةَ الْمَنْحَى
وَأَنْتِ يَا عَيْنَ إِذَا لَمْ تَفِي

(١) النَّشْبُ: الْمَالُ وَالْمَقَارُ.

(٢) النَّاطِلُ: الشَّيْءُ الْقَلِيلُ.

(٣) الْقَاطِلُ: الْقَاطِعُ.

أبيت أرعى النجم في سدفه ضلّ بها الصبح فلم يطلع



فهل إلى الأسواى من غاية أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأس يا قلب على ما مضى لا بد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال في منفاه يتمنى أن يرى مصر:

يا حبذا جرعة من ماء محنية وضجة فوق برد الرمل بالقاع^(١)
ونسمة كسميم الخلد فد حملت ربا الأزاهر من ميث وأجرع^(٢)
ياهل أراى بذاك الحى مجتمعا بأهل ودى من قومى وأساعى؟

وفال في هذا المعنى:

أبيت حزينا في (سرنديب) ساهرا طوال الليالى والخليون هجدا
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة نرت بين قلبى شعلة تتوفد
شباب وإخوان رزئت ودادهم وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد!

ومن قصيدة له في هذا المعنى قالها في منفاه يتشوق إلى الوطن:

هل من طبيب لداء الحب أراقى يتشفى عيلا أخا حزن وإبراق^(٣)
قد كان أبقى الهوى من مهجن رمقا حتى جرى البين فاستولى على الباقي
وفيها يقول:

باروضة النيل لامستك بائقة ولا عدتك سماء ذات إغداق^(٤)
ولا برحت من الأوراق في حلل من سندس عبقرى الوشى برأق
يا حبذا نسيم من جوها عبق يسرى على جدول بالماء دفاق
مرعى جياى وماوى جيرقى وجهى قومى ومنبت آدابى وأعراقى

(١) المنية. ما انحنى من الأرض

(٢) الميب. جمع ميناء الأرض اللينة

(٣) الراعى. اسم فاعل من رقا يرفيه أى عوده فهو راق.

(٤) البائقة الداهية والبالية ولا عدتك أى لا مجاوزتك

أصبوا إليها على بُعدٍ ويعجبنى أنى أعيش بها فى ثوب إملاق
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها أهلاً كراماً لهم ودى وإشفاقى

* * *

فيا بريدَ الصِّبا^(١) بلغْ ذوى رحى أنى مقيم على عهدى وميثاقى
وأنت يا طائراً ييكى على فنن نفسى فداؤك من ساقٍ إلى ساق
أذكرتني ما مضى والشمل مجتمِع بصر والحرب لم تهض على ساق
وقال أيضاً فى منفاه :

رُدُّوا على الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سوادُ اللمة البالى؟
ماض من العيش مالاحت مخايله فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالي
أدهى المصائب غدر قبله ثقة وأقبح الظلم صَدُّ بعد إقبال

* * *

لا عيب فى سوى حرية ملكت أعتنى عن قبول الذل بالمال
قلبى سليم ونفسى حرة وىدى مأمونة ولسانى غير ختال
بلوت دهرى فما أحمدت سيرته فى ابقى من لياليه ولا تالى
حليت شطريه من يسر ومعسرة وذقت طعميه من خصب وإمحال
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه إلا صحابة حر صادق الخال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر؟ والصدق فى الدهر أعياء كل محتال
لا فى (سرنديب) لى إلف أجاذبه فضل الحديث ولاخل فيرعى لى
أبيت منفرداً فى رأس شاهقة مثل القطامى فوق المربأ العالى
إذا تلفتُ لم أبصر سوى صور فى الذهن برسمها نقاش آمالى

* * *

علام أجزع والأيام تشهد لى بصدق ما كان من وسمى وإغفالى
راجعت فهرس آثارى فما لمحت بصيرتى فيه ما يُزرى بأعمالى
فكيف ينكر قومى فضل بادرى وقد سرتُ جِكمى فيهم وأمثالى

(١) الصبا بالفتح. ربح معروفة.

وإن غدوت كريم العمم والخال
تلوح في وجنة الأيام كالخال
وهتدى بسناها كل قوال
في صفحتيه فقولى خط تمثال
بين الأنعام فليس النبع كالضال
مركب من عظام ذات أوصال

فميلا إلى (المقياس) إن خفتما فقدى
شفائى من سقمى ويرئى من وجدى

أين من (مصر) من أقام (بكندى)^(١)
رونق السيف واهتزاز الفرند
كالعذارى يسحبين وشى الفرند
هى أبهى من كل عقد وبند
وهى تسقى به سلافة قند
قدح الشوق فى الفؤاد بزند

الحنين إلى الأهل والولد

وقال فى منفاه وقد رأى فى المنام ابنته الوسطى:

وما الطيف إلا ماتُريه الخواطر
بأوراقه والنجوم بالأفق حائر
محيط من البحر الجنوى زاهر
سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
أقام ولو طالت على الدياجر

أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به
ولى من الشعر آيات مفصلة
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته
فانظر لقولى تجد نفسى مصورة
ولا تغرنك فى الدنيا مشاكلة
إن ابن آدم لولا عقله شُبَّحُ

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خليلى هذا الشوق لاشك قاتلى
ففى ذلك (الوادى) الذى أثبت الهوى

وقال فى هذا المعنى:

طال شوقى إلى الديار ولكن
حبذا (الليل) حين يجرى فيدى
تثنى الغصون فى حافتيه
قلدتها يد الغمام عقودا
كيف لا تهتف الحمام عليه
كلما صورته نفسى لعينى

(١) كندى مدينة صغيرة فى جزيرة سيلان (سرنديب).

(٢) تأوب. أى أتى ليلا.

(٣) السدقة. السر.

تحمل أهوالَ الظلام مخاطرًا
«خماسية»^(١) لم تدر ما الليل والسرى
فيا بُعْدَ ما بيني وبين أجبتى
ولولا أمانى النفس وهى حياتها
فان تكن الأيام فرّقن بيننا
إلى أن قال:

فلا يشمت الأعداء بى فلربما
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه
ولى أمل فى الله تحيا به المنى
إذا المرء لم يركن إلى الله فى الذى
وإن هو لم يصبر على ما أصابه
ومن لم يذق حلول الزمان ومُرّه
على طلاب العِزِّ من مستقره
إلى أن قال:

فان كنت قد أصبحتَ فلَّ^(٢) رزية
فكم بطلٍ فلَّ الزمان شَبَاتَهُ
فسوف يبين الحق يوماً لناظِرٍ
وما هى إلا غمرة ثم تنجلي
فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعدما

وعهدى بمن جادت به لا تخاطر
ولم تنحسر عن صفحاتها الستائر
وياقرب ما التفتُّ عليه الضمائر
لما طار لى فوق البسيطة طائر
فكل امرئ يومًا إلى الله صائر

وصلتُ لما أرجوه بما أحتاذر
وتنهض بالمرء الجدود العوائر
ويُشرق وجه الظن والخطبُ كاشرُ
يحاذره من دهره فهو خاسر
فليس له فى معرض الحق ناصر
فما هو إلا طائش اللب نافر
ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

تقاسمها فى الأهل بادٍ وحاضر
وكم سيّد دارت عليه الدوائر
وتنزوا^(٣) بعوراء الحقود السرائر
غيابتها والله من شاء ناصر
تسامت بأفلاذ القلوب الحناجر

إلى غاية تَنَفَّتُ فيها المرائر
على فلكة الساقين فيها المآزر

فمهلاً بنى الدنيا علينا فإننا
تطول بها الأنفاس بُهراً^(٤) وتلتوى

(١) أى بنت خمس سنوات.

(٢) فل. أى منهزم.

(٣) تنزوا: تطمح يقال: نزا به عليه طمح.

(٤) هرا بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء فى اللسان.

هنالك يعلو الحق والحق واضحٌ ويسفُل كعب الزور عائر
وعما قليل ينتهى الأمر كله فما أولٌ إلا ويتلوه آخر

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها:

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمى) مصر
بناءً رَدًّا صولة الدهر عنهما
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر
تلوح لآثار العقول عليهما
رموز لو استطعت مكنون سرها
فما من بناء كان أو هو كائن

وختمها بقوله:

فيا نسمات الفجر أذى تحيى
ويا لمعات البرق إن جزت بالحمى
عليها سلام من فؤاد متيم
ولا برحت في الدهر وهى خوالد

إلى ذلك البرج المطل على النهر
فصوبى عليها بالنشار من القطر
بها لا يربات القلائد والشذر^(١)
خلود الدراى والأوابد من شعرى

شعر القتال

ومن قصيدة له فى إحدى المعارك التى خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال.

ولما تداعى القول واشتبك القنا
ورُئى للناس الفرار من الردى
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
صبرت لها حتى تجلت سماؤها

ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
سقيناً بكأس لا يفيق لها شرب
وإنى صبور إن ألم بى الخطب

(١) الشذر: صغار اللؤلؤ.

الفساد في عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى، وهى من شعره السياسى الوطنى الرائع:

قامت به من رجال السوء طائفة	أدهى على النفس من يؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه	بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت	قواعبد الملك حتى ظل في خلل

إلى أن قال:

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعوا	شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً	لكل منتزع سهماً ومختل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية	ويرفل العدل في ضفاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش:

أمران ما اجتماعاً لقائد أمة	إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم	(شورى) وجند للعدو بمِرصد

يندد بالفسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الفسائس التى كانت تحك حوله:

نقموا على حميق فتألبوا	حزباً على وجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا	سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد	والسيف يغلبه المضاد فيقطع

يحث على الاعتدال، ويستنكر الذل

قال فى هذا المعنى:

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن	لدوداً ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما	لقيت به شهماً يبرّ على المشرى

فَرُبُّ فَقِيرٍ يَمْلَأُ الْقَلْبَ حِكْمَةً وَرُبُّ غَنِيٍّ لَا يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي^(١)
وَكُنْ وَسْطًا لَا مِشْرَبًا إِلَى السُّهَى وَلَا قَانَعًا يَبْغِي التَّزْلِفَ لِلصُّفْرِ^(٢)
فَأَحْمَدُ أَخْلَاقَ الْفَقْرِ مَا تَكَافَأَتْ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْكِبَرِ
وَلَا تَعْتَرِفُ بِالذَّلِّ فِي طَلَبِ الْغِنَى فَإِنَّ الْغِنَى فِي الذَّلِّ شَرٌّ مِنَ الْفَقْرِ

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه في منفاه، فاستقبل مصر بقصيدته التي مطلعها:

أَبَاهِلُ مَرَأَى الْعَيْنِ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عَيُونًا هِيَ السَّحَرُ
فَإِنَّ يَكُ مُوسَى أَبْطَلَ السَّحَرَ مَرَّةً فَذَلِكَ عَصَرُ الْمَعْجَزَاتِ وَذَا عَصَرُ
إِلَى أَنْ قَالَ:

وَإِنِّي أَمْرٌ تَأْتِي لِي الضِّمِيمُ صَوْلَةٌ مَوَاقِعُهَا فِي كُلِّ مَعْتَرِكٍ حَمْرُ
أَبِي عَلَى الْحَدَثَانِ لَا يَسْتَفْزِي عَظِيمٌ وَلَا يَأْوِي إِلَى سَاحَتِي ذَعْرُ

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعًا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها، وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان في أوج سلطانه، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران، وتذكر أخطائه التي كان لها أثرها في التمهيد للاحتلال، فلم يترحم على عهده، ونظم هذه القصيدة معتبرًا ومذكرًا، وهي من آيات الشعر في العظة والاعتبار، وقال:

هَلْ بِالْحُمَى عَنْ سَرِيرِ الْمَلِكِ مِنْ يَزْعِ؟ هِيَ (الجزيرة) فَانْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا
أَضَحَتْ خِلَاءَ وَكَانَتْ قَبْلَ مَنْزِلَةٍ فَلَا مَجِيبَ يَرِدُ الْقَوْلَ عَنْ نَبَأِ
كَانَتْ مَنَازِلُ أَمْلاكٍ إِذَا صَدَعُوا طَائِرُ الْحَوَادِثِ مِنْ أَوْكَارِهَا وَقَعُوا
عَاشُوا بِهَا حَقِيقَةً حَتَّى إِذَا نَهَضَتْ

(١) أتى لا ينعم ولا يضُر.

(٢) القانع هنا: السائل المتذلل، والصفر: الذهب.

لو أنهم علموا مقدار ما فغرت
دارت عليهم رحي الأيام فانشعبوا
كانت لهم عصب يستدفعون بها
يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
أيدى سبا وتخلت عنهم السبيع
كيد العدو فما ضرروا ولا نفعوا

* * *

أين المعازل بل أين الجحافل بل
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
لو كان للمرء فكر في عواقبه
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
دهر يغمر وآمال تسر وأع
يسعى الفتى لأمر قد تضر به
أين المناصل والخطية الشرع؟
أحداث أو بقي من شر ما يفع
ولا تعطلت الأعياد والجمع
وإنما صفوه بين الورى لمع
ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
من لم يزل بغرور العيش ينخدع
حمار تمر وأيام لها خدع
وليس يعلم ما يأتى وما يدع

* * *

يا أيها السادر المزور من صلف
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
إن الحياة لثوب سوف تخلعه
مهلا فإنك بالأيام منخدع
لعل قلبك بالإيمان ينتفع
وكل ثوب إذا مارت ينخلع

وظل البارودى بعد عودته من المنفى في عزلة من الناس، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من
الأدباء والشعراء والحافظين لعهد، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٤٠، فخلف مجداً لا يبلى على
الزمان.

* * *

اسماعيل صبرى

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته، وطنى بفطرته وحسن سريرته، أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته، فتحركت شاعريته، تـجـاهد الاستعمار، وتمجد المعانى الوطنية، وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافى وفيض الإحساس المرفه والذوق الرفيع.

كان شاعراً رقيقاً مجيداً، عميق الوجدان، مقلاً فى شعره، محتاطاً فى نشر ما تجود به قريحته، كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث، وثانيهم بعد البارودى.

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرسة الابتدائية سنة ١٨٦٦، ثم بمدرستى التجهيزية والإدارة (الحقوق)، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية «أكس» سنة ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلاً لوزارة الحفانية (العدل) سنة ١٨٩٩، واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧.

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره.

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء)، واعترف له بذلك زملاؤه، شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامته من قوله فى رثائه:

أيام أمـرح فى غبارك ناشئاً تهج المهار على غبار خفاف^(١)
أتعلّم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قواف

(١) المهار: جمع مهرة وخفاف درس مسهور فى العرب

ومن قول حافظ في رثائه أيضاً:

لقد كنت أغشاه في داره وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعري على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

تتجلى في شعره القومي روح الحب الخالص للوطن، والشجوة الحزين على مآسيه، والاستمساك بالعزة والكرامة، والشمم والإباء، ولقد عبّر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه، وترجم عن آمالهم وآلامهم.

كانت وطنيته عميقة الجذور، عاش حياته لم يزر إنجليزياً قط، ولم يذهب يوماً إلى الوكالة البريطانية، في حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء في ذلك العهد، وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال، فاستعصم وأبى، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة، قال: وماذا تفيدني رئاسة الوزارة غير اغضاب ضميري وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه^(١).

كان صديقاً صدوقاً للزعيم مصطفى كامل، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى ولم يكن يكتف مناصرته إياه في أى منصب تولاه.

كان محافظاً للاسكندرية سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلقي بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت، ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام، وألقى مصطفى كامل خطبته.

ولما عين وكيلًا لوزارة الحفانية (العدل) في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى، وكان في غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له ومناصرته إياه في الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقي في رثائه لاسماعيل صبرى إذ يقول:

وتح الشباب وقد تخطر بينهم هل متعوا بتمسح وطواف؟
لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) نكس (اللواء) لثابت وقاف
فلکم سقاء الودّ حين وداده جَرَبٌ لأهل الحكم والاشراف

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين في مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢.

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد في شعر إسماعيل صبرى انسجاماً مع سياسة مصطفى كامل وتمجيدها للوطنية
ومناصرة للأمة في جهادها للحرية والاستقلال.

قال في قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمى الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى
الدستور.

سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وأفتح به ما شئت من باب أمامك يغلّق

حادثة دنشواى

وقال فيها يصور حادثة دنشواى ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذى أصدره الخديو
عن مسجونيه.

وأقلت عشرة قرية حكم الهوى إن أن فيها بائس مما به
وارحمنا لجناتهم ماذا جنوا؟ وقضاتهم^(٢) ما عاقهم أن يتقوا؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية للناس طي صحيفة تتألق
نزلت ترفرف حول كاتب نصها زمراً ملائكة الرضى وتحلق
شكرتك مصر على سلامة بعضها شكرياً يغرب فى السورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل ترمى إلى أمر أجل وترمق^(٣)
قانون (دنشواى) ذاك صحيفة تتلى فترتاع القلوب ونخفق
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر والموت حول نصوصها يترقرق؟
ومضاجع القوم النيام أواهل بمعذب يردى وآخر يرهق

(١) المطوق. السجين.

(٢) فضاتهم أى قضاة المحكمة المختصة التى حكمت عليهم.

(٣) يريد الدستور.

لن تبلغ المرحى شفاءً كاملاً ما دام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلم أجمل والمكارم أليق

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعاً شديداً، وشيع جثمانه إلى مرقدته الأخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨)، ووقف على قبره يلقي قصيدته في وداعه، ولم يكد يلقي البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى في مصر وبحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعياً
حتى ظهر عليه التأثير الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يتم القصيدة، وقد ألقاها في حفلة تأبينه، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به، وشدة حزنه عليه، فجاءت آية في بلاغة الرثاء، ورقة التعبير عن الحزن والألم، وكأن كل بيت فيها دمة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم. قال:

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً وبرضيك في الباكين لو كنت واعياً
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل كما ذقت منه الحب والود صافياً
يسوى أنه يعتاده الحزن كلما رآك عن الحوض المهتد نائياً
ويعثر في بعض الخطوب إذا مشى إلى بعض ما يهوى فيرجع دامياً
وإن رامه سرب المسرات لم يجد محلاً به من لاعج الهَم خالياً
ألا علاني بالتعازي وأقنعا فؤادي أن يرضى بهن تعازياً
وإلا أعيناني على النوح واليكما فشأنكما شأني وما بكما بيا
وما نفعي أن تبكي غير أنني أحب دموع البر والمرء وافيأ

* * *

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فإن القوم حولك أطارقوا وقل ياخطيب الحى رأيك عاليأ
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة تخالك أعواد المنابر فانيأ
وتبكيك لولا أن فيها بقية تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفت ما بين جفئك والكرى محالفة أم قد أمنت الأعاديأ؟

* * *

فقدناك فقدان الكمى سلاحه
وبتنا وقد باتت رفاتك فى الثرى
ولولا ترات من أمانيك عندنا
طواك الردى طيء الكتاب تضمنت
مضاء إذا البيض انتمت لأصولها
ورأى يجلى اليأس واليأس ضارب
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا
فليتك إذ أعيت كل مساجل
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض

وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
سقاها الحيا^(١) نستيطء الدمع هاميا
كريم بكينا إذ بكينا الأمانيا
صحائفه من كل فخر معانيا
غضينا إذا سمالك قوم يمانيا
على الأفق ليلا فاحم اللون داجيا
ذكرناها حتى نجيد التقاضيا
قنعت فلم تعى الطبيب المسدويا
مع الخبر قلبا يعلم الله غاليا

* * *

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة
نحييك سيفاً بات فى الترب مغمداً

سدى فبكى الفخر الذى كان راجيا
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا
تقلده فيما مضى الحق ماضيا

مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسى يملأ القلوب أملا وشجاعة.
قال من قصيدة له مخاطباً الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته لجرحى الحرب:
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى
مستنجداً من بنى مصر إلى شمم
مستهماً هامياً و (النيل) فى وجل

إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا
إذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا
من أن تجود به أيمانكم حذر

الوحدة بين العنصرين

وقال داعياً إلى الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة:
عينى فيك اليوم قبطية
ويأخذ البر وآى الوفا

تروى الأسى عن مسلم موجع
عن الكتاب الطيب المشرع

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية:

خففوا من صياحكم ليس في مصر لأبناء مصر من أعداء
دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا إذا تماسكنّا وإلا فمصر للغرباء

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمي حين سقطت وزارته وكان مواليا للاحتلال خاضعا له:

عجبت لهم قالوا سقطت ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم^(١)

في الإباء وعزة النفس

ومن قوله في الإباء وعزة النفس، والزراية بالمتكبرين:

أيها التائه^(٢) المدلل علينا ويك قل لي من أنت؟ إني نسيت
لو فرشت الطريق درًّا لأخطو فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلان وفلان تزاورا ما حييت!

وقال في الاستمساك بالكرامة:

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحر من طعام يُختم بالشهد والملامة

(١) أى أن مصطفى فهمي كان في منزلة دانية لا يؤله السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر.

(٢) التائه: المتكبر من التيه بكسر التاء.

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات:
يا من تزوج بائنتين ألا اتشدُّ ألقىت نفسك ظالما في الهاوية
ما العدل بين الضرتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانية!

التوحيد والحرية

وله في تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تتبهر في النغم والرين
وقوة الأثر، وهي من الشعر المنتور البليغ. قال:
أحب التوحيد في ثلاثة: الله. والمبدأ. والمرأة.
وأحب الحرية في ثلاثة:
حرية المرأة في ظل زوجها
وحرية الرجل تحت راية الوطن
وحرية الوطن في ظل الله.

تنديده بالظلم والاستعمار

قال في قصيدة له يخاطب (الدواة):
وإذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدا من الشرور مدادا فاجعليه في قسمة الظالمينا
إلى أن قال:
وإذا كان فيك نقطة سوء كونت من خيانة تكويننا
فاجعليها قسط الذين استباحوا في السياسات حرمة الأضعفينا

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويندد بما في فعلتها من الغدر
ونقض العهود والمواثيق:
بعض هذا الجفاء والعدوان راقبى الله أمة الطليان!

قد ملأت الفضاء غدرًا وجهلاً
وبعثت السفين ترمى طرايلد
تخرق البحر والمواثيق والعـ
سَّيرتها أضغان قوم لقوم
من رآها تجرى توهم أن الـ
لا وربَّ الأسطول ما حمل الأسد
إن قوم الطليان أحرص من أن
وتسمنت غارب الطغيان
سر بحرب مشبوبة النيران
هدَّ جهازا وذمة الجيران
سَلِمُوا من دناءة الأضغان^(١)
قوم هموا للشار للأوطان
طول جيشًا إلى حمى الحبشان^(٢)
يُفضحوا مرتين في ميدان

الامتيازات الأجنبية

وقال في هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدول الشرقية للأوروبيين فقابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول:

ويحهم ما لصنعهم أبطر القو
ولماذا تمخض السلم عن حر
منح قد بذرن في سر أيدٍ
هكذا فلتك المروءات في عص
م فعقوا ما كان من إحسان؟
ب لظاها يشوى الوجوه عوان؟
كن مذكّن منبت الكفران
ر البهاليل من بنى الرومان!

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الزمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبييتها الشر تحت ستار الود والصدقة:

لا ينق بعضنا ببعض وهذا
إن تسلّم على الغريب فسلم
ربما أصبح العناق صراعًا
ما أعد الإنسان للإنسان
في ظلال السيوف والمران^(٣)
في زمان الآداب والعرفان^(٤)

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم في هذه الحرب.

(٢) يشير بهذا البيت والذي يليه إلى هزيمة الطليان أمام الأحباش في معركة عدوه المشهورة سنة ١٨٩٦ ويعبرهم بالسكوت عن الأخذ بتأثرهم في هذه المعركة.

(٣) يريد المران الرماح أى القوة المسلحة.

(٤) في هذا البيت ينهكهم بالدول الأوربية وما تنطوى عليه من الغدر ونقض العهود في عصر المدنية والعلوم والآداب.

التغنى بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال:

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني إذا ونى يوم تحصيل الإعلا واني
إلى أن قال:

لا تقربوا (النيل) ان لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرّة كدّا دون مورده أو فاطلبوا غيره رياء لظمان
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم لا تتركوا بعدكم فخرا لإنسان
لا تتركوا مستحيلا في استحالته حتى يميظ لكم عن وجه إمكان
مقالة هبطت من عرش قائلها على مناكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من دعر ودان لها ما في المقطم من صخر وصوان
يبنون ما تقف الأجيال حائرة أمامه بين إعجاب وإذعان
من كل مالم يلد فكر ولا فتحت على نظائره في الكون عينان
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل جنا تطير بأمر من (سليمان)

(أهرامهم) تلك حيّ الفن متخذا من الصخور بروجها فوق كيوان
قد مر دهر عليها وهي ساخرة بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان نهلان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفاني
فصغرت كل موجود ضخامتها وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا يثنى على القوم في سرّ وإعلان
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة بأنهم أهل سبق. أهل إمعان
إذا أقام عليهم شاهدا حجر في هيكل قامت الأخرى ببرهان

كأنما هي والأقوام خاشعة
تستقبل العين في أثائها صور
لو أنها أعطيت صوتا لكان له
وختمها بقوله:

أين الأولى سجلوا في الصخر سبرتهم
بادوا وبادت على آثارهم دول
وخلفوا بعدهم حريا مخلدة
ورُحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا
ويل له هتك الأستار مقتحما
للجهل أرجح منه في جهالته

وصغروا كل ذي ملك وسلطان
وأدرجوا طيَّ أخبار وأكفان
في الكون ما بين أحجار وأزمان
عليهم العلم ذاك الجاهل الجاني
جلال أكرم آثار وأعيان
إذا هما وزنا يوما بميزان

إلى شوقي في منفاه

وكان على ود صميم مع شوقي، وحينما نفى شوقي من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به، وكان شوقي قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ بيتين من قصيدة له مشهورة^(١) قال فيها:

يا سارى البرق يرمى عن جوانحننا
لما ترقرق في دمع السماء دما
فأجابه صبرى بهذه الأبيات:

يا وامض البرق كم نبَّهت من شجن
فالماء في مقل، والنار في مهج
لولا تذكر أيام لنا سلفت
يا آل ودى عودوا لا عدمتكم
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا

في أضلع ذهلت عن دائها حيننا
قد حار بينهما أمر المحبيننا
مابات يبكى دما في الحى باكيننا
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
أزهار أندلس هبى بواديننا^(٣)

(١) سيرد ذكرها في الحديث عن شوقي.

(٢) يريد شوقي أن البرق اقتبس اشتغاله من نار جوانحه وتحيل أن ما جرى به البرق من المطر مشتق من دموعه.

(٣) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التي عطرته أزهاره ويعيش في جوها شوقي ويناجيها أن تهب عليه في مصر.

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق، صادقا عيوفا، أبنيا وفييا لوطنه وأصدقائه، معتزا بكرامته، صريحا محبا للحق، بعيدا عن الزهو والخيلاء، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة إلى أن توفى في ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل، وخلف كنوز من الشعر والوطنية، والفضائل النفسية، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود.

* * *

أحمد شوقي

شاعر الوطنية الأكبر

١٨٧٠ - ١٩٣٢



بلغ الشعر الوطني ذروته على لسان شوقي وحافظ، فلقد حملا لواء النهضة الشعرية في العصر الحديث، وتغنيا بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التي وقعت في مصر والشرق صداها في شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله في تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطني، سطع نجمهما في عصر واحد، وغردا في جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما في عام واحد (١٩٣٢) ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقي في الرفيق الأعلى.

سمى شوقي أمير الشعراء، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الامارة تضافى على صاحبها

منزلة محترمة، هذا إلى أن شوقي أكبر من أن يمجّد بهذا اللقب، فهل نسميه (سيد الشعراء)؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضاً تتفق والأوضاع الديمقراطية، فهل نسميه (زعيم الشعراء)؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن ينازعه في زعامة الشعر أحد من أئداده ومعاصريه، فلقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها في المهرجان الذي أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧ وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربي وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفود الشعر قد بايعت معي

على أن لقب (زعيم الشعراء) لا يكفي للتعريف به والتثنية بمكانته، وخير لقب له أن يسمى (شاعر العربية الأكبر) وأن نسميه في هذا الكتاب (شاعر الوطنية الأكبر)

ولد أحمد شوقي في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠^(١) وتعلم في المدارس النظامية، ودخل مدرسة

(١) عن التاريخ الثابت في شهادة الليسانس التي نالها الفقيه من كلية الحقوق بباريس

الإدارة (الحقوق)، في أوائل عهد الاحتلال، وفي سنة ١٨٨٧ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب، وأتم دراسته سنة ١٨٩٣.

أدرك شوقي الاحتلال الإنجليزي وهو شاب مهذب مثقف، وعرف كيف عصف الاحتلال باستقلال البلاد، وإذ كانت عبقريته الشعرية قد خلقت وولدت معه ولازمته منذ صباه، فقد قترنت بشعوره الوطني الذي تولد في نفسه بالفطرة، وزاده توهجاً ورسوخاً رؤيته الاحتلال لأجنبي يجهل على صدر البلاد، فامتزجت شاعريته بوطنيته، وكان لمصر وآلامها صدى بعيد وأثر عميق في شعره، وظل حبه للوطن يوجهه في قصائده ويلهمه التغريد له والحنو عليه. التحق منذ عودته إلى مصر بديوان المعية الخديوية، وعلت مكانته لدى الخديو عباس الثاني حتى سمي (شاعر الأمير) ولكن روحه الوطنية لم تتأثر كثيراً من صلته بالقصر هذا إلى أن لخديو عباس كان في أول عهده بالعرش يناوئ الاحتلال والاحتلال يناوئه، حتى إذا جنح بهادنة الاستعمار، لم يكن لهذا التحول أثر كبير في شعر شوقي، اللهم إلا هداةً وقتية في الحرب لمشوبة بين الأمة والاحتلال، على أن تأصل روح الوطنية في نفسه جعله لا يجارى الخديو عباس، انصرافه عن الحركة الوطنية، ثم في تنكره لها، فبقى شعره ينهل من منبع الوطنية الصافي. وانفصل عن منصبه في القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش في ديسمبر سنة ١٩١٤ بتحرر من المنصب الحكومي، فزادته الحرية قوة وإنتاجاً وتحليلاً في سماء الشعر والفن والخيال، استهدف لاضطهاد السلطة العسكرية البريطانية، إذ قررت نفيه وتركت له اختيار البلد الذي نفى إليه، فاختار أسبانيا (الأندلس)، وبقي على عهده للوطن، ثم عاد من منفاه في فبراير سنة ١٩٢٢، والبلاد في غليان الثورة، فاستقبلت مصر شاعرها الملهم استقبالا حافلا رائعاً. ويمتاز شعر شوقي بقوة البيان، وروعة الموسيقى الشعرية، وسعة الأفق، والتعمق في استيعاب لحوادث التاريخ، قديمها وحديثها، ولقد جرى فحول الشعراء المتقدمين، وبذهم في كثير من قصائده، وجدد بعض التجديد في الشعر العربي بما اقتبسه عن شعراء الغرب، وعن الثقافة الأوروبية، وسار في التجديد شوطاً بعيداً وخاصة بعد عودته من المنفى، إذ وضع عدة مسرحيات معرية بلغت مبلغاً عظيماً من الفن والموسيقى والجمال، كمصرع كليوباتره، ومجنون ليلى، عنتره، وغيرها، وظل ينتج ويشدو ويبدع، إلى أن توفي في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

الوطنية في شعر شوقي

في قصائد شوقي يسطع نور الوطنية، ويتأجج لهيبها، وهو أغزر الشعراء مادةً وأوسعهم إنتاجاً في هذه الناحية، ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته، شاباً وكهلاً وشيخاً، بل إن

سعره الوطني في شيخوخته كان أقوى منه في شبابه، وقد يكون مرجع ذلك إلى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمي، كما أسلفنا، ثم إلى نفيه من مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى، فأثار البعد عن الوطن شاعريته، وجاد بأبداع قصائده في الحنين إلى مصر وحبها والهيام بها إلى درجة التقديس، ومرجع ذلك أيضا إلى تأصل عبقرية الشعر في نفسه، فلم تضعفها السن، ولم ينل منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا.

والوطنية في شعر شوقي هي فيض الفطرة والإلهام، وليست من صنع الظروف أو التكلف، ولذلك جاءت قوية جارفة، عميقة رائعة.

فتأمل في أول قصيدة له في ديوانه وهي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها.

هَمَّتِ الْفَلَكَ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ وَحَدَاهَا بَيْنَ ثَقَلِ الرَّجَاءِ

تجدها آية في شعر الملاحم أو الشعر التاريخي، وتحس وأنت تقرؤها أنها قبس من نور الوطنية، فهي سجل ناطق (لكبار الحوادث في وادي النيل)، وقد بلغ عدد أبياتها ثلثمائة بيت إلا قليلا (تسعين ومائتي بيت)، عرض فيها عرضا أخاذا بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عام نظمها، أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها، وحنى عليها في كبواتها، واستنزل السخط على كل من اعتدى عليها.

فانظر إلى قوله عن عظمة مصر:

قُلْ لِبَنِي بَنَى فَشَادَ فَعَالِي لَمْ يَجْزُ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءِ
لَيْسَ فِي الْمَكْنَنَاتِ أَنْ تُنْقَلَ الْأَجْبَالُ^(١) شُئًا وَأَنْ تُنَالِ السَّمَاءُ

ولما انتهى في سرد الحوادث إلى الحملة الفرنسية سجل إخفاقها وارتدادها عن مصر، قال:

وَأَقَى النَّسْرُ^(٢) يَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهْبًا حَوْلَهُ قَوْمُهُ النَّسُورُ ظِمَاءُ
يَشْتَهِي النَّيْلَ أَنْ يَشِيدَ عَلَيْهِ دَوْلَةُ عَرْضُهَا الثَّرَى وَالسَّمَاءُ
حَلُمْتُ رُومَةً بِهَا فِي اللَّيَالِي وَرَأَاهَا الْقِيَاصُ الْأَقْوِيَاءُ
فَأَتَتْ مِصْرَ رُسُلُهُمْ تَتَوَالَى وَتَرَامَتْ سَوْدَاتُهَا الْعُلَمَاءُ
وَلَوْ اسْتَشْهَدَ الْفَرَنْسِيُّ رُومًا لِأَتَتْهُمْ مِنْ رُومَةِ الْأَنْبَاءِ
عَلِمْتُ كُلَّ دَوْلَةٍ قَدْ تَوَلَّتْ أَنَا سَمَهَا وَأَنَا الْوَبَاءُ

(١) الأحيال: جمع جبل.

(٢) يقصد نابليون.

قاهر العصر والممالك نابليون ولَّت قوائده الكبراء
جاء طيشاً وراح ومن قبل أطاشت أناسها العليا
وانظر كيف يصور في البيتين الآتين سكوت الأهرام وهي تواجه نابليون بأنه سكوت
السخرية والاستهزاء وكأنها تتنبأ له بالهزيمة في ختام معاركه، قال:

سكنت عنه يوم عيَّرها الأهرام لكن سكوتها استهزاء
فهى توحى إليه أن تلك (واتر لو) فأين الجيوش أين اللواء؟

وتأمل كيف يعبر عن قناة السويس بأنها نكبة على مصر قال:

جمع^(١) الزاخرين كَرها فلاكاً نا ولا كان ذلك الالتقاء
أحمر عند أبيض للبرابا حصّة القطر منها سوداء

والقصيدة كلها على هذا الغرار في الإجادة والإبداع، ولقد نظمها وهو في الرابعة والعشرين،
وكأنما رسم فيها منهجه في الشعر، فهو يقتبس من عبقريته الشعرية، ومن روحه الوطنية معاً،
وقد لازمه هذا الامتزاج في شتى قصائده.

شوقي ومصطفى كامل

سارت نهضة الشعر في مصر إلى جانب النهضة الوطنية التي هبت لمقاومة الاحتلال، ومن هنا
جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره، وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأيداً في
قصائدهم الغرّ، بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق في سماء مجده مثلاً تألق في عهد مصطفى
كامل ومحمد فريد.

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقي، وزاد في هذا التجاوب أن شوقي
كان صديقاً حميماً لمصطفى، وكلاهما معجب بصاحبه أياً إعجاب، ولا غرو فيها صنوان، وفرسا
رهان، هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذلك في دولة الشعر والبيان، وكان شوقي يعتز بصداقته
لمصطفى ومشاركته إياه في تعهده الروح الوطنية وغرسها في نفوس الجيل، وإلى ذلك يشير في
قصيدته عن ذكرى مصطفى سنة ١٩٢٥ اذ يقول فيها مخاطباً الفقيد.

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً سهرنا عن معلّمهم وناماً؟
مهّار الحق بغضنا اليهم شكيم القيصريّة واللجاما^(٢)

(١) الإشارة هنا إلى سعيد الذي منح دلبس امتياز القناة، ويريد بالزاخرين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

(٢) مهّار: جمع مهر، والمراد بالمهّار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصريّة ولجامها: بطش الاحتلال وجبروته.

(لواؤك) كان يَسْقِيهِمْ بِجَامٍ وكان الشعرُ بين يديَّ جاما
من الوطنية استَبَقُوا رَحِيْقًا فَضَضْنَا عَنْ مُعْتَقِهَا الْخَتَامَا

وكان مصطفى يصف شوقى بأنه «الغدير الصافي في القاف الغاب، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون»، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في (اللواء)، وفي ذلك يقول شوقى في مرثاته الخالدة:

قد كنت تهتف في الورى بقصائدى وتجلّ فوق النّيرين مكاني
وزاره وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه مصطفى أن يرتيه إذ أحس بدنو أجله، وفي ذلك يقول شوقى:

وجعلت تسألني الرثاء فهأكه من أدمعى وسرائرى وجناني
ويبدو الانسجام بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى في كثير من قصائده.

قصيدة شوقى في وداع اللورد كرومر

فمن ذلك قصيدته المشهورة في وداع اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ حين اضطر إلى الاستقالة على أثر حادثة دنسواى، ففي أبياتها تتجلى الروح الوطنية والنقمة على الاحتلال، قال:

أيامكم أم عهد اسماعيل أم أنت فرعون يسوس النيل؟
أم حاكم في أرض مصر بأمره لا سائلا أبداً ولا مستولاً
يا مالكا رقب الرقاب بيأسه هلا اتخذت إلى القلوب سبيلاً؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء رحيلاً
أوسعتنا يوم الوادع إهانةً أدبٌ لعمرك لا يصيبُ مثيلاً^(١)

إلى أن قال:

أنذرتنا رقاً يدوم وذلةً تبقى وحالا لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرةً لا يملك التغيير والتبديلاً؟
الله يحكم في الملوك ولم تكن دولٌ تنازعه القوى لتدولاً

(١) يشير إلى خطبة اللورد كرومر في الحفلة التي أقامها صنائع الاحتلال بدار الأوبرا تكريماً له وأهان فيها المصريين.

وعونُ قبلك كان أعظم سطوةً وأعزّ بين العالمين قبيلة

اليوم أخلفت الوعود حكومةً كنا نظن عهدَها الانجيلا
دخلت على حكما الوداد وشرعه مصرًا فكانت كالسلاسل دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت اعتقالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى ظلّ الحضارة في البلاد ظليلا
إن قيس في جود وفي سرف إلى ما تنفقون اليوم عدّ بخيلا
أو كان قد صرع (المفتش) مرةً فلکم صرعت بدنشواى قتيلا
لا تذكر الكرباج في أيامه من بعد ما أنبت فيه ذيولا

قصيدته في ذكرى دنشواى

وقصيدته سنة ١٩٠٧ أيضًا عن (ذكرى دنشواى)، بعد مرور عام على حادثتها، في سبيل طلب العفو عن سجنائها، وفيها وصف مؤثر لهذه المأساة.

قال:

يادنشواى على ربّاك سلامٌ ذهبت بأنسٍ ربوعكِ الأيام
شهداءُ حُكمك^(١) في البلاد تفرقوا هيهاتَ للشملِ الشتينِ نظام
مرّت عليهم في اللحد أهلة ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأراملُ فيك بعد رجالها وبأى حالٍ أصبح الأيتام؟
عشرون بيتًا أقفرت وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى في البروج حمائمٌ أم في البروج منيةٌ وحمائم؟
(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفذ الأحكام!

نوحى حمائم دنشواى وروعى شعياً بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه سحرًا وبين فراشه الأحلام

(١) أى حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواى.

متوجعُ يتمثلُ اليومَ الذى
السوطُ يعملُ والمشائى أربعُ
والمستشارُ^(١) إلى الفظائعِ ناظرُ
فى كلِّ ناحيةٍ وكلِّ محلةٍ
وعلى وجوهِ الثاكليينِ كآبةٍ
ضجتُ لشدةِ هولِهِ الأقدامُ
متوحشاتٌ والجنودُ قيامُ
تدمى جلودُ حولِهِ وعظامُ
جزعاً من الملاءِ الأسيفِ زحامُ
وعلى وجوهِ الشاكلياتِ رَغامُ

رثاء لمصطفى كامل

ولما توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقى بقصيدته الخالدة التى تعد أكبر مرثاة فى تاريخ الأدب العربى، ترجم فيها عن شعوره بالحزن والألم بآيات بينات تجلت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان، وقد نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً، فأثرت فى النفوس تأثيراً عميقاً، وجددت أحزان الأمة، وحفظناها وحفظها الشباب وقتئذ عن ظهر قلب، لأنها عبرت عن شعورنا جميعاً فى الرزء الفادح، ننشرها كاملة لأنها قطعة من الشعر الوطنى الخالد. قال فى مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان
يا خادم الإسلام أجر مجاهد
لما نعتت إلى الحجاز مشى الأسى
السكة الكبرى^(٢) حيال رباهما
لم تألها عند الشدائد خدمةً
يا ليت مكة والمدينة فازتا
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
جار التراب وإنْتَ أكرم راحل

قاصيهما فى مأتم والدائى
فى الله من خلد ومن رضوان
فى الزائرين وروّع الحرمان
منكوسة الأعلام والقضبان
فى الله والمختار والسلطان
فى المحفلين بصوتك الرنان
ما غاب من قس ومن سحبان^(٣)
ماذا لقيت من الوجود الفانى؟

وقال عن مرضه الذى أودى بحياته:

أبكى صباك ولا أعاتب من جنى
يتساءلون أباً لسلال قضيت أم
هذا عليه كرامةٌ للجاني^(٤)
بالقلب أم هل مت بالسرطان

(١) يريد الكتبتن ممثل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم.

(٢) يريد سكة حديد الحجاز

(٣) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.

(٤) الجاني إشارة إلى مصطفى كامل أى أنه ضحى بحياته وشبابه فى سبيل مصر.

والمجد والإقدام والعرفان

في هذه الدنيا فأنت الباقى
هل فيه آمال وفيه أمان
ولربّ حىّ ميّت الوجدان

ومضللٌ يجرى لغير عنان
عليها المراتب لم تُتَحْ لجبان
ماتوا على دين ولا إيمان
جُعِلَتْ لها الأخلاق كالعنوان
قَصُرَ يريك تقاصر الأقران
إن الحياة دقائق وثوان
فالذكر للإنسان عمرٌ تافى
ما شاء من ربح ومن خسران
وهى المضيق لمؤثر السلوان

يشقى له الرحماء وهو الهانى
في طيها شَجَنٌ من الأشجان
نعمى الحياة وبؤسها سيان

خطرات والإسرار والإعلان
غازٍ بغير مُهَنَّد وسنان؟
أن العلوم دعائم العمران

الله يشهد أن موتك بالحجا

وقال يشيد بأخلاق الفقيد:

إن كان للأخلاق ركن قائم
بالله فتش عن فؤادك فى الترى
وجدانك الحىّ المقيم على المدى

وقال فى فلسفة الحياة:

الناس جارى فى الحياة لغاية
والخلد فى الدنيا وليس بهين
فلو أن رسل الله قد جبنوا لما
المجد والشرف الرفيع صحيفة
وأحب من طول الحياة بذلة
دقات قلب المرء قائمة له
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
للمرء فى الدنيا وجم شؤونها
فهى القضاء لراغب متطلع

الناس غادٍ فى الشقاوة رائح
ومنعم لم يلق إلا لذة
فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها

وقال مخاطباً الزعيم:

يا طاهر الغدوات والروحات والد
هل قام قبلك فى المدائن فاتح
يدعو إلى العلم الشريف وعنده

وقال فى وصف الجنائز:

لّفوك فى علم البلاد منكّساً

جَزَعِ الهلالِ على فقى الفتیان

لكننا يبكى بدمع قاني^(١)
فكأنما في نعشك القمران
يختال بين بكى وبين حنان
ما ضم من عرف ومن إحسان
وجلالك المصدوق يلتقيان

ما احمرّ من خجل ولا من ريبة
يزجّون نعشك في السناء وفي السنا
وكأنه نعش (الحسين) «بكر بلا»
في ذمة الله الكريم وبره
ومشى جلال الموت وهو حقيقة

وبكتك بالدمع والهتون غواني
إذ ينصتون لخطبة وبيان
بعد المنابر أم بأى لسان
دفنوك بين جوانح الأوطان
حملوك في الأسراع والأجفان
كفن لست أحاسن الأكفان
لم تأت بعد رثيت في القرآن

شقت لمنظرك الجيوب عقائل
والخلق حولك خاشعون كمهدم
يتساءلون بأى قلب ترتقى
فلو إن أوطاناً تصوّر هيكلا
أو كان يحمّل في الجوارح ميت
أو صيغ من غر الفضائل والعلی
أو كان للذكر الحكيم بقية

وقال يصف الفقيد في مرضه الأخير:

والداء ملء معالم الجثمان
قنط وساعات الرحيل دواني
دمع تعاليج كتّمه وتعاني
ويداك في القرطاس ترتجفان
وأنا الذي هدّ السقام كياني
وعرفت كيف مصارع الشجعان
ما للمنون بدكهن يدان

ولقد نظرتك والردى بك محقق
يبغى ويطنى والطبيب مضلل
ونواظر العواد عنك أمالها
تملى وتكتب والمشاعغل جمّة
فهششت لى حتى كأنك عائدى
ورأيت كيف تموت آساد الشرى
ووجدت في ذاك الخيال عزائباً

من أدمعى وسرائرى وجناني
لنظمت فيك يتيمة الأزمان

وجعلت تسألنى الرثاء فهأكه
لولا مغالبة الشجون لخطيرى

وأنا الذى أرتى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى وتُجَلُّ فوق النيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بنت فعقنى فيك القريض وخاتنى إمكاني
هَوْنٌ عليك فلا شمسات بميت إن المنية غاية الإنسان
من للحسود بميتة بُلغتها عزّت على كسرى أنو شروان
عوفيت من حَرَب الحياة وحرّبا فهل استرحت أم استراح الشانى

وقال فى ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر:

يا صَبَّ مصر ويا شهيدَ غرامها هذا ثرى مصر فتم بأمان
اخلع على مصر شبابك غالياً والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصرًا من شبابك ترتدى مجداً تنيه به على البلدان
فلو أنابا لهرمين من عَزَماته بعض المضاء تحرّك الهرمان
علّمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عِظامك حانى
أقسمت أنك فى التراب طهارةً مَلَكٌ يهاب سؤاله المَلَكُان

شهيد الحق

وكان سوقى لا يفتأ يذكر مصطفى بعد وفاته:

فمن ذلك قصيدته التى نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكراه بعنوان (شهيد الحق)، تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى مصطفى كامل، فوفاه حقه من التمجيد، قال فى مطلعها:

إلام الخلف بينكمو إلا ما؟ وهذه الضجة الكبرى علاماً؟
وفيم يكيد بعضكم لبعضٍ وتبدون العداوة والخصاماً؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حالٍ ولا السودان داما

إلى أن قال:

ولينا الأمر حزباً بعد حزب فلم نك مصلحين ولا كراماً

جعلنا الحكم توليةً وعَزْلاً
وسُسنا الأمر حين خلا إلينا
ولم نَعُدَّ الجزاء والانتقاما
بأهواء النفوس فما استقاما

وقال ذاكرًا مناقب الفقيد:

شهِدَ الحق قم تَرَه يتيما
أقام على الشفاه بها غريبًا
سَقِمَتْ فلم تَبِتْ نفسٌ بخير
ولم أر مثل نعشك إذ تهادى
تَحْمَلُ همّةً وأقلَّ دينًا
وما أنساك في العشرين لما
يُشارُ إليك في النادى وتُرمى
إذا جئت المنابر كنت (قَسًا)
وأنت ألدُّ للحق اهتزازًا
وتحمل من أديم الحق وجهًا

بأرض ضُيِّعَتْ فيها اليتامى
ومرَّ على القلوب فما أقاما^(١)
كأن بمهجة الوطن السقاما
فغَطَّى الأرض وانتظم الأناما
وضمَّ مروءةً وحوى زماما
طلعت حيا لها قمرًا تمامًا
بعينى من أحب ومن تعامى
إذا هو في عكاظَ علا السناما
والطف حين تنطقه ابتساما
صراحًا ليس يتخذ اللثاما

أتذكرُ قبل هذا الجيل جيلًا
مِهَارُ الحق بغَضْنا إليهم
لواؤك كان يسقيهم بجامٍ
من الوطنية استبقوا رحيقًا
غرسنا كرمها فزكا أصولا
جمعتهمو على نبرات صوت
لك الخُطْبُ التى غص الأعداى
فكانت فى مرارتها زئيرًا

سهرنا عن معلّمهم وناما؟
شكيم القيصرية والجماما
وكان الشعر بين يديّ جاما
فَضَضْنا عن مَعْتَقْها الختاما
بكل قرارة وزكا مُداما
كنفخ الصوّر حركت الرجاما^(٢)
بسوّرتها وساعت للندامى^(٣)
وكانت فى حلاوتها بغاما^(٤)

(١) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر فى القلوب.

(٢) الرجاء: القبور.

(٣) السورة: الحدة والشدة؛ والندامى جمع نديم والمراد بهم والأنصار والأصدقاء.

(٤) البغام: صوت الظلى.

حديثاً من خرافة أو مناماً
وصيرت (الجللاء) لها دعاماً

بك الوطنية اعتدلت وكانت
بنيت قضية الأوطان منها

وله قصيدة في ذكره سنة ١٩٢٦ قال:

وحياة من السير	لم يمت من له أثر
بعدت غاية السقر	أدعه غائباً وإن
آبت الشمس والقمر ^(١)	آيب الفضل كلما
قد أتنا من الحفر	رب نور مُتَمِّم
ميّت الخير والخير	إنما الميت من مشى
وإذا مات لم يضر	من إذا عاش لم يفد
منه ظل ولا ثمر	ليس في الجاه والغنى
ور إذا ذلت القصر	قبّح العز في القص

وإلى (مصطفى) افتقر	أعوز الحق ذائد
هبة الصارم الذكر	وقنت جياضه
والذي يركب الخطر	الذي يُنفذ المدي
<u>واضع الأسس والحجر</u>	<u>أيها القوم عظموا</u>
هي من آية الكبر	أذكروا الخطبة التي
منبراً تحت محتضر	لم ير الناس قبلها
وهو يمشی إلى الظفر	لست أنسى لواءه
زُمرّاً إثرها زمر	حشر الناس تحته
لاترى البيض والسمر ^(٢)	وترى الحق حوله
نفخ الروح في الصور	كلما راح أو غدا

(١) أي يعود للفقيد فضل وتتجدد ذكره كلما آبت الشمس وعاد القمر

(٢) البيض: السيوف والسمر الرماح.

ياأخا النفس في الصبا
 وخليلا ذخرتنه
 حال بيني وبينه
 كيف أجزي مودة
 غير دمع أقوله
 وفؤادٍ معلل
 لم ينم عنك ساعة
 قم تر القوم كتلة
 جَدُّوا ألفة الهوى
 ليس للخلف بينهم
 ألفتهم روائح
 وصحوا من منوم
 أقبلوا نحو حقهم
 جعلوه خليّة
 وتواصوا بخطّة
 وقصارى أولى النهى
 آذنونا بموقف
 نسمع الليث عنده
 قل لهم في نديهم^(٢)

لذة الروح في الصغر
 لم يُغَمِّمْ بِمُدْخَر
 في فُجَاءاته القدر
 لم يَشُبْ صفوها كدر
 قل في الشأن أوكثر
 بالخيالات والذكر
 في الأحاديث والسمر
 مثل مَلُومَة الصخر
 والإخاء الذي شطر
 أو لأسبابه أثر
 غاديات من الغير
 وأفاقوا من الخدر^(١)
 ما لهم غيره وطمر
 شرعوا دونها الإبر
 وتداعوا لمؤمر
 يتلاقون في الفكر
 من جلال ومن خطر
 دون آجامه زار
 مصر بالباب تنتظر

شوقي وفريد

لم تكن صلة شوقي بفريد كصلته بمصطفى، وعندما تولى فريد زعامة الحركة الوطنية سنة ١٩٠٨، بعد وفاة الزعيم الأول، كانت سياسة (الوفاق) بين الخديوى عباس الثانى والمعتمد البريطانى قد ثبتت قواعدها، وتكر عبّاس للحركة الوطنية، ومع صلة شوقي بالقصر واشتداد الجفاء بين الخديوى وفريد، فإنه لم يتعرض له بسوء فى أى قصيدة له، وكان هذا منه نعم الوفاء للوطنية.

(٢) يريد البرلمان.

(١) الخدر الكسل.

وبدا حب تنوقي للحزب الوطني وتأييده له من رثائه لعمر بك لطفى أحد أقطاب هذا
الحزب ومؤسس التعاون في مصر، فقد نظم سنة ١٩١١ في رثائه قصيدة بديعة قال في مطلعها:
قَفُّوا بِالْقُبُورِ نُسَائِلَ عَمْرٍ متى كانت الأرض مَثْوَى القمَرِ؟
وفيها يقول:

وَيَبْكِي عَلَيْكَ النَّدَى الْأَغْرَ ^(١)	«نَقَابَاتُكَ» الْغُرُ تَبْكِي عَلَيْكَ
عَشِيَّةٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَثَرِ	وَيَبْكِي التَّعَاوُنُ مِنْ سَنَةِ
شَرِيفُ الْمَرَامِ شَرِيفُ الْوَطَرِ	وَيَبْكِيكَ (حِزْبُ) تَخْيِيرَتِهِ
وَأَنْتَ غَرَسْتَ فَكَانُوا الثَّمَرِ	وَيَبْكِي الْأَوَّلَى أَنْتَ عَلَّمْتَهُمْ

رثاؤه لفريد

ولما توفى فريد سنة ١٩١٩ رثاه بقصيدة من عيون شعره، ظهر فيها تقديره للزعيم الشهيد،
قال:

تَتَوَالَى الزَّكَابُ وَالْمَوْتُ حَادَى ^(٢)	كُلُّ حَيٍّ عَلَى الْمَنِيَةِ غَادَى
لَمْ يَدُمْ حَاضِرٌ وَلَمْ يَبْقَ بَادَى ^(٣)	ذَهَبَ الْأَوَّلُونَ قَرْنًا فَقَرْنَا
غَيْرَ بَاقِي مَآثِرٍ وَأُيَادَى؟	هَلْ تَرَى مِنْهُمْ وَتَسْمَعُ عَنْهُمْ

* * *

وَطَوَتْ مِنْ مَلَاعِبِ وَجِيَادِ	كُرَّةَ الْأَرْضِ كَمْ رَمَتْ صَوْلَجَانَا
دَوْرَانُ الرَّحَى عَلَى الْأَجْسَادِ	وَالْغُبَارُ الَّذِي عَلَى صَفْحَتَيْهَا
عِلْمُ الْحَقِّ أَوْ مَنَارُ الْمَعَادِ	كُلُّ قَبْرِ مَنْ جَانِبَ الْقَفْرِ يَبْدُو
وَمِحْطُ الرُّحَالِ مِنْ كُلِّ وَادَى	وَزِمَامُ الرُّكَابِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ
وَتُنَحِّلُ كَيْمَنْجِلَ الْحَصَادِ	تَطْلُعُ الشَّمْسُ حَيْثُ تَطْلُعُ نَضْجَا

إِلَى أَنْ قَالَ:

تَحْتَهَا مِنْ ذَخِيرَةٍ وَعَتَادِ؟	أَسَأَلْتُمْ حَقِيبَةَ الْمَوْتِ مَاذَا
-------------------------------------	---

(١) نادى المدارس العليا وكان عمر لطفى رئيسه.

(٢) الحادى هو الذى يغنى للفاصلة فتتنشط في سيرها.

(٣) الحاضر ساكن الحضر، والبادى ساكن البادية.

وحوارِي نِيَّةً واعتقاد
وحدها بالشهيد دار الرشاد
حاسراً قد تجلّت بسواد
راعها أن تراه في الأصفاد
في سبيل الحقوق نضو سُهاد
كان للحشد والتدى والطراد
لم يَدِنْ بالقرار في الأغمار

إن في طيها إمامٌ صُفوف
لو تركتم لها الزمام لجاءت
انظروا هل ترون في الجمع (مصرًا)
تاجُ أحرارها غُلامًا وكهلاً
وسدوه الترابَ نضو سِفار
واركزوه إلى القيامة رُحماً
وأقروه في الصفائح عَضْبًا

وقال مستيراً إلى موته في منفاه:

وانتهت محنةٌ وكفت عوادي
وشفى من أصادقٍ وأعداى
غايةً القرب أو قُصارى البُعاد
وافقد العمر لا تؤبّ من رُقاد
في قديمٍ من الحديث مُعاد
س ومعناه في صدور الصُّعاد
كتحلّى القتال باسم الجهاد

نازح الدار أقصرَ اليومَ بَيْنَ
وكفى الموت ما تخاف وترجو
من دنا أو نأى فإن المنايا
يسرّ مع العمر حيث شئت تؤوبا
ذلك الحقُّ لا الذى زعموه
وجرى لفظه على ألسن النسا
يتحلّى به القوى ولكن

وقياما على حقوق العباد
نزل الأقوياء فيه على الضّعْفَى وحلّ الملوك بالزُّهاد
صفحات نقيّة كقلوب الرسائل مغسولة من الأحقاد
قم إن أسطعت من سريرك وانظر
هل تراهم وأنت موفٍ عليهم
أمة هيئت وقومٌ خير السدود
مصرُ تبكى عليك في كل خدر
لو تأملتُها لراعى منها
منتهى ما به البلاد تُغزى
أمّهات لا تحمل الشكل إلا

هل ترى كالتراب أحسن عدلا
نزل الأقوياء فيه على الضّعْفَى وحلّ الملوك بالزُّهاد
صفحات نقيّة كقلوب الرسائل مغسولة من الأحقاد
قم إن أسطعت من سريرك وانظر
هل تراهم وأنت موفٍ عليهم
أمة هيئت وقومٌ خير السدود
مصرُ تبكى عليك في كل خدر
لو تأملتُها لراعى منها
منتهى ما به البلاد تُغزى
أمّهات لا تحمل الشكل إلا

(كفريد) وأين ثانی فريد
الرئيس الجواد فیما علمنا
أَكَلْتُ مَالَهُ الْحَقُّ وَأَبْلَى
لك في ذلك الضنى رِقَّةُ الرُّو
عِلَّةٌ لم تَصِلْ فِرَاسَكَ حَتَّى
صادفت قرحة يلائمها الصبر وتأبى عليه غير الفساد
وَعَدَّ الدهرُ أن يكون ضَمَاداً لك فيها فكان شر ضَمَاد
وإذا الروح لم تنفَسْ عن الجِسْمِ (فبقراط)^(١) نافخٌ في رَمَاد

قصيدته في ذكره

وفي سنة ١٩٢٤ نظم قصيدة في ذكره الخامسة، وهى من أبلغ شعره ومن أروع ما قيل في تمجيد فريد ووطنيته وتضحياته، قال:

نُجِدُّ ذَكَرَى عَهْدِكُمْ وَنَعِيدُ
وللناس في الماضى بصائرٌ يهتدى
إذا أَلَمْتُ لم يَكْرُمُ بِأَرْضِ ثَنَاؤُهُ
ونحن قضاة الحق نرعى قديمه
ونعلم أنا في البناء دعائم
فريد ضحايانا كثيرٌ وإنما
فَمَا خَلَفَ مَا كَابَدَتْ فِي الْحَقِّ غَايَةٌ
تَغْرَبَتْ عَشْرًا أَنْتَ فِيهِنَّ بِائِسُ
تَجْوَعُ بِلْدَانٌ وَتَعْرَى بَغِيرُهَا
أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَقِّ طَارِفُ
وَجُودُكَ بَعْدَ الْمَالِ بِالنَّفْسِ صَابِرَا

(١) بقراط هو أبو الطب.

فلا زلت تمثالا من الحق خالصا على سرِّه نبني العلا ونشيد
يعلّم نشء الحى كيف هوى الحمى وكيف يحامى دونه ويذود

حبه وتقديسه للوطن

إن حب شوقى للوطن يتمشى في معظم قصائده، مما تراه في ديوانه، وقد اقتبسنا طرفا منها، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى الحكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، وتبعث في نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والفناء فيه.

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

ويا وطنى لقيتُك بعد يأسٍ كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أنى دُعيتُ^(١) لكنتَ دينى عليه أقابل الحتم المجابا^(٢)
أدير إليك قبل البيت وجهى إذا فُهِتْ الشهادة والمتابا

ففى هذه الأبيات يقدم شوقى الوطن على الدين ويدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه.

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطبًا الشباب:

وَجْهُ الكَنانة ليس يُغضب ربُّكم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُوا إليه فى الدروس وجوهكم وإذا فرغتم. فاعبدوه هجودا
إن الذى قَسَمَ البلادَ حياكمو بلدًا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان-والدنيا لُحودٌ كلها- للعبقريّة والفنون مُهودا

وقوله وهو في منفاه:

وطنى لو شغلْتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أى أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه.
وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكية دمشق من الاستعمار الفرنسى:

(١) أى دعيت إلى الموت.

(٢) الحتم المجاب هو الموت.

وللأوطان في دم كل حرٍّ يدُ سَلَفَتْ ودينٌ مستحقُّ
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرَّجة تُدقُّ

وقوله:

لا تلوماها أليست حرة وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤:

أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نام
وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال:

وإني لغيريد هذا البطاح تغدَّى جناها وسلسالها
تَرى مصرَ كعبةَ أشعاره وكلُّ معلقة قالها

ثورة سنة ١٩١٩

قال من قصيدة له بعنوان (الحرية الحمراء) يمجّد ثورة ١٩١٩:

يومُ البطولة لو شهدتْ نهارَه لنظمتُ للأجيال ما لم يُنظَمْ
غُبِنتْ حَقِيقَتُهُ وفات جمالُها باعَ الخيالُ العبقريُّ الملهم
لولا عوادي النفي أو عقبانهُ والنفيُّ حالٌ من عذاب جهنم
لجمعتُ ألوانَ الحوادثِ صورةً^(١) مثلتُ فيها صورةَ المستسلم
وحكيّتُ فيها النيلَ كاظمَ غيظه وحكيّتُهُ متغيّظًا لم يكظم
دَعَتِ البلادَ إلى الغمار فغامرت وطنيَّةٌ بمثقف ومعلم
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت بسوَاه جَلُّ جلاله لا تحتُمى

يومَ النضالِ كَسَتْكَ لونَ جمالها حُرِّيَّةٌ صَبَغَتْ أديمك بالدم

(١) يشير إلى أنه كان منفاه حين شبت الثورة.

تعلقه بالجللاء

ويبدو في شعره مبلغ تعلقه بالجللاء، وإيمانه به، وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التي يستلهم منها شعره.

قال في سنة ١٩٢٤ يخاطب الشباب الذين أفرج عنهم بعد الحكم عليهم في قضية المؤامرة الكبرى:

لَمَّا بَنَى اللَّهُ الْقَضِيَّةَ ^(١) مِنْهُمْ	قَامَتْ عَلَى الْحَقِّ الْمَبِينِ عُمُودًا
جَادُوا بِأَيَّامِ الشَّبَابِ وَأَوْتَكُوا	يَتَجَاوِزُونَ إِلَى الْحَيَاةِ الْجُودَا
طَلَبُوا (الْجَلَاءَ) عَلَى الْجِهَادِ مَثُوبَةً	لَمْ يَطْلُبُوا أَجَرَ الْجِهَادِ زَهِيدًا
وَاللَّهِ: مَا دُونَ الْجَلَاءِ وَيَوْمِهِ	يَوْمَ تُسَمِّيهِ الْكِنَانَةُ عِيدًا
وَجَدَ السَّجِينَ يَدًا تُحَطِّمُ قَيْدَهُ	مَنْ ذَا يُحَطِّمُ لِبِلَادِ قِيودًا؟

وحدة وادى النيل

وقال في يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل من قصيدة له في استنكار حادث الاعتداء على المرحوم سعد زغلول ونجاته من محاولة اغتياله:

وَلَنْ نَرْضَى أَنْ تَقْدَّ الْقَنَاةُ	وَيُبْتَرَّ مِنْ مِصْرٍ سُدُودَانُهَا
فَمِصْرُ الرِّيَاضِ وَسُودَانُهَا	عَيُونَ الرِّيَاضِ وَخَلْجَانُهَا
وَمَا هُوَ مَاءٌ وَلَكِنَّهُ	وَرِيدُ الْحَيَاةِ وَشَرِيَانُهَا
تَتَمُّ مِصْرَ يَنْبَايِعُهُ	كَمَا تَتَمُّ الْعَيْنُ إِنْسَانُهَا
وَأَهْلُوهُ مِنْذُ جَرَى عَذْبُهُ	عَشِيرَةُ مِصْرٍ وَجِيرَانُهَا

مشروع ملنر

هو مشروع المعاهدة الذي انتهت إليه مفاوضات سعد - ملنر سنة ١٩٢٠ ويحمل في طياته عناصر الحماية، وكان ممن عارضوه المرحوم الدكتور عبد الحميد أبو هيف، فلما توفي سنة ١٩٢٦ رناه سوقي في قصيدة أشار فيها إلى هذه المعارضة وأيدها، قال:

(١) يقصد القضية الوطنية.

بالأمس كانت لابن هيف غَضْبَةً للحق نذكرها يدًا بيضاء
 مُشت البلاد إلى رسالة (ملنر) وتحفرت أرضًا لها وساء
 فلمحتُ أعرجُ في زوايا الحق لم أعلم عليه ذِمَّةٌ عرجاء^(١)
 ارتدت العاهاتُ عن أخلاقه لسموهنَّ وحلت الأعضاء
 لما رأى (التقرير) ينفت سَمه سبق الحواة فأخرج الرقطاء^(٢)
 هتك الحماية والرجال وراءها يتلمسون لها الستور رياء

تصريح ٢٨ فبراير

وقال عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢^(٣).

ربحت من (التصريح) أن قيودها قد صرن من ذهبٍ وكنٌ حديدًا
 أوماترون على (المنابع)^(٤) عُدَّة لا تنجلي وعلى (الضفاف) عديدًا
 يافتيّة النيل السعيد خذوا المدى واستأنفوا نفسَ الجهاد مديدًا

يدعو إلى التضحية ويهاجم الاستعمار

قال يدعو إلى الجد والتضحية:

والمرء ليس بصادقٍ في قوله حتى يؤيد قوله بفَعَالِه
 والشعب إن رام الحياة كبيرة خاض الغمار دما إلى آماله

ومن قصيدته سنة ١٩٢٦ في نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسي:

لَحَاها الله أنباء توالَتْ على سمع الوليِّ بما يُشَقُّ^(٥)
 يفصلها إلى الدنيا يريدُ ويُجملها إلى الآفاق بَرَقُ

(١) أصيب المرحوم أبو هيف بمرض بترت فيه ساقه وكان يمشى على ساق صناعية.

(٢) الرقطاء. الحية.

(٣) هو التصريح الذي أعلنته بريطانيا في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرت فيه بانتهاء الحماية على مصر وبلاعتراف باستقلالها واحتفظت فيه بتولى أمور أربعة تعصف بجوهر الاستقلال وهي (١) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر (٢) الدفاع عن مصر (٣) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات (٤) السودان.

(٤) منابع النيل بالسودان. وعدة أئى جنودا. والضفاف قناة السويس.

(٥) الولي أى المحب والصديق.

وللمستعمرين وإن ألانوا
رماك بطيشه ورمى فرنسا
إذا ما جاء طُلابُ حقٍّ
دُمُ الثوار تعرفه فرنسا
قلوبٌ كالحجارة لا تَرِقُّ
أخو حربٍ به صَلَفٌ وَهَمُّ
يقول عصاةٌ خرجوا وشَقُّوا
وتعلم أنه نورٌ وحقُّ

إلى أن قال:

نصحتُ ونحن مختلفون دارًا
ويجمعنا إذا اختلفت بلادُ
وقفتُم بين موتٍ أو حياةٍ
ولالأوطان في دم كل حرٍّ
ومن يَسْقَى وَيَشْرَبُ بالمنايا
ولا يبنى المالك كالضحايا
ففى القتل لأجيالٍ حياةٌ
وللحرية الحمراء بابٌ
ولكن كُنَّا فى الهمِّ شَرِقُ
بيانٌ غيرٌ مُخْتَلَفٍ ونُطْقُ
فإن رمتُم نعيمَ الدهر فاشقوا
يدُ سلفتٍ ودَيْنٌ مستحقُّ
إذا الأحرار لم يُسْقُوا وَيَسْقُوا؟
ولا يُدْنَى الحقوق ولا يحقُّ
وفى الأسرى فِدَى لهم وعَتَقُ
بكل يدٍ مضرَّجةٌ يُدَقُّ

يشفق على الوطن

من قصيدة له فى استقبال عيد الفطر يشفق على مصر ويقول أن لا عيد حتى تتحقق أهدافها.

وطنى أسفتُ عليك فى عيد المَلَا
لا عيدَ لى حتى أراك بأُمَّةٍ
ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم
أبْظَلَّ بعضهم لبعض خاذلاً
وإذا أراد الله إشقاء القُرَى
وبكى من وَجَدَ ومن إشفاق
شَاءَ راوية من الأخلاق
وبقيت فى خَلْفٍ بغير خلاق^(١)
ويقالُ شَعْبٌ فى الحضارة راق؟
جعل الهداة بها دُعاةً شِقاق

يدعو إلى الأخلاق

إن بيته المشهور عن الأخلاق هو ديوان من الشعر تتجلى فيه الحكمة الأزلية فى أن الأخلاق

(١) الخلائق: النصيب الوافر من الخير.

هى أساس حياة الأمم وسبيلها إلى العظمة والمجد:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقد أكد هذا المعنى الرائع في غير موضع.
قال:

وإذا أصيب القومُ في أخلاقهم فأقيم عليهم مأتماً وعويلاً
وقال:

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدتهم حتى يكونوا من الأخلاق في أهب
وقال أيضاً:

على الأخلاق خُطوا الملكُ وابنوا فليس وراءها للعز رُكنُ
وقوله:

المجد والشرف الرفيعُ صحيفةٌ جعلت لها الأخلاقُ كالعُنوان
وقوله:

وإذا ما أصاب بُنيانَ قومٍ وهى خُلِقَ فإنه وهى أُسُّ
وقوله:

كذا الناس بالأخلاق يَبْقَى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهبُ
وقوله:

ولقد يُقام من السيوف وليس مِنْ عِثَرَاتِ أخلاقِ الشعوب قِيامُ
ومن قصيدته (نهج البردة):

صلاحُ أمرك للأخلاق مَرْجِعُهُ فالنفسُ من خيرها في خير عافية
والنفسُ من شرها في مرتعٍ وَجِمِ
وقوله:

وكان جنائهم فيها مَهيباً ولأخلاق أجدر أن تُهابا

وقال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٢٠:

وليس بعامر بنيان قومٍ إذا أخلاقهم كانت خراباً

وقوله:

ولا المصائب إذ يُرمى الرجال بها بقاتلاتٍ إذا الأخلاق لم تُصَبِّ

يدعو إلى الوحدة الوطنية

من قصيدة له في رثاء بطرس غالي سنة ١٩١٠:

الحقُّ أبلجُ كالصباح للناظر	لو أن قومًا حَكَّموا الأحلاما
أَعْهِدَتْنَا وَالْقِبْطُ إِلَّا أُمَّةٌ	للأرض واحدةً تروم مراما
نُعَلِّي تَعَالِيمَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ	ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما
الدينُ للديَّانِ جَلٌّ جلاله	لو شاء ربك وَحَّدَ الأقواما
يا قوم، بآن الرشدُ فأقضوا ما جرى	وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذي ربوعُكم وتلك ربوعنا	متقابلين نعالج الأياما
هذه قبوركم وتلك قبورنا	متجاورين جماجمًا وعظاما
فَبِحَرَمَةِ الْمَوْتِ وَوَجِبِ حَقِّهِمْ	عيشوا كما يقضى الجوارُ كراما

وقال من قصيدة أخرى له في هذا المعنى سنة ١٩١٠:

تعالَوْا عسى نطوى الجفاء وعهدَه	وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك (مصر) مَهْدُنَا ثم لحدنا	وبينهما كانت لكل مغانيا
ألم تك من قبل (المسيح بن مريم)	و (موسى) و (طه) تعبد النيل جاريا
فهلّا تساقَيْنَا على حُبِّه الهوى	وهلّا فديناه ضفافًا وواديا
وما زال منكم أهل ودّ ورحمة	وفي المسلمين الخيرُ ما زال باقيا
فلا يُثْنِكم عن ذمة قتل (بطرس)	فقدما عرفنا القتل في الناس فاشيا

القوة في الاتحاد

صوت الشعوب من الزئير مجمعا فإذا تفرق كان بعضُ نباح

يستحث الشباب على العلم والجداد

قال مخاطباً الشباب في قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤:

يا شباب الغد وأبنائى الفدى	لکم أکرّم وأعزّز بالفداء
هل یمد الله لی العیش عسى	أن أراکم فی الفریق السعداء
وأرى تاجکم فوق السها	ورأى عرشکم فوق ذکاء
من راکم قال مصر استرجعت	عزها فی عهد (خوفو) و (مناء).
أمة للخلد ما تبني إذا	ما بنی الناس جمیعاً للعفاء
إنما مصر إلیکم وبکم	وحقوق البر أولى بالقضاء
عصرکم حر ومستقبلکم	فی یمین الله خیر الأمناء
لا تقولوا حطّنا الدهر فما	هو إلا من خیال الشعراء
هل علمتم أمةً فی جهلها	ظهرت فی المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها	إنما السائل من لون الإناء
فخذوا العلم علی أعلامه	واطلبوا الحکمة عند الحکماء
واقبرأوا تاریخکم واحتفظوا	<u>بفصیح جاءکم من فصحاء</u>
أنزل الله علی ألسنهم	وحیّه فی أعصر الوحی الوضاء
واحکموا الدنیا بسلطان فما	خلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد علی الأرض فإن	<u>هی ضاقت فاطلبوه فی السماء!</u>

یدعو إلى إنکار الذات

وقال مخاطباً الشباب فی قصيدة قالها سنة ١٩٢٤.

قالوا أنتظم للشباب تحية	تبقى علی جید الزمان قصیدا
قلت الشباب أتم عقد مآثر	من أن أزیدهمو التناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبّلت	تاجا علی هاماتهم معقودا
خرجوا فما مدوا خناجرهم ولا	منّوا علی أوطانهم بجهودا
خفی الأساس عن العیون تواضعا	<u>من بعد ما رفع البناء مشیدا</u>

حكمه وعظاته

تنساب في شعر شوقي الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويبصرهم بعبء التاريخ وعظات الحوادث، مما نذكر طرفاً منه.

جلال الخالدين

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود:
جلالُ الملك أيامٌ وتمضي ولا يمضي جلال الخالدين

الخلود للعمل الصالح

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وأنه للعمل الصالح:
من سرّه أن لا يموتَ فبالْعُلَى خُلدَ الرجال وبالفعل النَّابِه
ما مات من حاز الثَّرَى آثارَه واستولت الدنيا على آدابه
قل للمدّل بما له وبجاهه وبما يُحلّ الناسُ من أنسابه
هذا الأديم يَصُدّ عن حُضاره وينام ملء الجفن على غُيابه
إلا فتى يمشى عليه مجدّداً ديباجتيه معمرًا لخرا به

العدل أساس الملك

وقال في العدل:
والعدل في الدولاب أسٌ ثابت يُفنى الزمان وينقذ الأجيالا

فلسفة الحياة

وقال من قصيدته في رثاء مصطفى كامل:
دَقَّاتُ قلب المرءِ قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
ومن قوله في ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون:
في الموت ما أعيّا^(١) وفي أسبابه كل امرئ رهن بطي كتابه

(١) ما أعيّز أى ما أعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطي كتابه، أى باق في الحياة حتى ينتهى أجله.

إن نام عنك فكل طَبَّ نافع أو لم ينم فالطب من أذنبه
إلى أن قال منوهاً بفضل كارنارفون في اكتشافاته الأثرية:

أَقْضَى إِلَى خَتَمِ الزَّمَانِ فَفَضُّهُ وَحَبَا إِلَى التَّارِيخِ فِي مُحَرَابِهِ
وطوى القرونَ القهقري حتى أتى فرعونَ بين طعامه وشرابه

ومن قوله في العظة والاعتبار حين سقطت أدرة وكانت من أمهات المدن الإسلامية في
مقدونية وغلبلها البلغار سنة ١٩١٢:

يا أخت أندلس عليك سلامٌ هوت الخلافة عنك والإسلامُ
إلى أن قال يندد بسياسة الترك:

رفعوا على السيفِ البناءَ فلم يدم ما للبناءِ على السيوفِ دوام
أبقى المالكِ ما المعارفُ أسَّه والعدلُ فيه حائطٌ ودعم
إِنَّ الغرورَ إذا تملكَ أمةً كالزهرِ يُخْفَى الموتَ وهو زوام

لا حقَّ للضعيف

وقال سنة ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مشيراً إلى صلف الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها
من القوة ما تسترد به حقها:

أَتَعْلَمُ أَنَّهُمْ صَلَفُوا وَتَاهُوا وَصَدَّوْا الْبَابَ عَنَّا مَوْصِدِينَا؟
ولو كنا نجرُّ هناك سيفاً وجدنا عندهم عطفًا ولينا
سيقضى (كرزن) بالأمر عنا وحاجاتُ (الكتانة) ما قضينا

وقال في هذا المعنى:

يا طيرُ والأمثالُ تُضْ ربِّ لِيْلَيْبِ الأمثالِ
دُنْيَاكَ مِنْ عَادَاتِهَا أَلَا تَكُونُ لَأَعْزَلِ

الحكم للشعوب لا للمستبدين

قال سنة ١٨٩٤ في أول قصيدة له في ديوانه ينبه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى
النزول على حكمها:

إن ملكت النفوس قابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودوا ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائرٌ مثلها جا روا ولدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد:

زمان الفرد يا فرعون ولّي ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاية بكل أرض عل حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين:

المستبد يُطاق في ناووسه لاحت تاجيه وفوق وثابه^(١)
والفرد يؤمن شره في قبره كالسيف نام الشر خلف قرابه^(٢)

وقال في هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥:

قسما بمن يحيى العظا م ولاأزيدك من يمين
لو كان من سفر أيا بك أمس أو فتح مبین
لرأيت جيلا غير جيلك بالجبابر لايدین
ورأيت محكومين قد نصبوا وردوا الحاكمين^(٣)
روح الزمان ونظمه وسبيله في الآخرين
ان الزمان وأهله فرغا من الفرد اللعين
فإذا رأيت مشايخا أوفتية لك ساجدين
لاقي الزمان تجدهمو عن ركبه متخلفين
هم في الأواخر مولدا وعقوهم في الأولين

الشعب قد يُخدع

قال في مسرحية (مصرع كليوباترة) على لسان (حاي) يخاطب (ديون)^(٤):

(١) الناووس. القبر. والوثاب: السرير.

(٢) قراب السيف: غمده.

(٣) نصبوا وردوا: أي ولوا وعزلوا الحاكمين.

(٤) حاي وديون: من أشخاص الرواية وكلاهما من أمناء مكتبة قصر كليوباترة.

إِسْمَعِ الشَّعْبَ دِيُونُ كَيْفَ يُوحُونَ إِلَيْهِ
مَلَأَ الْجَوَّ هُتَافَا بِحَيَاتِي قَاتِلِيهِ
أَثَرُ الْبَهْتَانُ فِيهِ وَأَنْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ
يَا لَهُ مِنْ بَبْغَاءَ عَقْلُهُ فِي أَذْنِيهِ

الحياة الدستورية السليمة

قال عن الدستور:

تشرُّ الحكومة أن يساس بواحد في الملك أقوامٌ عداد رماله

وقال سنة ١٩٢٤ من قصيدة له عن (الأزهر):

وَتَفَيَّأُوا الدِّسْتُورَ تَحْتَ ظِلَالِهِ كَنَفًا أَهْنًا مِنَ الرِّيَاضِ وَأَنْضُرَا
لَا تَجْعَلُوهُ هَوًى وَخُلْفًا بَيْنَكُمْ وَجَرًّا دُنْيَا لِلنَّفُوسِ وَمَتَجَرًّا
اليوم صرَّحت الأمور فأظهرت ما كان من خدع السياسة مضمرًا
قد كان وجهُ الرأى أن نبقى يدًا ونرى وراء جنودها إنجلترا
فإذا أتننا بالصفوف كثيرةً جئنا بصفٍّ واحد لن يُكسرا

وقال سنة ١٩٢٦ من قصيدة له في عيد الجهاد:

وبالدستور وهو لنا حياةً نرى فيه السلامة والفلاحا
أخذناه على المهج الغوالى ولم نأخذه نيلًا مُسْتَمَاحا
بَيْنَنَا فِيهِ مِنْ دَمْعٍ رُواقا ومن دم كل نابتة جناحا

وقال سنة ١٩٢٧ عن الحياة الدستورية السليمة:

إِذَا سَلِمَ الدِّسْتُورُ هَانَ الَّذِي مَضَى وهان من الأحداث ما كان آتيا
الأكَلُ ذَنْبٌ لِيَالِي لِأَجَلِهِ سَدَلْنَا عَلَيْهِ صَفْحَنَا وَالتَّنَاسِيَا

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطنى يوم ١٩ فبراير من تلك السنة واثلت فيه الأحزاب يحى الدستور لمناسبة عودته بعد توحيد الصفوف:

صَرَّحُ^(١) عل الوادى المبارك ضاحى متظاهراً بالأعلام والأوضاع

(١) يريد الدستور.

ضافى الجلالة كالعتيق مَفْصَلُ
وكان رَفَرَفَه رواق من ضَحَى
الحقُّ خَلَفَ جناحٍ استندى^(١) به
هو هيكَلُ الحرية القانى، له
يُبْنَى كما تُبْنَى الخنادقُ فى الوغى
يَنهارُ الاستبدادُ حَوْلَ عِراضه
ويكبُّ طاغوتُ الأمور لِوَجْهه

ساحاتٍ فضل فى رِحابِ سَمَاح
وكان حائطَه عمود صَبَاح
ومراشِدُ السلطانِ خَلَفَ جَنَاح
ما لِلهياكلِ من فِدَى وأُضاح
تَحْتَ النبالِ وَصَوَّها السَّحَّاح
مِثْلَ انهيارِ الشريكِ حولِ (صلاح)^(٢)
مَتَخَطَّمِ الأصنامِ والأشباح

هو ما بَنَى الأَعْزَالُ بالِرَّاحاتِ أو
أَخَذْنَهُ (مصرُ) بكلِّ يومٍ قاتمٍ
هَبَّتْ سِمَاحًا بِالحياةِ سَبابِها
وَمَشَتْ إلى الخَيْلِ الدَّوارِعِ وانْبَرَتْ
وقفاتٌ حقٌّ لم تَقْفَها أمةٌ
وإذا الشُّعوبُ بَنَوْا حقيقةَ مُلْكِهِم

هو ما بَنَى الشهداءُ بالأرواحِ
وَرَدَّ الكواكبِ أحمَرِ الإصباحِ
والشَّيبِ بالأَرَمَاقِ غَيْرُ شِجَاحِ
لِلظَّافِرِ الشَّاكِي بِغيرِ سِلَاحِ
إِلَّا انْثَنَتْ آمالُها بِنِجَاحِ
جعلوا الماتَمَ حائطَ الأفراحِ

إلى أن قال فى توحيد الصفوف:

بُشْرِى إلى الوادى تَهْزُ نَبَاتُهُ
تَسْرِى مُلَمَّحَةً الحُجُولُ علَ الرُّبَى
التامتِ الأحزابُ بعدَ تَصَدُّعِ
سُحِبَتْ على الأحقادِ أذِسالُ الهوى
وجرَتْ أحاديثُ العتابِ كأنها
تَرْمى بِطَرْفِكَ فى المِجامعِ لا ترى

هَزَّ الربيعِ مَنَاكِبَ الأدواحِ
وتَسِيلُ غُرَّتُها بِكُلِّ بِطَاحِ
وتصافتِ الأقلامُ بعدَ تَلَاحِ
ومَشَى على الضغنِ الودادُ الماحى
سَمَرٌ على الأوتادِ والأقداحِ
غَيْرَ التعانقِ واشتباكِ الراحِ

إلى أن قال يصف تعطيل الدستور عام ١٩٢٥:

احتَلَّ حصنُ الحقِّ غيرُ جنوده
وتكَالَبَتْ أَيْدٍ على المفتاحِ

(١) استندى: استظل.

(٢) صلاح: اسم لكمة.

وَاسْتَوْحَشَتْ لِكُمَاتِهَا النَّزَاحَ
وَحَلَا مِنَ الْغَادِينَ وَالرَّوَاحِ
كَالْغَارِ مِنْ شَرَفٍ وَسَمِيٍّ صَلاَحِ

ضَجَّتْ عَلَّ أَبْطَالُهَا تُكْنِئَاتُهُ
هُجِرَتْ أَرَائِكُهُ وَعُطِّلَ عُدُوهُ
وَعَلَاهُ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ فَزَادَهُ

وقال ينصح الشباب:

ذَرُّ الشَّبَابَ يَضِيقُ بِالنَّصَاحِ
فِي قِصَفِ أَنْوَاءٍ وَعِصْفِ رِيَّاحِ
فِي الْحَادِثَاتِ وَسَيْلِهَا الْمُجْتَاحِ
مِنْ أَمْرِ مُفْتَاتٍ وَنَهْيِ وَقَاحِ
فَإِذَا تَفَرَّقَ كَانَ بَعْضُ نُبَاحِ
رَنْقًا مِنَ الْإِحْسَانِ غَيْرِ قَرَّاحِ
طَهَّرَتْ عَلَيْهِ سَجِيَّةُ الْمَنَاحِ
لَا فِي الْخِيَالِ وَلَا طَرِيقُ سَرَّاحِ
وَكَسَا الْقِيُودَ مُحَاسِنَ الْأَوْضَاحِ
طَوَّلُ اجْتِهَادٍ وَاضْطِرَادُ كِفَاحِ
إِنْ الْأُنَاةَ سَبِيلُ كُلِّ فَلَاحِ
إِنْ الشُّرَاعَ مُثَقَّفُ الْمَلَّاحِ

قُلْ لِلْبَنِينَ مَقَالَ صَدَقٍ وَاقْتَصِدِ
أَنْتُمْ بَنُو الْيَوْمِ الْعَصِيبِ نَشَأْتُمْ
وَرَأَيْتُمُ الْوَطْنَ الْمُؤَلَّفَ صَخْرَةً
وَشَهِدْتُمْ صَدْعَ الصَّفُوفِ وَمَا جَنَى
صَوْتُ الشُّعُوبِ مِنَ الزَّئِيرِ مُجْمَعًا
أَظْمَتَكُمْو الْأَيَّامُ نَمَ سَقَتَكُمْو
وَإِذَا مُنِحَتْ الْخَيْرُ مِنْ مُتَكَلِّفٍ
تَرَكَتْكُمْو مِثْلَ الْمَهِيضِ جَنَاحُهُ
مَنْ صَيَّرَ الْأَغْلَالَ زُهْرَ قَلَانِدٍ
إِنْ الَّتِي تَبْغُونَ دُونَ مَنَاحِهَا
سَيَرُوا إِلَيْهَا بِالْأُنَاةِ طَوِيلَةً
وَخَذُوا بِنَاءَ الْمَلِكِ عَنْ دُسْتُورِكُمْ

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٦ حين اجتمع برلمان الائتلاف:

وَالْعِزُّ لِلدُّسْتُورِ وَالْإِكْبَارُ
فِيهِ وَلَا يَطْفَى بِهِ جَبَّارُ
صَالَهُ وَاخْضَلَّتْ الْأَسْحَارُ
وَلِكُلِّ جَهْدٍ فِي الْحَيَاةِ ثَمَارُ
وَبَنِينَ لَمْ يَجِدُوا السَّلَاحَ قَتَارُوا
وَمِنَ الْمَشَانِقِ وَالسَّجُونِ جِدَارُ
بِالْحَقِّ أَوْ بِالْوَاجِبِ الْأَحْرَارُ
فِيهِ وَلَا سُلْطَانُ مِصْرَ صَغَارُ
فِيهِ وَلَا غَيْرُ الصَّلَاحِ شِعَارُ

الْحَقُّ أَبْلُجٌ وَالْكِنَانَةُ حُرَّةٌ
الْأَمْرُ شُورَى لَا يَعْتُ مُسْلُطُ
عَهْدُ مِنَ الشُّورَى الظِّلِيلَةِ نَضْرَتْ
تَحْنِي الْبِلَادَ بِهَا ثَمَارُ جُهُودِهَا
بَنِيَانِ آبَاءٍ مَشُوا بِسَلَاحِهِمْ
فِيهِ مِنَ التَّلِّ الْمَدْرَجِ حَائِطُ
أَبَتْ التَّقِيدَ بِالْهَوَى وَتَقِيدَتْ
فِي مَجْلِسٍ لَا مَالُ مِصْرَ غَنِيمَةُ
مَا لِلرِّجَالِ سِوَى الْمُرَاشِدِ مَنَهِجُ

يتعاونون كأهل دارٍ زلزلت حتى تقرر وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلكها والريح دون الفلك والإعصارُ
ومع المجدد بالأناة سلامة ومع المجدد بالجماح عتارُ

يدعو إلى انتخاب الأكفاء الشرفاء

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٢ قال في مطلعها:
أعدت الراحة الكبرى لمن تعباً وفاز بالحق من لم يألُ طلباً
إلى أن قال مشيراً إلى الانتخابات البرلمانية:
دار النيابة قد صفت أرائكها لا تجلسوا فوقها الأحجار والخشب
اليوم يا قوم إذ تبون مجلسكم تبون للعقب الأيام والحقب
ومن قصيدته سنة ١٩٢٤ عن (الأزهر):

دار النيابة هيئت درجاتها فليرقى في الدرج الذوائب والذرا
الصارخون إذا أسىء إلى الحمى والذائدون إذا أغير على الرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى يمشون في ذهب القيود تبخترا

رؤاد الوطنية

قال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له في رثاء المرحوم عبد اللطيف الصوفاني:
ألست من فئة سهام سنوا المحاماة والرما
فتأهم بالشباب ضحى ما أعظم الذبيح والفداء
ومات أبطلهم جيعاً في غير أوطانهم ظمأ
ولو أرادوا متاع دنيا لأدركوا الحكم والثراء
قضية الحق منذ قامت لم تأل أركانها بناء
تحذو على مصطفى وتبنى بجيلاً من الحق أقوياء
شرعتمو للشباب ديناً كدينهم بيناً سواء
لما أتيتم به جعلتم رأس تعاليمه (الجملاء)
جمعتم مصر ثم سرتم فكنتم الجمع واللواء
وما عرفتم لغير مصر وغير أحبابها ولاء

لم تمسحوا للعميد رأساً ولا نفضتم له حذاء

وقال من قصيدة يرثى فيها المرحوم أمين الرافعي:

قيل غالٍ في الرأي قلت هُبُوهُ قد يكون الغلو رأياً أصيلاً
وقديماً بنى الغلو نفوساً وقديماً بنى الغلو عقولاً
قد فقدنا به بَقِيَّةَ رَهْطٍ أيقظوا النيل وادبا ونزيلاً
حركوه وكان بالأمس كالكهف حُزونا وكالرقيم سُهولاً
يا أمين الحقوق أدبت حتى لم تُخْنِ مصرَ في الحقوق فتيلاً
ولو اسطعتْ زدتْ مصر من الحى على نيلها المبارك نيلاً
لستُ أنساك قابعاً بين درجيك مكباً عليها مسغولاً
قد تواريت في الخشوع فخالو ك ضيلاً وما خلقت ضيلاً
سائل (الشعب) عنك (والعلم) الخفاق أو سائل (اللواء) الظليلاً
تُنيِدُ الناس في (القضية) لحناً كالحواري رتل الإنجيلاً
ماضياً في الجهاد لم تتأخر تزن الصف أو تقيم الرعيلاً
ما تبالى مضيت وحدك تحمى حَوْدَةَ الحق أم مضيت قبيلاً

يدعو إلى النهضة الاقتصادية

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في الاحتفال بإنشاء بنك مصر يدعو إلى الاكتتاب في رأس مال البنك وينوه بفضل المال في نهضة الأمم:

قل بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالاً أداؤها بإجمال
إلى أن قال:

يا طالباً لمعالى الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يُبَيِّنْ ملكٌ على جهل وإقلال
سراة مصر عهدناكم إذا بُسِطت يد الدعاء سراعاً غير بُخَال
تبين الصدق من بين الأمور لكم فامضوا إلى الماء لا تلوا على الآل
لا يذهب الدهر بين الترهات بكم وبين زهر من الأحلام قتال
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا رأياً لرأى ومثقالاً بمثقال
هذا هو الحجر الدرّى بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالى

آمال مصر إليها عالما طمحت هل تبخلون على مصر بآمال
فابنوا على بركات الله واغتنموا ما هيا الله من حظ وإقبال
وقال في قصيدة أخرى:
الملك بالمال والرجال لم يُن ملك بغير مال

يحیی النهضة النسوية

كان مؤيداً ونصيراً لنهضة المرأة، ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ في جمع حافل من السيدات
المصريات بمسرح حديقة الازبكية، وجعل عنوانها في ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها
المتجددات) قال:

قُم حَيِّ هَذِي النَّيِّرَاتِ	حَيِّ الْحَسَانَ الْخَيْرَاتِ
وَاخْفِضْ جَبِينِكَ هَيْبَةً	لِلخُرْدِ الْمُتَخَفِّرَاتِ ^(١)
زَيْنَ الْمَقَاصِرِ وَالْحَجَا	لِ وَزَيْنَ مَحْرَابِ الصَّلَاةِ
هَذَا مَقَامُ الْأُمَمَا	تِ فَهَلْ قَدَرْتَ الْأُمَمَاتِ؟
لَا تَلْعُ ^(٢) فِيهِ وَلَا تَقُلْ	غَيْرَ الْفَوَاصِلِ مُحْكَمَاتِ
وَإِذَا خُطِبْتَ فَلَا تَكُنْ	خُطْبًا عَلَى مِصْرِ الْفَتَاةِ
أَذْكُرُ لَهَا الْيَابَانَ لَا	أُمِّ الْهَوَى الْمُتَهْتِكَاتِ
مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْحُضَا	رَةِ يَا أَخِي التَّرَهَّاتِ
لَمْ تُلَقْ غَيْرَ الرِّقِ مِنْ	عُسْرِ عَلَى الشَّرْقَى عَاضَتِ

خُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالْحَدِيثِ	ثَ سِيرَةِ السَّلَفِ الثَّقَاةِ
وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الْخَلِيلِ	حَقِّقْ وَاتَّبِعْ نُظُمَ الْحَيَاةِ
هَذَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ	يُنْقِصْ حُقُوقَ الْمُؤْمِنَاتِ
الْعِلْمُ كَانَ شَرِيعَةً	لِنِسَائِهِ الْمُتَفَقِّهَاتِ
رُضْنُ التِّجَارَةِ وَالسِّيَا	سَةِ وَالشُّؤُونَ الْأَخْرِيَاتِ
وَلَقَدْ عَلِمْتَ بَنَاتِهِ	لُجُجُ الْعُلُومِ الزَّاخِرَاتِ
كَانَتْ سَكِينَةً ^(٣) تَلَأُ الـ	دُنْيَا وَتَهْزَأُ بِالرَّوَاةِ

(١) الخرد: العذارى. والمتخفرات: المستحيات. والخفر هو الحياء. (٢) سكينه: بنت الحسين رضى الله عنها.

(٢) لا تلغ: لا تقل باطلا.

روت الحديث وفسرت
 وحضارة الإسلام تد
 بغداد دار العالم
 ودمشق تحت أمية
 ورياض أندلس نمت
 أدع الرجال لينظروا
 والنفع كيف أخذن في
 لما رأين ندى الرجا
 ورأين عندهم الصنا
 والبر عند الأغنيا
 أقبلن يبنين الما
 للصلحات عقائل ال
 الله أنبتهن في
 فأتين أطيب ما أقي
 لم يكف أن أحسن ح
 يشين في سوق الثوا
 يلبسن ذل السائل
 فوجوههن وماؤها
 مصر تجدد مجدها
 النافرات من الجمو
 هل بينهن جوامدا
 لما حصن لنا القضا
 غديتها في مهديها
 وسبقن فيها المعلم
 ينفثن في الفتيان من
 هوين تقبيل المهند
 ويرين حتى في الكرى

آى الكتاب البيئات
 طق عن مكان المسلمات
 ت ومنزل المتأديات
 أم الجوارى^(١) النابغات
 من الهاقات الشاعرات
 كيف اتحاد الغانيات
 أسبابه متعاونات
 ل تفاخرا أو حب ذات
 نغ والفنون مضيعات
 من الشؤون المهملات
 نر للنجاح موفقات
 وادى هوى فى الصلحات
 طاعاته خير النبات
 زهر المناقب والصفات
 حتى زدن حص المحسنات
 ب مساومات رابحات
 ت وما ذكرن البائسات
 ستر على المتجملات
 بنسائها المتجددات
 د كأنه شبح الممات
 فرق وبين الموميات
 ية كن خير الحاضنات
 يلبسين الطاهرات
 ن إلى الكريمة معلمات^(٢)
 روح الشجاعة والنيات
 د أو معانقة القنا
 قبل الرجال محرمات

(١) الفتيات.

(٢) المعلمون: بفتح اللام: الفرسان لهم علامة فى الحرب لبطولتهم.

يحیی الصحافة

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في احتفال أقامته نقابة الصحفيين:
 لكل زمان مضي آيةً وآية هذا الزمان الصُّحُفُ
 لسان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب الجَنَفُ^(١)
 تسير مسير الضحى في البلاد إذا العلم مَرَّقَ فيها السُّدُفُ
 وتمشى تعلمٌ في أمةٍ كثيرةٍ من لا يخطُّ الألف

فيا فتية الصحف صبراً إذا	نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فإن السعادة غير الظهور	وغير الثراء وغير التُّرَفُ
ولكنها في نواحي الضمير	إذا هو باللؤم لم يكتنف
وروموا النبوغَ فمن ناله	تلقى من الحظ أسنى التحف
حمدنا بلاءكم في النضال	وأمس حمدنا بلاء السلف
ومن نسي الفضل للسابقين	فما عرف الفضل فيما عرف
أليس إليهم صلاحُ البناء	إذا ما الأساس سَما بالُغُرَفُ

يندد بمن يخذل الوطنية

في سنة ١٩٠٤ خطب مصطفى رياض باشا في حفلة تأسيس مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية خطبة امتدح فيها اللورد كرومر كما امتدح الاحتلال البريطاني.

وقد أثارت هذه الخطبة سخط الرأي العام واستنكرها المواطنون، وكان تنويع صوت الشعر الناطق باستنكار الخطبة وصاحبها، قال:

كبير السابقين من الكرام	برغمي أن أنالك باللام
مقامك فوق مازعموا ولكن	رأيت الحق فوقك والمقام

إلى أن قال:

غمرت القوم ^(١) إطرأ وحداً	وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا	فكيف اليوم أصبح في الرغام
خطبت فكنت خطباً لاخطيباً	أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه	وجرحك منه لو أحسست دام
وهل تركت لك السبعون عقلاً	لعرقان الحلال من الحرام؟

يندد بقاضى دنشواى

كان أحمد فتحى زغلول أحد قضاة محكمة دنشواى الذين أصدرنا ذلك الحكم الجائر فى تلك
المأساة سنة ١٩٠٦، وقد رقى بعد ذلك وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) وأقيمت له حفلة تكريم فى
فندق شبرد دعى إليها شوقى فرفض الدعوة وأرسل فى ظرف مغلق هذه الأبيات التى عبر فيها
أبلغ تعبير عن تنديده بالمحتفل به وبالمحتفلين:

إذا ما جمعت أمركم وهمتمو	بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا جبل مشنوق بغير جريرة	وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه	من السعر حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه فى «شبرد» بل اقرأوا	على ملأ فى دنشواى حزين

الحنين إلى الوطن

زاد حب شوقى للوطن وتعلقه به فى منفاه بالأندلس، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية
البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥، وبقي فى منفاه بعيداً عن الوطن نحو خمسة
أعوام إلا قليلاً، فازداد شعوراً بلوعة الحزن على فراقه، واستثار النفى الوطنية الكامنة فى نفسه،
وأججت الغربة نارها، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن.

حسبك منه سنيته الأندلسية، تلك القصيدة الخالدة التى نظمها سنة ١٩١٩ يعارض فيها
سنية البحرى، قال فى مطلعها:

اختلافُ النهار والليل يُنسى أذكرا لى الصبأ وأيام أنسى

(١) يريد المحتفلين.

وَسَلَا (مصرَ) هل سلا القلب عنها
كلما مرّت الليالى عليه
إلى أن قال:

يا ابنة اليم^(١) ما أبوك بخيلٌ
أحرامٌ على بلبله الدؤ
كل دار أحق بالأهل إلّا
نفسى مرّجلٌ وقلبي شراعٌ
واجعلى وجهك (الفنار) ومجرا
وطنى لو شُفِلْتُ بالخلد عنه
شهد الله لم يغب عن جفوني

ماله مولّعاً بمنعٍ وحبس
حُ حلالٌ للطير من كل جنس؟
في خبيث من المذاهب رجس^(٢)
بها في الدموع سبرى وأرسى
ك يد (الثغر) بين (رمل) و (مكس)
نازعتنى إليه في الخلد نفسى
شخصه ساعة ولم يخل حسى

والقصيدة من أروع ما نظم شوقى

وله في هذا المعنى قصيدة أخرى رائعة نظمها في منفاه يعارض فيها نونية ابن زيدون.
قال:

يائنح (الطلح) أتباه عوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا
رمى بنا البين^(٣) أيكاً غير سامرنا
ثم انتقل من خطاب الطائر الحزين إلى
أها لنا نازحى أيك بأندلس
رسم وقفنا على رسم الوفاء له
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا^(٤)؟
قصت جناحك جالت في حواشينا
أخا الغريب؛ وظلاً غير نادينا
بكاء الأندلس قال:
وإن حللنا رقيقاً من روابينا^(٥)
نجيش بالدمع والإجلال يثنينا

إلى أن قال في الحنين إلى مصر:

لكن (مصر) وإن أغضت على مقة^(٦) عين من الخلد بالكافور تسقينا

(١) يقصد السفينة.

(٢) يقصد مذهب الاستعمار الذى يضطهد الوطنيين وينفهم وينعمهم من التعبير عن آرائهم والإعراب عن آمالهم.

(٣) الطلح وأدبا الأندلس، بضاحية أشبيلية، يخاطب حمام هذا الوادى ويمثله شبيها به في لوعته وغربته، وعوادينا أى عوادى الدهر ومصائبه.

(٤) البين: البعد، والأيك: الشجر الكثير الملتف.

(٥) الرقيق: الخصب.

(٦) المقة: المحبة.

وحول حافاتِها قامت رواقينا^(١)
وأربُعُ أنسُ فيها مآربنا
ومغربُ لجدودٍ من أولينا
من بر مصرَ وريحانٍ يُغاديننا
وباسمه ذهبَتْ في اليمِّ ثُلُقينا^(٢)
لحاضرين وأكوابُ لبادينا
بعد الهدوء وهَمِي عن مآقينا
هاج البكا فحَضَبْنَا الأرضَ باكينا

على جوانبِها رَفَّتْ تَماثِمنَا
ملاعِبُ مَرَحَتْ فيها مآربنا
ومطلع لِسَعُودٍ من أواخرنا
بِنَا^(٢) فلم نَحُلْ من رُوحِ يَراوِحنا
كأَمْ موسى على اسمِ الله تكفلنا
ومصر كالكَرْمِ ذى الاحسانِ فاكهةً
يا سارَى البرقِ يرمى عن جوانحنا
لما ترقرق في دمع الساءِ دَمًا

إلى أن قال يخاطب مواطنيه:

دُنْيا وودَّهو الصافي هو الدُّنيا
ومن مَصُونِ هَواهم في تَناجينا
في النَّائباتِ فلم يأخذُ بأيدينا

إلى الذين وجدنا ودَّ غيرهم
يا من نَغَارَ عليهم من ضمايرنا
ناب الحَينُ إلَيْكم في خواطرنا

إلى أن قال يشيد في منفاه بعظمة مصر:

في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
عليه آباءها الغرُّ الميامينا؟
قبل (القيصر) دِنَّاها (فراعينا)
في الأرضِ إلَّا على آثارِ بائينا
به يدُ الدهر لا بنيانُ فائينا

لم تنزل الشمسُ ميزاناً ولا صعدت
ألم تُؤْلِهْ على حافاتِهِ ورأتُ
وهذه الأرضُ من سَهْلٍ ومن جَبَلٍ
ولم يَضَعْ حَجَرًا بَإِنٍ على حَجَرٍ
كَأَنَّ (أهرامَ) مصرٍ حائِطٌ نَهَضَتْ

إلى أن قال في تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه:

مَرُّ الصِّبا في ذبولٍ من تصايينا
غُرًّا مُسْلَسَلَةً المَجْرَى قوافينا
وثابَ من سِنَةِ الأحلامِ لاهينا

أرضُ الأبوةِ والميلادِ طيبَها
كانت مَحْجَلَةً فيها مَواقِفُنَا
فآبَ من كُرَّةِ الأيامِ لآعِينَا

(١) الرواقى: جمع راقية وهى مايرقى به الصبى درما للسحر.

(٢) بنا: أى بعدنا.

(٣) شبه مصر حين اضطرت إلى نفيه بأَم موسى عليه السلام حين التقته في اليم صبيا وسألت الله أن يكفله.

ولم نَدْعَ لليالِ صافيا فَدَعَتْ بأن نَغْصُ فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لَحْضْنَا الجَوْ صاعقةً والبرُّ نَارٌ وَغَى والبحر غِسلينا^(١)
سَعِيًّا إلى مصر نقضى حقَّ ذاكرنا فيها إذا نسى الوافى وباكيننا

وقال يذكر والدته بحلوان وقد توفيت قبيل عودته:

كنزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه خيرَ الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأتِه الشوق إلَّا من نواحينا
إذا حَمَلْنَا لمصرٍ أوله شجنا لم ندر أى هوى الآمين شاجينا

وقال أيضًا سنة ١٩١٧ في منفاه يهتف بمصر وساكنيها:

يا ساكني مِصرَ إنا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هَلَّا بعثتم لنا من ماء نيلكم شيئًا نبل به أحشاء صاڤينا^(٢)
كل المناهل بعد النيل آسنه ما أبعد النيل إلَّا عن أمانينا

وقد بعث شوقي بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ إبراهيم فأجابه حافظ بالأبيات الآتية.

عجبت للنيل يدري أن بلبله صاڤٍ ويسقى رُبًا مصر ويسقينا
تالله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

يشيد بعظمة مصر

لقد ملك حب مصر مشاعره فكان يتغنى بعظمتها ويشيد بمفاخرها، وتفيض قصائده بهذا المعنى السامى.

قال في تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يحى بها الطائرين العنمايين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتها عن طريق العريش وسيناء:

يا راكب الريح حى النيل والهرما وعظم السفح من سيناء والحرما

(١) الغسلين: الصديد.

(٢) الصاڤى: الظمان.

فَكَانَ أَثْبَتَ مِنْ أَطْوَاهِ قِيمَا
مُوسَى رَضِيْعًا وَعِيسَى الطَّهْرَ مُنْفِطِمَا
وَبَيَّنْتُ لِلْعَبَادِ السَّيْفَ وَالْقَلِمَا
بِهِ وَيَمْشِي عَلَيْهِ الدَّهْرُ مُحْتَشِمَا

وَقِفْ عَلَى أَثَرِ مَرِّ الزَّمَانُ بِهِ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي حَمَلَتْ
وَأَخْرَجَتْ حِكْمَةَ الْأَجْيَالِ خَالِدَةً
هَذَا فِضَاءٌ تُلَمُّ الرِّيحُ خَاشِعَةً

وقال من قصيدة له في أبي الهول:

وَبَلَغْتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى الْعُمْرِ
بَبٍّ وَلَا أَنْتِ جَاوَزْتَ حَدَّ الصَّغَرِ
لِرَ لَطِيٍّ الْأَصِيلِ وَجَوَّبَ السَّحَرِ
نَ فَأَيَّانَ تُلْقَى غُبَارَ السَّفَرِ؟
لِرَ تَزُولَانَ فِي الْمَوْعِدِ الْمُنْتَظَرِ^(٢)؟
نَ نَجِيٍّ الْأَوَانِ سَمِيرِ الْعُصْرِ
نَ رَفِيعَ الْبِنَاءِ جَلِيلِ الْأَنْسَرِ

أَبَا الْهَوْلِ طَالَ عَلَيْكَ الْعُصْرُ
فِيَالِدَةَ الدَّهْرِ^(١) لَا الدَّهْرُ شِ
إِلَّامَ رَكُوبِكَ مَتَنَ الرَّمَا
تُسَافِرُ مُنْتَقِلًا فِي الْقُرُو
أَبَيْنَكَ عَهْدٌ وَبَيْنَ الْجَبَا
أَبَا الْهَوْلِ أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَا
ظَلِيلُ الْحِضَارَةِ فِي الْأَوَّلِي

وختمها بقوله:

نَ تَحْرُكُ مَا فِيهِ حَتَّى الْحَجَرِ

تَحْرُكُ أَبَا الْهَوْلِ هَذَا الزَّمَا

وقال عن الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢:

هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلَسُ أَوْنَادٍ
إِنْ الْأَبُوءُ مَفْزَعُ الْأَوْلَادِ
مِنْ كُلِّ مُلْقٍ لِلْهَوَى بِقِيَادِ
وَقْتُ الْبَلَاءِ تَفَرَّقَ الْأَضْدَادِ^(٣)
بَاغٍ عَلَى النَّفْسِ الضَّعِيفَةِ عَادِ

قِفْ نَاجِرَ أَهْرَامَ الْجَلَالِ وَنَادِ
نَشْكُو وَنَفْزَعُ فِيهِ بَيْنَ عَيْوَنِهِمْ
وَنَبْشُهُمْ عَيْثُ الْهَوَى بِتَرَاتِهِمْ
وَنَبِينَ كَيْفَ تَفَرَّقَ الْأَخْوَانُ فِي
إِنْ الْمَغَالِطُ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسُهُ

(١) أى يأخا الدهر وقرينه فكأنه والدهر توأمان.

(٢) يوم القيامة.

(٣) يشير إلى الانقسام الذى حدث سنة ١٩٢١ بين سعد وعدلى وأنصارهما وتصدعت بسببه الوحدة الوطنية.

قل للأعاحيب الثلاث^(١) مقالة
 لله أنت فما رأيتُ على الصفا
 لك كالمعابد روعةً قدسية
 أسست من أحلامهم بقواعد
 قم قبّل الأحجار والأيدى التى
 وخذ النبوغ من الكنانة إنها
 وقال يشيد بعظمة الأهرام من قصيدته (على قبر نابليون):

قم إلى الأهرام واخشع واطرح
 وقهل إنما تمشى إلى
 هو كالصخرة عند القبط أو
 وتسنم منبراً من حجر
 وادع أجيالا تولت يسمعوا
 وأعدّها كلمات أربعاً^(٢)
 قد عرضت الدهر والجيش معاً
 عظةً قومية بها أولى وإن

خيلة الصيد^(٣) وزهو الفاتحين
 حرم الدهر ومحراب القرون
 كالحطيم الطهر عند المسلمين
 لم يكن قبلك حظاً الحاطبين
 لك وابعث فى الأوالى حاشرين
 قد أحاطت بالقرون الأربعين
 غاية قصر عنها الفاتحون
 بعد العهد فهل يعتبرون؟

قصر أنس الوجود

وقال سنة ١٩١٠ عن قصر (أنس الوجود) بأسوان وكيف يغمره النيل وقت الفيضان، من قصيدة يخاطب فيها الكولونل تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق، وكان قد ألقى خطبة ينتقص فيها من قدر المصريين فرد عليه شوقى بهذه القصيدة:

أيها المنتجى (بأسوان) داراً
 اخلع النعل واخفيض الطرف واخشع
 كالثريا تريد أن تنقضا
 لا نحاول من آية الدهر غضا

(١) يريد الأهرام الثلاثة.

(٢) الآراد جمع رَأَد. يريد رَأَد الضحى: وقت ارتفاع الشمس.

(٣) الملوك.

(٤) يشير إلى الكلمة التى قالها نابليون لجنوده قبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ يستحثهم على القتال: «إن أربعين قرناً تنظر إليكم من فوق قسم هذه الأهرام»

مِسْكًا بعضها من الدُّعْر بعضا
 سَابِحَاتٍ بِهِ وَأَبْدَيْنَ بَضًّا
 مشرفاتٍ على الكواكبِ تَهْضَا
 وشبابِ القنُونِ ما زال غَضًّا
 كان إتقانه على القومِ قَرْضًا
 فسكبتِ الدموعَ والحقُّ يُقْضَى
كيف سَامَ إِلَيَّ كِتَابُكَ قَضًا
مَنْ يَصْنُ مَجْدَ قَوْمِهِ صَانَ عِرْضًا

قَفْ بَتْلَكَ (القصور) فِي الْيَمِّ غَرَقَى
 كَعَذَارَى أَخْفَيْنَ فِي الْمَاءِ بَضًّا
 مشرفاتٍ على الزوالِ وَكَانَتْ
 شَابَ مِنْ حَوْلِهَا الرِّمَانُ وَشَابَتْ
 صَنْعَةً تَدْهِشُ الْعُقُولَ وَفَنُّ
 يَا قَصُورًا نَظَرُهَا وَهِيَ تَقْضَى^(١)
أَنْتِ سَطَرٌ وَمَجْدُ مِصْرَ كِتَابٌ
وَأَنَا الْمُخْتَفَى بِتَارِيخِ مِصْرَ

وقال في يناير سنة ١٩٢٣ بعد اكتشاف كنوز توت عنخ آمون يذكر عظمة مصر الخالدة:

قَفَى يَا أُخْتِ (يُوشَعَ)^(٢) خَيْرِينَا
 فَمِثْلَكَ مِنْ رَوَى الْأَخْبَارِ طَرَا
 إِلَى أَنْ قَالَ يَشِيدُ بِحَضَارَةِ قَدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَكَيْفَ بَلَّغُوا الشَّأَ الْعَظِيمَ مِنَ الْمَجْدِ:
 وَمِنْ أَنْوَارِهِمْ قَبَسْتُ (أَتِينَا)
 عَلَى (وَادِي الْمُلُوكِ) مُحَجَّبِينَا
 أَلَيْسُوا لِلْحِجَارَةِ مُنْطَلِقِينَا؟
 وَرَاءَ الْأَبْدَانِ مُخَلَّدِينَا
 لَهَا الْإِتْقَانُ وَالْخَلْقُ الْمَتِينَا
 وَتُؤَخِّذُ مِنْ شِفَاهِ الْجَاهِلِينَا
 إِذَا ذَهَبَتْ مَصَادِرُهَا بَقِينَا
فَيَنْتَظِمُ الصَّنَائِعَ وَالْفَنُونَا
إِلَى التَّارِيخِ خَيْرِ الْحَاكِمِينَا
 وَتَرْكِكَ فِي مَسَامِعِهَا طَنِينَا
 مَشَتْ بِمَنَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ (رُومَا)
 مُلُوكُ الدَّهْرِ بِالْوَادِي أَقَامُوا
 تَعَالَى اللَّهُ كَانَ السَّحَرُ فِيهِمْ
 غَدَاوَا يَبْنُونَ مَا يُبْقَى وَرَاحُوا
 إِذَا عَمِدُوا لِمَأْتَرَةٍ أَعْدُوا
 وَلَيْسَ الْخُلْدُ مَرْتَبَةً تَلْقَى
 وَلَكِنْ مُنْتَهَى هِمٍّ كَبَارٍ
وَسِرُّ الْعَبْقَرِيَّةِ حِينَ يَسْرِي
وَأَثَارُ الرِّجَالِ إِذَا تَنَاهَتْ
 وَأَخَذَكَ مِنْ فَمِ الدُّنْيَا ثَنَاءً

وقال مخاطباً توت عنخ آمون:

سَلَامٌ يَوْمَ وَارْتَكَ الْمَنَايَا
 بِوَادِيهَا وَيَوْمَ ظَهَرَتْ فِينَا

خرجت من القبور خروج عيسى عليك جلالة في العالمينا

ومن قصيدة أخرى له عن توت عنخ آمون وقد تخيله قد بعث بعد أربعين قرنا ورأى الاحتلال جاثما عل صدر البلاد فحزن لما رآه وآثر العودة إلى قبره؛ والقصيدة من أروع ما جادت به قريحة شوقي في الإشادة بأعجاد مصر وفي المعاني الوطنية، قال في مطلعها مخاطبا توت عنخ آمون:

قَمُ سَابِقَ (السَّاعَةِ) وَاسْبِقْ وَعُدَّهَا	الْأَرْضُ ضَاقَتْ عَنْكَ فَاصْدَعْ غِمْدَهَا
وَامْلَأْ رِمَاحًا غَوْرَهَا وَنَجِّدَهَا	وَافْتَحْ أَصُولَ النِّيلِ وَاسْتَرِدَّهَا
شَلَّالَهَا وَعَذِّبَهَا وَعِذَّهَا ^(١)	وَاصْرِفْ إِلَيْنَا جَزْرَهَا وَمِدَهَا

إلى أن قال:

سَاقَرِ أَرْبَعِينَ قَرْنًا عَدَّهَا	جَتَّى أَقَى الدَّارِ فَالْفَى عِنْدَهَا
انْجَلَّتْ رَا وَجِيْشَهَا وَلَوْرَدَهَا	مَسْئُولَةُ الْهِنْدِيِّ تَحْمِي (هِنْدَهَا) ^(٢)
قَامَتْ عَلَى (السُّودَانِ) تَبْنَى سَدَّهَا	وَرَكَّزَتْ دُونَ (الْقَنَاةِ) بَنَدَهَا ^(٣)

فَقَالَ وَالْحَسْرَةَ مَا أَشَدَّهَا	لَيْتَ جِدَارَ الْقَبْرِ مَا تَذَهَّدَهَا ^(٤)
وَلَيْتَ عَيْنِي لَمْ تَفَارِقَ رَقْدَهَا	قَمُ نَبِيِّي يَا (بَنْتُور) مَادَهَا ^(٥)

مَصْرُ الْفِتَاةِ بَلَغَتْ أَشَدَّهَا	وَأَثَبَتِ الدَّمُ الزَّكِيُّ رُشْدَهَا
وَلَعِبْتُ عَلَى الْحِبَالِ وَجَدَّهَا	وَجَرَّبْتُ إِرْخَاءَهَا وَشَدَّهَا

يَارَبِّ قَوْ يَدَّهَا وَشَدَّهَا	وَافْتَحْ لَهَا السُّبُلَ وَلَا تَسُدَّهَا
وَقِسْ لِكُلِّ خُطْوَةٍ مَا بَعْدَهَا	وَعَنْ صَغِيرَاتِ الْأُمُورِ حُدَّهَا

(٤) تذهده: انقط.

(٥) بنتور: شاعر مصري قديم.

(١) العد: الماء الجاري

(٢) الهندي: السيف، وهندها: أي الهند.

(٣) البند: العلم.

واصرف إلى جد الشؤون جدّها
واكبّح هوى الأنفس واكسر حقدّها
ولا تضع على الضحايا جهدها
واجمّع على الأمّ الرؤوم ولدّها

وادی الملوك

وقال سنة ١٩٢٥ في هذا المعنى يذكر توت عنخ آمون وحضارة عصره بعد أن اكتشفت كنوزه في (وادی الملوك):

درجت على (الكنز) القرون	وأنت على الدن ^(١) السنون
يا ابن الثواقب من (رع)	وابن الزواهر من (أمون ^(٢))
نسب عريق في الضحى	بذ القبائل والبطون
أرايت كيف يثوب من	غمر القضاء المغرقون
وتدول آثار القرو	ن على رعى الزمن الطحون
حب الخلود بنى لكم	خُلُقًا به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو	ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى الإحسد	ان فيما تعملون
لم تتركوه في الجليل	ل ولا الحقير من الشئون
هذا القيام فقل لنا الـ	يوم الأخير متى يكون؟
البعث غاية زائل	فان وأنتم خالدون
السبق من عاداتكم	أترى القيامة تسبقون؟
أنتم أساطين الحضـ	رة والبناة المحسنون
المتقنون وإنما	يُجزى الخلود المتقون

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل، فصور الحياة للوادي وأهله، وأبدع في وصف روعته وجماله وجلاله، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم، وهى القصيدة التى تغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاء وجمالا:

(١) الدن: باطية الخمر.

(٢) رع وأمون من آلهة مصر القديمة.

وبأى كف في المدائن تُغديقُ
 عليا الجنان جداولاً تترقرق
 أم أى طوفان تفيض وتفهق
 للضفتين جديدها لا يخلق
 فإذا حضرت اخضوضر الاستبرق^(١)
 وحياضك الشرق الشهية دفق^(٢)
 بالواردين ولاخوانك ينفق^(٣)
 والأرض تفرقها فيحيا المغرق
 متخبطاً في علمها ومحقق

من أى عهد في القرى تتدفقُ
 ومن السماء نزلت أم فجرت من
 وبأى عين أم بآية مُزنة
 وبأى نول أنت ناسج بُردة
 تسود ديباجاً إذا فارقتها
 أنت الدهور عليك مهلك مترع
 تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق
 والماء تسكبه فيسبك عسجداً
 تبعي متابعك العقول ويستوى

إلى أن قال:

لم لا يؤله من يقوت ويرزق
 لسواك مرتبة الألوهة تخلق
 العبادة خشية وتعلق
 عذب المشارع مده لا يلحق
 يجرى على سنن الوفاء ويصدق
 من راحتك عيمة تتدفق

دين الأوائل فيك دين مروءة
 لو أن مخلوقاً يؤله لم تكن
 جعلو الهوى لك والوقار عبادة إن
 دانوا ببحر الكارم باخبر
 متقيد بعهوده ووعوده
 يتقبل الوادى الحياة كريمة

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت «عروس النيل»
 تقدم قرباناً له كل عام:

يُغنى كما يُغنى الجمال ويُعشق
 ومن العقائد مايلب ويحمق^(٤)
 في كل دين بالهداية تلصق
 دين ويدفعها هوى وتشوق

والمجد عند الغنائيات رغبة
 إن زوجوك بهن فهي عقيدة
 ما أجل الإيمان لولا ضلة
 زفت إلى ملك الملوك يحثها

(١) الديباج والاستبرق: ثوب الحرير.

(٢) الشرق: الغرقى.

(٣) ينفق ينفق أو يقل.

(٤) يلب، أى يصير لبيباً.

ولربما حسدت عليك مكانها
مجلوة في الفلك يحدو فلکها
في مهرجان هزت الدنيا به
فرعون تحت لوائه وبنائه
حتى إذا بلغت مواكبها المدى
وكسا سماء المهرجان جلالة
وتلفت في اليم كل سفينة
ألقت إليك بنفسها ونفيسها
خلعت عليك حياة ها وحياتها
وإذا تناهى الحب وافق الفدى

تَرْبُ تَمْسَحُ بالعروس وتُحْدِقُ^(١)
بالشاطئين مُزْعِرْدٌ وَمُصَفِّقٌ
أعطاها واختال فيه المشرق
يجرى بهن على السفين الزورق
وجرى لغايته القضاء الأسبق
سيفُ المنية وهو صلت يبرق
وانثال بالوادي الجموع وحدقوا
وأنتك شققة حواها شق
أعز من هذين شيء يُنفق؟
فالروح في باب الضحية أليق

- إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادي:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت
ملأت ديارك حكمة مأثورها
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى
واستحدثت ديناً فكان فضائلاً
مهّد السبيل لكل دين بعده
يدعو إلى برّ ويرفع صالحاً

وَنَبَاتُهَا حَسَنٌ عَلَيْكَ مُخْلَقُ^(٢)
فَأَظْلَلَهَا مِنْكَ الْخَفِيُّ الْمُسْفِقُ
في الصخر والبردى الكريم منبِقُ^(٣)
يسعى لهن مغرب ومشرق
وبناء أخلاق يطول ويشهق^(٤)
كالمسك ريّاه بأخرى تفتق
ويعاف ما هو للمروءة مخلق

وقال في ختامها:

يا نيل أنت بطيب مانعت (الهدى)
وإليك يهدى الحمد خلق حازهم

وَبِمَدْحَةِ (التوراة) أخرى وأخلق
كَنَفٌ عَلَى مَرِّ الدَّهْورِ مَرُوقٌ^(٥)

(١) الترب من ولد مع الإنسان. الجمع أتراب وأكثر ما تستعمل في المؤنث. يقال هذه ترب فلانة.

(٢) مخلق: متطيب.

(٣) منبِق: مصطف.

(٤) يشهق من شهق الجبل ارتفع.

(٥) المرهق: كثير غشيان الناس والأضياف.

وعليك تُجلى من مصونات النهى خوذُ عرائس خدرهن المَهْرَقُ^(١)
الدرّ في لَبَاتِهِنَّ مَنْظَمٌ والطيب في حَبْرَاتِهِنَّ مَرْقَرَقٌ
لى فيكَ مدحٌ ليس فيه تكلفٌ أملاه حبٌّ ليس فيه تَمَلُّقٌ

وفى الحق أنه لم يوصف النيل فى عظمتة وجلاله وماضيه وحاضره وخلوده بأبداع مما وصفه شوقى فى هذه القصيدة.

نشيد النيل

ووضع نشيدًا جميلًا للنيل يتغنى به الشباب والمواطنون قال:

النيل العذب هو الكَوْتَرُ والجنة شاطئه الأخضر
ريّانُ الصفحة والمنظرُ ما أبهى الخلد وما أنضر

البحر الفيّاض القدُّسُ الساقى الناس وما غرسوا
وهو المنوال لما لبسوا والمنعم بالقطن الأنورُ

جعلَ الإنسانَ له شرعًا لم يُخلِ الوادى مِنْ مرعى
فترى زرعًا يتلو زرعًا وهنا يحنى وهنا يُبذر

جارٍ ويرى ليس بجارٍ لأناءٍ فيه ووقارٍ
يَنْصَبُ كَتَلٍ منهارٍ ويَضجُ فتحسبه يزأرُ

حبشى اللون كجبرته من منبعه وبحيرته
صبغ الشطين بسمرته لونا كالمسك وكالعنبر

النشيد الوطنى

وفى سنة ١٩٢٠ وضع نشيداً وطنياً أقرته اللجنة التى ألفت فى هذا العام لترقية الأغاني الوطنية قال:

بنى مصر مكانكمو تهياً فهياً مهّدوا للملك هياً
خذوا شمس النهار له حلياً ألم تك تاج أولكم ملياً

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذى يجرى شهياً

لنا وطن بأنفسنا نقيه وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواح فيه بذلتها كأن لم نعط شيئاً

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن جذثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنأ العالى نمانا أوائل علموا الأمم الرقيأ

تطاول عهدهم عزاً وفخرا فلما آل للتاريخ ذخرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى جعلنا الحق مظهرها العليا

جعلنا مصر ملة ذى الجلال وألفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصف من عوال يشد السمحرئى السمهرىا

تقوم على البناية محسنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
نموت فذاك مصر كما حيننا ويبقى وجهك المقيدي حيا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة في الوادي جبريلُ الروحُ لنا حادي
ياربِّ بَعِيسَى والهادي وبموسى خُذْ بيدَ الوَطنِ

* * *

كشافةُ مصر وصيبتها ومناة الدار ومنيتها
وجمالُ الأرض وجليتها وطلائعُ أفراح المَدُنِ

* * *

نبتدر الخير ونستبقُ ما يَرْضَى الخالقُ والخلقُ
بالنفس وخالقها نثق ونزيد وثوقا في المحنِ

* * *

في السهل نرف رياحيننا ونجوب الصخر شياطيننا
نبني الأبدان وتبنينا والهمة في الجسم المرنِ

* * *

ونخلي الخلق وما اعتقدوا ولوجه الخالق نجتهد
نأسو الجرحى أنى وجدوا ونداوى من جرح الزمنِ

* * *

في الصدق نشأنا والكرم والعفة عن مَسِّ الحُرَمِ
ورعاية طفل أو هَرِم والذود عن الغيد الحصنِ

* * *

ونوافي الصارخ في اللجج والنار الساطعة الوهج

لانسأله ثمن المهج وكفى بالواجب من ثمن

ربّ فكثّرنا عدداً وابذل لأبوتنا المدداً
هيء لهم ولنا رشداً ياربّ وخذ بيد الوطن

نشيد الشباب

اليوم نسود بأيدينا ونعيد محاسن ماضينا
ونشيد العزّ بأيدينا وطنٌ نقديه ويفدينا

وطنٌ بالحق نؤيده وبعين الله نشيده
ونحسنه ونزيّنه بمآثرنا ومساعدينا

سرّ التاريخ وعنصره وسرير الدهر ومبيره
وجنان الخلد وكوثره وكفى الآباء رياحيننا

نتخذ الشمس له تاجاً وضحاها عرشاً وهاجاً
وسماء السؤدد أبراجاً وكذلك كان أوالينا

العصر يراكم والأمم والكرك يلاحظ والهزم
ابنى الأوطان ألا همم كبناء الأول يبنينا

سعيّاً أبداً سعيّاً أبداً لأثيل المجد وللعليا
ولنجعل مصر هى الدنيا ولنجعل مصر هى الدنيا

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين والناطقين بالضاد جميعا ألحان الحرية ويسمعهم
أسمى معانى الإنسانية حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٣٢، وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام
رمزاً للحكمة والحرية والخلود.

حافظ إبراهيم شاعر النيل

١٨٧٢ - ١٩٣٢



هو صِنُو شوقي في إحياء دولة الشعر، ولتكن تميز شوقي
بالزعامة كما أسلفنا في الحديث عن شوقي، فإن حافظا
يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، في حين كانت
نشأة شوقي وحياته أرستقراطية، فكان حافظ أقرب إلى
روح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصوير آلامه التي
شاركه فيها، واكتوى بلهيبها، فكان لذلك أبلغ في التعبير
عنها، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من
عبارات شوقي، لأنه كان يحس إحساساً قويا أنه يخاطب
الشعب في مجموع مثقفيه وقارئيه.

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصري وأم من
أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندي فهمي مهندساً يشرف على قناطر ديروط حيث ولد
حافظ، وتوفي وحافظ في الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندي نيازي وعاش في كنفه
عيشة الطبقات المتوسطة التي كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار، فأحس حافظ منذ صباه
بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان
الصادق الأمين لهذه الطبقات.

تلقى التعليم الابتدائي وجزءاً من التعليم الثانوي، ولكنه لم يتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا
وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتاً ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب
والشعر.

واشتغل وقتاً وجيزاً بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلاً إليها
لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب، بل
كان كالطير ينطلق مغرداً بين مختلف الأشجار والأغصان.

ولقد فكر في أن يكون ضابطاً بالجيش إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير في نفسه روح

الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يقلد البارودي في نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطاً برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك في سن العشرين تقريباً، وانتظم في حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء في ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألفت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته في عالم الأدب والشعر، وإذ كان الشعر لا يدرّ عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عينه أحمد حشمت وزير المعارف في سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتوفي يوم ٢١ يولييه سنة ١٩٣٢.

كان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن معلم أو أديب، ولا تعلمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحى الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته، وبذمّع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.

وحافظ يمتاز في شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية، ولقد أنصفه شوقي إذ قال في رثائه:

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها	وإمام من نجلت من البُلغاء ^(١)
مازلت تهتف بالقديم وفضله	حتى هميت أمانة القدماء
خلّفت في الدنيا بيانا خالدا	وتركت أجيالا من الأبناء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل	للدهر إنصاف وحسن جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد، فقد كان بلا مرء خير ترجمان للشعب في أحاسيسه وآماله، وخير مواس له في مآسيه وآلامه، وتغنى بمصر والنيل في قصائده الغرّ، ولعلّ بقاءه في السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم في تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادي النيل، وتجلّت هذه المواهب في شعره في شتى المناسبات حتى سمي بحق «شاعر النيل»، وهو إلى جانب ذلك

(١) بجل: أى ولدت.

شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق. كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسليح بالأخلاق في جهادهم للحرية، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حدّ التقريع في مخاطبته لبني وطنه ومجابهتهم بالحق الصريح.

وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلا أنه قد تعلّم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه، وساعده ذكاؤه والمعيتة على محاكاة الشعر الغربي أحياناً، وكان يميل إلى التجديد في شعره، وفي ذلك يقول:

آن يا شعر أن تُفكّ قيوداً قيّدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ في أن يرتفع بشعره في كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعاني والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنيناً موسيقياً حبيّاه إلى النفوس وجعلاً بعض قصائده أشبه بالأغاني والتغاريذ.

الوطنية في شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها في شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية في قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود في الجهاد، والنورة على الاحتلال.

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبر عن هذه العاطفة الملهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

مَتَى أَرَى النَّيْلَ لَا تَحُلُوْا مَوَارِدَهُ لَغَيْرِ مُرْتَهَبٍ لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ
فَقَدْ غَدَتِ مِصْرُ فِي حَالٍ إِذْ ذُكِرَتْ جَادَتْ جَفَوْنِي لَهَا بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ
كَأَنِّي عِنْدَ ذِكْرِي مَا أَلَمَّ بِهَا قَرْمٌ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْمَرْبِ^(١)
إِذَا نَطَقْتُ فَقَاعُ السَّجْنِ مَتَكُأً وَإِنْ سَكَتُ فَإِنَّ النَّفْسَ لَمْ تَطْبِ
أَيْسَتَكِي الْفَقْرَ غَادِينَا وَرَائِحُنَا وَنَحْنُ نَمْشِي عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ؟!

وقوله في قصيدة له سنة ١٩٠٩:

لعمرك ما أرقّت لغير مصر ومالي دونها أمل يرام

(١) القرم: أي الرجل الشجاع.

ذكرتُ جلالها أيام كانت
وأيام الرجال بها رجالٌ
تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الزمان لها غلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠:

كَمْ ذَا يُكَايِدُ عَاشِقٌ وَيُلَاقِي
إِنِّي لِأَحْمِلُ فِي هَوَاكِ صَبَابَةً
لَهْفِي عَلَيْكَ مَتَى أَرَاكَ طَلِيقَةً
كَيْفَ بِمَحْمُودِ الْخِلَالِ مَتِيماً
فِي حُبِّ مَصْرٍ كَثِيرَةَ الْعُشَاقِ
يَا مَصْرُ قَدْ خَرَجْتَ عَنِ الْأَطَوَاقِ^(١)
يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكِ شَعْبٌ رَاقِي
بِالْبَذْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَالْإِنْفَاقِ

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها في (ملجأ الحرية):

فَتَعَاهَدْنَا عَلَى دَفْعِ الْأَذَى
وَتَوَاصَيْنَا بِصِرِّ بَيْنِنَا
أُنْشَرْتَ فِي مَصْرٍ شَعْبًا صَالِحًا
كَمْ مُحِبُّ هَائِسٍ فِي حُبِّهَا
بِرُكُوبِ الْحَزْمِ حَتَّى نَظْفُرَا
فَغَدَوْنَا قُوَّةً لَا تُزْدَرَى
كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ مُنْفَكَّ الْعُرَا^(٢)
ذَادَ عَنْ أَجْفَانِهِ سَرَحَ الْكَرَى^(٣)
أَنْ يَتَشِيدُوا بِجَدِّهَا فَوْقَ الذُّرَا^(٤)

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل. وكان صديقاً له معجباً بجهاده. رغم صداقته وصلته بخصوصه السياسيين. وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه. وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه في «اللواء»^(٥) تقریظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل وأسهب في الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرّب كتاب (البؤساء) لفكتور هيجو.

قصيدة حافظ

في حفلة مدرسة مصطفى كامل

ويبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقاً على خطبة مصطفى. قال في مطلعها:

(٤) الذرا: جمع ذروة وهي المكان المرتفع.

(٥) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

(١) الأطواق جمع طوق: أي الجهد والطاقة.

(٢) أنشرت: أحييت.

(٣) الكرى: النوم.

سَمِعْنَا حَدِيثًا^(١) كَقَطْرِ النَّدَى
وَأُضْحَى لَأَمَانَنَا مِنْ عِشَا
فَجَدُّدٌ فِي النَّفْسِ مَا جَدُّدَا
وَأَمْسَى لَأَمَانَنَا مُرْقِدَا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحبية إلى الفقيه:

فَدْنِيَاكَ يَا شَرْقُ لَا تَجْزَعَنَّ
فَكَمْ مَحْنَةً أَعْقَبَتْ مَحْنَةً
فَلَا يُبَيِّسُنَا قَيْلُ الْعُدَاةِ
أَتَوَدَّعَ فِيكَ كَنُوزُ الْعُلُومِ
وَتُبْعَثُ فِي أَرْضِكَ الْأَنْبِيَاءُ
وَتَقْضَى عَلَيْكَ قَضَاةُ الضَّلَالِ
أَتَشْقَى بِعَهْدِ سَمَاءٍ بِالْعُلُومِ
إِذَا شَاءَ بَزَزَ لَلْشَّهَادَةِ سِرَّهُ
وَإِنْ شَاءَ أَذِنَ إِلَيْهِ النُّجُومِ
وَإِنْ شَاءَ زَعَزَعَ شَمَّ الْجِبَالِ
وَإِنْ شَاءَ شَاهَدَ فِي ذَرَّةٍ
وَمَنْ تَسَخَّرَ فِيهِ الرِّيحُ
وَتَعَنَّا الطَّبِيعَةُ لِلْعَارِفِينَ
إِذَا مَا أَهَابُوا أَجَابَ الْحَدِيدُ
وَطَارَتْ إِلَيْهِمُ مِنَ الْكَهْرِبَاءِ

إِذَا الْيَوْمُ وَلَّى فِرَاقُ غَدَا
وَوَلَّتْ سِرَاعًا كَرَجَعُ الصَّدَى
وَإِنْ كَانَ قَيْلًا كَحَزْزِ الْمَدَى^(٢)
وَيَمُشِي لَكَ الْغَرْبُ مُسْتَرْفِدًا^(٣)
وَيَأْتِي لَكَ الْغَرْبُ مُسْتَرْشِدَا
طَوَالَ اللَّيَالِي بِأَنْ تُرْقِدَا؟
فَأُضْحَى لِلضَّعِيفِ هَذَا أَيْدَا^(٤)
وَأَدْرَكَ مِنْ جَرِيهِ الْمَقْصِدَا^(٥)
فَنَاجَى الْمَجْرَةَ وَالْفَرْقِدَا^(٦)
فَخَرَّتْ لِأَقْدَامِهِ سُجَّدَا
عَوَالِمُ لَمْ تَحْمَى فِيهَا سَدَى
وَيَغْدُو الْجَمَادُ بِهِ مَنَشِدَا^(٧)
بِمَعْنَى الْوُجُودِ وَسِرُّ الْهُدَى
وَقَامَ الْبَخَارُ لَهُ مُسْعِدَا^(٨)
بِرُوقٍ عَلَى السَّلَكِ تَطْوِي الْمَدَى

أَيُّجَمَلُ مِنْ بَعْدِ هَذَا وَذَاكَ بِأَنْ نَسْتَكِينُ وَأَنْ نَجْمُدَا؟

(١) يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.

(٢) المدي بالضم جمع مديّة؛ وهي السكين.

(٣) مستر فدا: أي يطلب الرفد وهو العطاء.

(٤) الأيد، بتشديد الياء: القوى، من الأيد بمعنى القوة.

(٥) بزه سلبه، والسها الكوكب المعروف، أي إذا ساء ذو العلم سلب من السهى سره وأظهره للناس.

(٦) المجرة والفرقد: نجوم في السماء.

(٧) يسر إلى الطيران والفوتوغراف.

(٨) مسعدا: أي معينا.

وها أمة (الصفّر) قد مهّدت لنا النهج فاستبقوا المورد^(١)

وقال فيها مخاطبا الشباب:

فيا أيها الناشئون اعملوا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب^(٢)
فياليت شعري من منكم
إذا هي نادت يلبي النداء؟

وقال في ختامها مخاطبا مصطفى كامل:

لَكَ الله يا (مصطفى) من فتى
إذا ما حمدتكَ بين الرجال
سيخصي عليك سجل الزمان
ويهتف باسمك أبناؤنا
كثير الأيادي كثير العدا
فأنت الخليق بأن تُحمدا
ثناء يُخلد ما خلدا
إذا آن للزرع أن يُحصدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ. وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تنجني ثمار هذه الحركة. وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٩. وجهر به في رثائه للمرحوم محمد فريد في ديسمبر سنة ١٩١٩، إذا قال مناجيا روح فريد:

قل (لصبّ النيل)^(٣) إن لاقيته
إن مصرًا لا تقي عن قصدها
جئتُ عنها أحمل البشرى إلى
فاسترح واهنأ ونم في غبطة
في جوار الدائم الفرد الصمد
رغم ما تلقى وإن طال الأمد
(أول البانين) في هذا البلد
قد بذرت الحب والشعب حصدا

فحافظ يعترف هنا أيضا لمصطفى بأنه أول البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى نمار ما بذر. ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

(١) أمة الصفّر: أي اليابان.

(٢) ذوات الغيوب: أي الأقدار التي في عالم الغيب.

(٣) يريد مصطفى كامل.

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

لقيت حادثة دنشواي^(١) صداها في شعر حافظ، فنشر في ٢ يولييه سنة ١٩٠٦ - أى بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام - قصيدته المشهورة عن الحادثة. ندد فيها بسياسة الاحتلال، وسبق بها شوقي بعام، إذ أن شوقي لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها.

قال حافظ في مطلع قصيدته مخاطبا المحتلين:

أيهما القائمون بالأمر فينا!	هل نسيتم ولآءنا والوداد؟!
خَفَضُوا جيشكم وناموا ههنا	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
وإذا أَعَوَزَتْكُمْ ذاتُ طوق ^(٢)	بين تلك الرُّبَا فصيدوا العباد
إنما نحن والحمام سواء	لم تُغَادِرْ أطواقنا الأجياد ^(٣)
لا تظنُّوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرُّشاد
لا تُقِيدُوا مِنْ أُمَّةٍ بقتيلٍ	صادت الشمسُ نفسه حين صاد ^(٤)

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهَّالنا بأمر وجئتم	ضَعُفَ ضعفيه قسوةً واشتداداً
أَحْسِنُوا القتل إن ضننتم بعفو	أَقْصَا أُرْدم أم كِياداً؟
أَحْسِنُوا القتل إن ضننتم بعفو	أَنْفُوساً أَصَبْتُمْ أم جَاداً؟

* * *

ليت شعري أتلک (محكمة التف	تیش) عادت أم عهد(نيرون) عادا؟
كيف يحلو من القوى التَّشْفِي	من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا؟
إنها مُثَلَّةٌ تشف عن الغي	ظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم	إنما يُكرم الجوادُ الجوادا
إنَّ عشرين جِجَّةً بعد خمسٍ	علمتنا السُّكون مها تمادى

(١) راجع تفصيلها في كتابنا (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية).

(٢) ذات طوق: أى الحماة.

(٣) الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد والأجياد الأعناق، جمع جيد.

(٤) أى لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس، وهو الكابتن بول.. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أى قتله به قودا.

أُمَّةُ النَّيْلِ أَكْبَرَتْ أَنْ تُعَادَى مَنْ رَمَاهَا وَأَشْفَقَتْ أَنْ تُعَادَى
لَيْسَ فِيهَا إِلَّا كَلَامٌ وَإِلَّا حَشْرَةٌ بَعْدَ حَشْرَةٍ تَتَهَادَى

وقال مخاطباً المدعى العمومى فى القضية:

أَيُّهَا الْمُدَّعَى الْعُمُومِيُّ^(١) مَهْلًا بَعْضُ هَذَا فَقَدْ بَلَغْتَ الْمَرَادَا
قَدْ ضَمَّنَّا لَكَ الْقَضَاءَ بِمَصْرٍ وَضَمَّنَّا لِنَجْلِكَ الْإِسْعَادَا
فَإِذَا مَا جَلَسْتَ لِلْحُكْمِ فَادْكُرْ عَهْدَ (مَصْرٍ) فَقَدْ شَفِيتَ الْفُؤَادَا
لَا جَرَى النَّيْلِ فِي نَوَاحِيكَ يَا (مَصْرُ) وَلَا جَادِكِ الْحَيَا حَيْثُ جَادَا^(٢)
أَنْتِ أَنْبَتِ ذَلِكَ النَّبْتَ يَا (مَصْرُ) فَأُضْحِي عَلَيْكَ شَوْكًا قَتَادَا
أَنْتِ أَنْبَتِ نَاعِقًا قَامَ بِالْأَمِّ سِ فَادَّعَى الْقُلُوبَ وَالْأَكْبَادَا

إِيهِ يَا مِدْرَةَ الْقَضَاءِ وَيَا مَنْ سَادَ فِي غَفْلَةِ الزَّمَانِ وَشَادَا
أَنْتَ جَلَادُنَا فَلَا تَنْسَ أَنَا قَدْ لَبَسْنَا عَلَى يَدَيْكَ الْحَدَادَا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مبلغ الظلم البريطانى ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوى على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانها، كما حمل على الضعف الذى كان من أسباب استفحال هذا الظلم. فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة فى محاربة الاحتلال.

قصيدته فى استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواى

وعاد يصف فظائع الاحتلال فى حادثة دنشواى فى قصيدة له قالها فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى أجازته وكان صاحب الحول والطول وقتئذ فى البلاد.

(قصر الدبارة)^(٣) هل أتاكَ حَدْبُنَا فالشرقُ رُيْعَ له وَضَجَّ المغربُ

(١) إبراهيم الحلباوى.

(٢) الحيا. المطر.

(٣) يريد دار المعتمد البريطانى.

بعد التحية إننى أتعُتَّب
بأتت لها أحشاؤنا تتهلَّب

أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً
نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة

إلى أن قال :

يوم الحمام فإن صدرك أرحب^(١)
أُمتت إلى معنى التعصّب تُتسب^(٢)
ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
ليست بغير ولائها تتعذب
للقوت لا للمسلمين تعصبوا
وسخا بمهجته على من يغصب
لعب القضاء بنا وعزّ المهرب
فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
لو كنت حاضر أمرهم لم يُنكبوا!
وسياطهم وجالهم تتأهب
بحبال من شنقوا ولم يتهيّبوا
بلظى سياط الجالدين ورحبوا^(٤)
بين الشفاء وطعمه لا يعذب
يرنو وهذا آجل يترقب
ومعاجز ومناجز ومحزب
والدمع حول ركابه يتصب
هو خير ما يرجو العميد ويطلب
يُجنى بمفرسها الثناء الطيب

إن ضاق صدر النيل عباً هاله
أو كلما باح الحزين بأنّة
رفقاً عميد الدولتين بأمة
رفقاً عميد الدولتين بأمة
إن أرهقوا صيادكم فلعلهم
ولربما ضنّ الفقير بقوته
في (دنشواى) وأنت عنا غائب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم
خلّيتهم والقاسطون^(٣) بمرصِد
جُلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
شُنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا
يتحاسدون على الممات وكأسه
موتان: هذا عاجل متّمر
والمستشار^(٥) مكائر يرجاله
يختال في أنحائها متبسماً
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا
حبّ يحاول غرسه في أنفـس

(١) يوم الحمام أى يوم صيد الحمام فى حادثة دنشواى.

(٢) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواى.

(٣) القاسطون الظالمون.

(٤) أهلوا ورحبوا أى قالوا أهلاً ومرحباً.

(٥) يريد الكيتين متشل مستشار وزارة الداخلية. وكان يشرف على تنفيذ الحكم ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله

عاجزاً. وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد.

كن كيف شئت ولا تكلّ أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفيض على (بند)^(١) إذا ولي القضا رفقا يهش له القضاء ويطرَب

قصيدته في شكوى مصر من الاحتلال

قالها في يناير سنة ١٩٠٧ :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلماً منظماً
تمن^(٢) علينا اليوم أن أخضب الثرى وأن أصبح المصري حراً منعماً
أعد عهد (إسماعيل) جلدًا وسخرة فإني رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عزّ الجمد وذلنا فأغليتم طيننا وأرخصتم دما
إذا أخضبت أرض وأجذب أهلها فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه لل سوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا في وفرة المال - لم تُفد متاعاً ولم تعصم من الفقر - مغنما
فإن كثير المال - والحفض وارف قليل إذا حلّ الغلاء وخيماً^(٣)

قصيدته في استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلاتكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه حقيق بتشيع المحبين والعدا
فودّع لنا الطود الذي كان شامخا وشيع لنا البحر الذي كان مُزبدا
إلى أن قال:

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبقِ للتعليم يا (لورد) معهدا
وأنتك أخضبت البلاد تعمدا وأجذبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات وإنه قضاء علينا أو سبيل إلى الردى^(٤)

(١) المسر بوند وكيل محكمة الاستئناف وأحد فضاة المحكمة المختصة التي حاكت المتهمين في حادثة دنشواي وكان القاضي الموجه للأسئلة وتمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفى.

(٢) يحاطب المعتد البريطاني.

(٣) الحفض سعة العيش. يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لاتغنى شيئا

(٤) أم اللغات أى اللغة العربية. يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

ووافيتَ والقطران في ظل رايبةٍ
فطاح كما طاحت (مصوِّع) بعده
حَجَبَتْ ضياءَ الصحف عن ظلماته
وأودعتَ تقرير الوداع مغامزاً
غمرتَ بها دينَ النبی وإتنا
فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
ولم تستقل حتى حَجَبَتْ (المؤيدا)^(٣)
رأينا جفاء الطبع فيها مُجَسِّداً
لنغضب إن أغضبتَ في القبر (أحمدا)

* * *

يناديك أين النابغون بعهدكم
فما عهد إسماعيل والعيش ضَيِّقُ
يناديك ولَّيت الوزارة هيثةً
فليس بها عند التشاور من فتى
بربك ماذا صَدَّنَا ولوى بنا
أشرت برأى في كتابك لم يكن
وحاولت إعطاء الغريب مكانةً
فياويل مصرٍ يوم تشقى بندوةٍ
وأى بناء شامخ قد تجسدا؟
بأجذب من عهد لكم سال عَسْجدا
من الصمِّ لم تَسْمَعْ لأصواتنا صدى
أبي إذا ما أصدر الأمر أوردنا
عن القصد إن كان السبيل ممهدا؟
سديداً ولكن كان سهماً مسدداً
تجر علينا الويل والذلَّ سمردا
يبئُ بها ذاك الغريب مسوداً^(٢)

* * *

ألم يكفنا أنا سُلْبنا ضياعنا
وزاحمنا في العيش كل ممارسٍ
وما الشركات السود في كل بلدة
على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
خبير وكنا جاهلين ورُقدا
سوى شركٍ يُلقى به من تصيدا

قصيدته في استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه في أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواي، وخلفه في منصبه السير إلدون جورست، فاستقبله حافظ بقصيدة عبر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه، قال فيها في أسلوب التهكم والسخرية:

(١) حجبت المؤيد أى منعت من دخول السودان.

(٢) يشير إلى مشروع اللورد كرومر في إنشاء مجلس تشريعي مختلط.

أَذِيقُونَا الرَّجَاءَ فَقَدْ ظَلَمْنَا
وَمُنُوا بِالْوُجُودِ فَقَدْ جَهِلْنَا
إِذَا أَعْلَوَى الصِّيَاحُ فَلَا تَلْمَنَا
عَلَى قَدْرِ الْأَذَى وَالظُّلْمِ يَعْلُو
جِرَاحُ فِي النُّفُوسِ نَغْرَنَ نَغْرًا
إِذَا مَا هَاجَهُنَّ أَسَى جَدِيدٌ

إلى أن قال:

يَطُولُكُمْ وَلَا رُكْنٌ شَدِيدٌ
أَضُرَّ بِأَهْلِهِ نَقْضُ الْعَهْدِ
فَمَا جُنْنَا نَطَاوَلَكُمْ بِجَاهٍ
وَلَكِنَّا نَطَالِبُكُمْ بِحَقٍّ

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية:

رَمَانَا صَاحِبَ التَّقْرِيرِ ظَلَمًا
وَأَقْسَمَ لَا يَجِيبُ لَنَا نِدَاءً
وَبَشَّرَ أَهْلَ مِصْرَ بِاحْتِلَالٍ
وَأَنْبَتَ فِي النُّفُوسِ لَكُمْ جَفَاءً
فَأَثْمَرَ وَحْشَةً بَلَّغَتْ مَدَاهَا
قَتِيلَ السَّمْسِ أَوْرَثَنَا حَيَاةً
فَلَيْتَ (كُرُومًا) فَدَامَ فِينَا
وَيُتَحِفُ (مِصْرَ) أَنَا بَعْدَ أَنْ
لَيَنْزِعَ هَذِهِ الْأَكْفَانُ عَنَّا
يَكْفُرَانِ الْعَوَارِفَ وَالْكُنُودَ^(٣)
وَلَوْ جُنْنَا قَرَأَنَ مَجِيدٌ
يَدُومُ عَلَيْهِمْ أَبَدَ الْأَبِيدِ
تَعَهَّدَ بِمَنْهَلِ الصَّدُودِ
وَزَكَّاهَا بِأَرْبَعَةِ شَهُودِ^(٤)
وَأَيَّقَظَ هَاجِعَ الْقَوْمِ الرُّقُودِ^(٥)
يُطَوِّقُ بِالسَّلَاسِلِ كُلَّ جِيدٍ
بِمَجْلُودٍ وَمَقْتُولٍ شَهِيدٍ
وَتُبَعَثَ فِي الْعَوَالِمِ مِنْ جَدِيدٍ

رثاؤه لمصطفى كامل

في يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره .
وأنشد قصيدته الرائعة في رثائه قال:

(١) اعلو أى علا.

(٢) نفر المرح سال دمه، واندمل التأم

(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر.

(٤) يريد بالشهود الأربعة أعدموا في قضية دنشواى وهم أربعة.

(٥) قتل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزى الذى مات في حادثة دنشواى بضربة الشمس، يريد أن ما أصاب الناس

من التشكيل بسبب هذا القتل جعلهم يثورون للمطالبة بالحرية.

فكبرٌ وهلل والقي ضيفك جاثياً
شهيدَ العلا في زهرة العمر ذاوياً
لكان التأسي من جوى الحزن شافياً^(١)
وهيهات ان يأتى به الدهر ثانيا
وأين الحِجَا والرأى؟ ويحك هاهيا
فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

أيا قبرٌ هذا الضيف آمالُ أمة
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده
ولكن فقدنا كل شيء بفقده
فيا سائلى أين المروءة والوفا
هنيئاً لهم^(٢) فليأمنوا كل صائح
ومات الذى أحيا الشعور وساقه

* * *

وإنى أجيدُ اليوم فيك المراتيا
وفيك وإلاً مالذا الحزن باكيا
لما فيه من داء النفوس مداويا
فأسهدتنا حُزناً وأمسيت غافياً

مدحتك لما كنت حياً فلم أجِدْ
عليك^(٣) وإلا مالذا الحزن شاملاً
يموت المداوى للنفوس ولا يَرى
وكنا نياماً حينما كنت ساهداً^(٤)

* * *

يَرُنْ كما قد كان بالأمس داويا
فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
قَصَيْتُ وأن الحى قد بات خاليا
وكونوا رجالاً لا تسرُّوا الأعاديا
تُشارفكم^(٥) عنى وإن كنت باليا
أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا
يُهيَّبُ بنا؛ هذا بناء أقمته
يصيح بنا؛ لاتشعروا الناس أننى
يناشدنا بالله ألا تفرقوا
فروحي من هذا المقام مظلة
فلا تحزنوها بالخلاف فإنى

* * *

على العهد مادمننا فتم أنت هانيا
وصوتك مسموعٌ وإن كنت نائيا

أجل أيها الداعى إلى الخير إننا
بناؤك محفوظ وطيفك مائلٌ

(٤) ساهداً: ساهرا.

(٥) تشارفكم أى تنتظر إليكم من علو.

(١) التأسي بمعنى الصبر.

(٢) يريد الإنجليز.

(٣) عليك: أى عليك الحزن.

عَهْدُناكَ لا تَبْكِي وَتُتَكَرَّ أَنْ يُرَى
فَرَحُصْ لَنَا الْيَوْمَ الْبُكَاءَ وَفِي غَدٍ
فِيانِيلُ إِنْ لَمْ تَجْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ
وَيَا (مِصْرَ) إِنْ لَمْ تُحْفَظِي ذَكَرَ عَهْدِهِ
وَيَا أَهْلَ (مِصْرَ) إِنْ جَهِلْتُمْ مِصَابِكُمْ
أَخُو الْبَأْسِ فِي بَعْضِ الْمِوَاطِنِ بِاِكْيَا
تَرَانَا كَمَا تَهْوَى جِبَالًا رِوَاسِيَا
دَمًّا أَحْمَرًا لَا كُنْتَ يَانِيلُ جَارِيَا
إِلَى الْحَشْرِ لَا زَالَ انْحِلَالُكَ بِاقِيَا
ثِقُوا أَنْ نَجْمُ السَّعْدِ قَدْ غَارَ هَاوِيَا

* * *

ثَلَاثُونَ عَامًا^(١) بَلْ ثَلَاثُونَ دَرَّةً
سَتَشْهَدُ فِي التَّارِيخِ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
بَجِيدَ اللَّيَالِي سَاطِعَاتِ زَوَاهِيَا
فَتَى مَفْرَدًا بَلْ كُنْتَ جَيْشًا مَغَارِيَا

قصيدته في حفلة الأربعين

وله في رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها في حفلة الأربعين قال:

نَثَرُوا عَلَيْكَ نَوَادِي الْأَزْهَارِ^(٢)
زَيْنَ الشَّبَابِ وَزَيْنَ طُلُوبِ الْعُلَا
غَادَرْتَنَا وَالْحَادِثَاتُ بِمِرْصَدِ
مَا كَانَ أَحْوجْنَا إِلَيْكَ إِذَا عَدَا
أَيْنَ الْخَطِيبِ وَأَيْنَ خَلَابُ النُّهْيِ؟
بِاللَّهِ مَالِكَ لَا تَجِيبُ مَنَادِيَا
قُمْ وَامْحُ مَآخِطُتْ يَمِينِ (كِرُومِر)
قَدْ كُنْتَ تَغْضَبُ لِلْكِنَانَةِ كُلِّهَا
غَضَبَ التَّقَى لِرَبِّهِ وَكِتَابِهِ
قَدْ ضَاقَ جِسْمُكَ عَنْ مَدَاكِ فَلَمْ يُطِيقْ
أَوْدِي بِهِ ذَاكَ الْجِهَادُ وَهَدَّه
لَبَّتْ يَمِينُكَ بِالْإِرَاعِ فَأَعْجَزَتْ
وَجَرِيَتْ لِلْعِلْيَاءِ تَبْغَى شَأُوهَا

وَأَتَيْتُ أَنْثَرَ بَيْنَهُمْ أَشْعَارِي
هَلْ أَنْتِ بِالمُهْجِ الْحَزِينَةِ دَارِي؟
وَالْعَيْشُ عَيْشُ مَذَلَّةٍ وَإِسَارِ
عَادٍ وَصَاحِ الصَّائِحُونَ: بَدَارِ
طَالَ انْتِظَارُ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ
مَاذَا أَصَابَكَ يَا أَبَا الْمَغْوَارِ؟
جَهْلًا بِدِينِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
هَمَّتْ وَهَمَّ رَجَاؤُهَا بِعَثَارِ
أَوْ غَضَبَةٍ (الْفَارُوقِ لِلْمَخْتَارِ)^(٣)
صَبْرًا عَلَيْكَ وَأَنْتِ شُعْلَةُ نَارِ
عَزَمْتُ يَهْدُ جَلَائِلِ الْأَخْطَارِ
لَعِبَ الْفَوَارِسُ بِالْقَنَا الْخَطَّارِ^(٤)
بَدَرْتُ إِلَيْهِ غَوَائِلَ الْأَقْدَارِ؟

* * *

(١) إشارة إلى عمر الفقيده وهو رقم تقريبي لأنه توفي في الرابعة والثلاثين من عمره.

(٢) نوادي الأزهار: أي الرطبة المبللة بالندى.

(٣) الفاروق: عمر بن الخطاب، والمختار: النبي عليه الصلاة والسلام.

(٤) القنا: الرماح.

عَزَّ الْقَرَارُ عَلَى لَيْلَةٍ نَعِيهِ
وَتَسَابَقَتْ فِيهِ النِّعَاةُ فُطَائِرُ
شَاهَدَتْ يَوْمَ الْحُشْرِ يَوْمَ وَفَاتِهِ
وَرَأَيْتُ كَيْفَ تَفَى الشُّعُوبُ رَجَالَهَا
تَسْعُونَ أَلْفًا حَوْلَ نَعْشِكَ خُشْعُ
خَطَاوَا بِأَدْمَعِهِمْ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى
أَنَا يُوَالُونَ الضَّجِيجَ كَأَنَّهُمْ
وَتَخَالَهُمْ أَنَا لِفَرْطِ خُسُوعِهِمْ
غَلَبَ الْخُسُوعُ عَلَيْهِمْ فَدَمَوْعِهِمْ
قَدْ كُنْتُ تَحْتَ دَمُوعِهِمْ وَزَفِيرِهِمْ
أَسْعَى فَيَأْخُذْنِي اللَّهْيَبُ فَأَتْنِي
لَوْلَمْ أَلْذُ بِالنَّعْشِ أَوْ بِظِلَالِهِ

* * *

كَمْ ذَاتٌ خَدِرَ يَوْمَ طَافَ بِكَ الرَّدَى
سَفَرْتُ تَوَدُّعَ أُمَّةٍ مَحْمُولَةٍ
أُمْنَتْ عَيُونَ النَّاطِرِينَ فَمَزَّقَتْ
قَدْ قَامَ مَا بَيْنَ الْعَيُونِ وَبَيْنَهَا

* * *

أَدْرَجْتَ فِي الْعَلَمِ الَّذِي أَصْفَيْتَهُ
عَلَمَانِ^(٤) مِنْ فَوْقِ الرُّؤْسِ كِلَاهُمَا
نَادَاهُمَا دَاعَى الْفِرَاقِ فَأَمْسِيَا
تَاللَّهِ مَا جَزَعَ الْمَحَبَّ وَلَا بَكَى
جَزَعَ (الْهَلَالِ) عَلَيْكَ يَوْمَ تَرَكْتَهُ
مَتَلَفْتَا مَتَحَيِّرًا مَتَخَيِّرًا
إِنْ الثَّلَاثِينَ الَّتِي بِكَ فَاخَرْتُ

مَنْكَ الْوُدَادُ فَكَانَ خَيْرَ شِعَارٍ
فِي طَيِّبَةِ سِلَاسٍ مِنَ الْأَسْرَارِ
يَتَعَانَقَانِ عَلَى شَفِيرِ هَارِي
لِنَوَى مَرُوعَةٍ وَبَعْدَ مَزَارٍ
مَا بَيْنَ حَرٍّ أَسَى وَحَرٍّ أَوَارٍ^(٥)
رَجُلًا يَنَاضِلُ عَنْهُ يَوْمَ فَخَارٍ
بَاتَتْ تُقَاسُ بِأَطْوَلِ الْأَعْمَارِ

(١) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد في موكب الجنازة.

(٢) الكَلْحُ العَبُوسُ أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

(٣) الحِمَارُ: الحِجَابُ.

(٤) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثاني علم الوطن.

(٥) الأَسَى: الحُزْنُ؛ والأَوَارُ: الظَّمَأُ والتعطش، أى التعطش إلى الفقيد.

ضمتُ إلى التاريخ بضَع صحائف
شَبَّهْتُهُنَّ بنقطة عِطْرية
خَلَّفْتُهَا كالمشْق يحذو حَذْوَهَا
ماذا على السارى وهُنَّ^(٢) منائرُ
بيضاء مثل صحائف الأبرار
وسعت محصل روضةٍ معطار^(١)
راجى الوصول ومقتفى الآثار
لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

مازلت تختارُ المواقفَ وعُرة
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا
ورماهم بمجلدين^(٥) رَمَوْهُمَا
حتى وقفت لذلك الجبار^(٣)
فرعون^(٤) ذو الأوتاد والأنهار
في (البرلمان) أجلَّة أخيار
مافي الكنانة من أذى وضرار
حنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار
في رتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

وأها على تلك المواقف إنها
لم يَلُوه عنها الوعيدُ ولا ثنى
فاهناً بمنزلك الجديد ونم به
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما
نعمَ الجزاء ونعم ما بلغته
كانت مواقف ليت غاب ضارى
من عزمه قول المريب: حذار
في غبطةٍ وانعم بخير جوار
ضَحِيَّتَ للأوطان من أوطار
في منزليك^(٦) ونعم عقبى الدار

قصيدته في الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة ثلاثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء ذكره الأولى، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي، قال:

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا^(٧) واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

(١) الروضة المعطار: هي الكثيرة الأزهار والرياحين.

(٢) هن إشارة إلى الثلاثين عاماً: أى ماذا على السارى في المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.

(٣) اللورد كرومر.

(٤) شبه كرومر بفرعون.

(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.

(٦) أى الدنيا والآخرة.

(٧) استلم القبر: قبله أو لمسه بيده.

ضاقَت بِأَمَالِهِ الْاِقْدَارَ وَالْهَمَمَ
فِي الشَّرْقِ فَجَرُّ تَحِيٍّ ضَوْءِ الْأُمَمِ
نَثْرًا تَسِيرُ بِهِ الْأَمْثَالُ وَالْحِكَمُ
لِطَالِبِ الْحَقِّ رُكْنًا لَيْسَ يَنْهَدُمُ
حَامِيَ الذَّمَّارِ هُنَا الشُّهُمَ الَّذِي عَلِمُوا

هَنَا جَنَّانُ تَعَالَى اللَّهِ بَارِئُهُ
هَنَا قَمٌّ وَبِنَانُ لَاحَ بَيْنَهَا
هَنَا قَمٌّ وَبِنَانُ طَالِمَا نَتَرَا
هَنَا الْكِمَى^(١) الَّذِي شَادَتْ عَزَائِمُهُ
هَنَا الشَّهِيدُ هَنَا رَبُّ اللِّوَاءِ هَنَا

* * *

لَيَهْنِكَ النَّوْمُ لَا هَمٌّ وَلَا سَقَمٌ
عَنْكَ الْمَنَابِرُ وَالْقُرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
إِلَّا أُنْبَى ذِكْرِي الْقَلْبُ مَضْطَرَمٌ
آثَارُهُ عَمَمٌ آمَالُهُ أُمَمٌ

يَا أَيُّهَا النَّائِمُ الْهَانِي بِمَضْجَعِهِ
بَاتَتْ تَسَائِلُنَا فِي كُلِّ نَازِلَةٍ
تَرَكْتَ فِينَا فِرَاعًا لَيْسَ يَشْغَلُهُ
مَنْفَرَةُ النَّوْمِ^(٢) سَبَاقُ لِفَايَتِهِ

* * *

رَوْحًا يَحْفُ بِهَا الْإِكْبَارُ وَالْعِظَمُ
أَرَى مُحْيَا يُحْيِينَا وَيَبْتَسِمُ
هَذَا فَيَ النَّيْلِ هَذَا الْمُفْرَدُ الْعِلْمُ
مِنَ الْقُلُوبِ إِذَا لَمْ تُسْعِدْ^(٣) الْكَلِمُ
فَنَحْنُ فِي مَوْقِفٍ يَحْلُو بِهِ الْقِسْمُ

إِنِّي أَرَى وَفَوَادِي لَيْسَ يَكْذِبُنِي
أَرَى جَلَالًا أَرَى نُورًا أَرَى مَلَكًا
اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا الْوَجْهَ أَعْرِفُهُ
غَضُّوا الْعَيُونَ وَحَيَّوْهُ تَحْيَتَهُ
رَأَقِسِمُوا أَنْ تَذُودُوا عَنْ مِبَادِيهِ

* * *

لَمَّا سَكَنْتَ وَلَمَّا غَالَكَ الْعَدَمُ
وَنَسْتَمِدُّ وَنَسْتَعْدِي^(٤) وَنَحْتَكُمُ
عَفُ الْجَفَاءِ^(٥) وَأَعْلَى صَوْتِنَا الْأَلَمُ
إِنْ الضَّعِيفُ عَلَى الْحَالِينَ مُتَّهَمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الظَّالِمِينَ هُمُ
إِنْ نَطَقْنَا تَنَادَوْا: فَتَنَةٌ عَمَمٌ

لَبِيكَ نَحْنُ الْأَوَّلَى حَرَكْتَ أَنْفُسَهُمْ
جَنُنًا نُوْدِي حَسَابًا عَنْ مَوَاقِفِنَا
قِيلَ اسْكُنُوا فَسَكَنْتُمْ أَنْطَقْنَا
قَدْ اتَّهَمْنَا وَلَمَّا نَطَلَبْ جَلَالًا
قَالُوا لَقَدْ ظَلَمُوا بِأَلْحَقِ أَنْفُسَهُمْ
إِذَا سَكَنْتُمْ تَنَاجَوْا: تِلْكَ عَادَتُهُمْ

* * *

(٤) نستمد: نطلب المدد ونستعدي: نستنصر.

(٥) يريد بالجفاء المحتلين الجناة.

(١) الشجاع.

(٢) منفر النوم أى مسهد.

(٣) أسعده: أعانته.

قد مرَّ عامٌ بنا والأمرُ يحزُّنا^(١)
 فالتاس في شدَّةٍ والدَّهرُ في كلبٍ^(٢)
 وللسياسةِ فيناكلُ آونةً
 بينا نرى جمرها تخشى ملامسهُ
 تصغى لأصواتنا طوراً لتخدعنا
 فمن ملاينةٍ استارها خدعُ

أنا وآونةٌ نتتابنا النقم
 والعيشُ قد حارَ فيه الحاذقُ الفهم
 لونٌ جديدٌ وعهدٌ ليس يُحترم
 إذا به عند كسِ المصطلَى فحمُ
 وتارةً يزدهيها الكبرُ والصمم
 إلى مصالبه استارها وهم

* * *

ماذا يريدون^(٣)؟ لا قرَّت عيونهم
 كم أمةٍ رغبتُ فيها فما رسخت
 ما كان ربك ربُّ البيت تاركها

إن الكنانة لا يطوى لها علمُ
 لها - على حو لها^(٤) - في أرضها قدم
 وهى التى بحبالٍ منه تعصم

* * * جث

لبيك إنا على ما كنت تعهده
 فيعلم النيل أنا خيرٌ من وُردوا

حتى نسود وحتى تشهد الأمم
 ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

إلى أن قال:

يا أيها النشء سيروا في طريقته
 فكلكم (مصطفى) لوسار سيرته
 قد كان لا وائياً يوماً ولا وِكلاً^(٦)
 وأنت يا قبر قد جئنا على ظمأٍ
 أين الشباب الذى أودعت نضرتَه
 وما صنعت بآمالٍ لنا طُويت
 ألا جوابٌ يروى من جوانحنّا؟

وثابروا: رضى الأعداء أو نقموا
 وكلكم (كامل) لوجازه^(٥) السَّامُ
 يستقبل الخطب بساماً ويقتحم
 فجد لنا بجوابٍ جادك الدِّيمُ^(٧)
 أين الخلال - رعاك الله - والشيم؟
 يا قبر فيك وعفى رسمها القدم؟
 ما للقبور إذا ما نوديت تجمُ^(٨)؟

(١) حزه الأمر: اشتد عليه.

(٢) الكلب الشدة.

(٣) يريد المحتلين.

(٤) الحول: القوة.

(٥) جازه: أى جاوزه.

(٦) الوكل: العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره.

(٧) الديم جمع ديمة السحاب.

(٨) وجم يجم سكت عن الهم.

نَمْ أَنْتَ يَكْفِيكَ مَا عَانَيْتَ مِنْ تَعَبٍ فَنَحْنُ فِي يَقِظَةٍ وَالشَّمْلُ مِلْتَمِ
هَذَا (لَوَاؤُكَ) خَفَاقٌ يَظْلِلُنَا وَذَاكَ شَخْصُكَ فِي الْأَكْبَادِ مُرْتَسِمِ

تحية العام الهجرى

أعد الشباب في سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالاً كبيراً بالعام الهجرى الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادى المدارس العليا، وكان احتفالاً رائعاً أقيم بدار التمثيل العربى مساء الجمعة غاية ذى الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برأسة أحمد بك لطفى، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة في تحية العام الجديد. قال في مطلعها:

أَطْلُ عَلَى الْأَكْوَانِ وَالْخَلْقِ تَنْظُرُ	هَلَالُ رَأَى الْمُسْلِمُونَ فَكَبَّرُوا
تَجَلَّى لَهُمْ فِي صُورَةٍ زَادَ حُسْنَهَا	عَلَى الدَّهْرِ حُسْنًا أَنَّهُا تَتَكَرَّرُ
وَبَشَّرَهُمْ مِنْ وَجْهِهِ وَجَبِينِهِ	وَعُزَّتِهِ وَالنَّاطِرِينَ مُبَشِّرُ
وَأَذَكَّرَهُمْ يَوْمًا ^(١) اغْرًا بِحَجَلَا	بِهِ تُوجُّ التَّارِيخُ وَالسَّعْدُ مُسْفَرُ
وَهَاجَرَ فِيهِ خَيْرٌ دَاعٍ إِلَى الْهَدَى	يُخَفُّ بِهِ مِنْ قُوَّةِ اللَّهِ عَسْكَرُ
يُمَاشِيهِ جَبْرِيلُ وَتَسْعَى وَرَاءَهُ	مَلَائِكَةُ تَرْعَى خُطَاهُ وَتُخَفِّرُ
يُسْرَاهُ بِرَهَانٍ مِنْ اللَّهِ سَاطِعُ	هَدَى وَيُؤْمِنَاهُ الْكِتَابُ الْمَطْهَرُ
فَكَانَ عَلَى أَبْوَابِ (مَكَّة) رُكْبُهُ	وَفِي (يَثْرِبِ) ^(٢) أَنْوَارُهُ تَتَفَجَّرُ
مَضَى الْعَامُ مِيمُونَ الشُّهُورِ مَبَارَكَا	تَعَدَّدَ آثَارُ لَهُ وَتَسَطَّرُ
مَضَى غَيْرَ مَذْمُومٍ فَإِنْ يَذْكُرُوا لَهُ	هَنَاتٍ فَطَبَعَ الدَّهْرُ يَصْفُو وَيَكْدُرُ
وَإِنْ قِيلَ أَوْدَى بِالْأَلُوفِ أَجَابِهِمْ	بِحَبِيبٍ لَقَدْ أَحْيَا الْمَلَائِينَ فَانْظُرُوا
إِذَا قِيسَ إِحْسَانِ أَمْرِي بِإِسَاءَةٍ	فَأَرَبِي عَلَيْهَا فَالْإِسَاءَةُ تَغْفِرُ
فَفِيهِ أَقَامَ النَّائِمُونَ وَقَدَاتٍ	عَلَيْهِمْ كَأَهْلُ الْكَهْفِ فِي النَّوْمِ اعْصُرُ
وَفِي عَالَمِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَقْعَةٍ	لَهُ أَثَرٌ بَاقٍ وَذِكْرٌ مَعْطَرُ

وبعد أن سرد الحوادث في مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، عرج على الحركة الوطنية في مصر فحيّاها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب في تمجيدها وتأبيدها، قال:

(١) يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.

(٢) المدينة المنورة.

وفيه سرّت في مصر روحٌ جديدةٌ
خبّت زمنا حتى توهمت أنها
تصدى فأوراها وهيهات أن يرى
مضى زمن التّنويم يا نيل وانقضى
وقد كان «مرفين» الدهاء مخدراً
شعرنا بحاجات الحياة فإنّ وُنت
شعرنا وأحسننا وباتت نفوسنا
إذا الله أحيّا أمة لن يردها

وحيا الشباب بقوله :

رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول لا تتركوا غداً
رجال الغد المأمول إن بلادكم
عليكم حقوقٌ لبلاد أجّلها
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم
فكونوا رجالاً عاملين أعزة

وعرج على حركة المطالبة بالدستور، قال :

وياطلبي (الدستور) لاتسكنوا ولا
أعدوا له صدر المكان فإنني
ولاتنطقوا إلا صواباً فإنني
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله

مباركة من غيرة تتشعر
تجافت عن الإبراء لولا (كرومر)^(١)
سبيلا إلى إخمادها وهي تزفر
ففى مصر إيقاظٌ على مصر تسهر
فأصبح في أعصابنا يتخدر
عزائنا عن نيلها كيف نُعذر؟
من العيش إلا في ذرا العز تسحر
إلى الموت قهّار ولا متجبر

إلى قادة تبني وسعبي يعمر
إلى مصلح يدعو وداع يذكّر
إلى عالم يدري وعلم يقرّر
إلى حكمة تملى وكف تحرّر
إليكم فسدوا النقص فينا وشمروا
يمر مرور الأُمس والعيش أغبر
تناشدكم بالله أن تتذكروا
تعهد روض العلم فالروض مقفر
يداً تبني مجداً ورأساً يفكر
وصونوا همى أوطانكم وتحرروا

تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أراه على أبوابكم يتخطف
أخاف عليكم أن يقال تهوّرُوا
ولا ناله في العالمين مقصّر

(١) خت. خدمت، وتجافت: تباعدت. وإبراء النار. إشعالها. وكرومر هو المعتمد البريطاني في ذلك الحين والحاكم المطلق في مصر وقتئذ، يريد أن فطائع كرومر قد اشعلت روح الكراهية للاحتلال.

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم^(١) ونحن على الآثار لا شك نظفّر
 هم لهم العام القديم مقدّرٌ ونحن لنا العام الجديد مقدر
 وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين، وكان
 إلقاؤه رائعا أخذا، ولبت في إلقائه ساعة من الزمان كاملة.

وفي ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضا احتفالا فخما بعيد رأس السنة الهجرية
 (١٣٢٨) بمسرح (البيلوت باسك) بشارع عماد الدين، والقي فيه حافظ قصيدة من أبلغ
 شعره، قال في مطلعها يحيى هلال العام الجديد:

لى فيك حين بدّا سنّاك وأشرقّا أملٌ سألتُ الله أن يتحققا

ثم ذكر العام الذى مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث، قال:

أشرق علينا بالسعود ولا تكن كأخيك مشنوم المنازل أخرقا

إلى أن قال ينمى حرية الصحافة ويذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد:

ورمى على أرض الكنانة جرمه
 حصدت مناجله غراس رجائنا
 فتقيدت فيه (الصحافة) عنوة
 وأتى يساوم في (القناة) خديعة
 إن البلية أن تُباع وتُستري
 كانت تواسينا على آلامنا
 فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت
 كانت لنا يوم الشدائد سهما
 كانت صماما للنفوس إذا علت
 كم نفست عن صدر حرٍّ واجد^(٤)
 بالنّازلات السّود حتى ارهقا
 ولو أنها أبقت عليه لأورقا
 ومشى الهوى بين الرعية مُطلقا
 ولو أنها تمّت لتمّ بها الشقّا^(٢)
 مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
 صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
 عنا اسى حتى تغصّ وتشرقا
 نرّمى بها وسوابقا^(٣) يوم اللقا
 فيها الهُموم وأوشكت أن تزهدا
 لولا الصّام من الأسى لتمزقا

(١) يريد إعلان الدستور في تركيا عام ١٩٠٨.

(٢) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس، وقد ظهر في أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية، في أبريل سنة ١٩١٠.

(٣) السوابق من صفات الخيل، أى كانت لنا عدة في الجهاد.

(٤) الواجد: الحزين.

مالي انوح على الصحافة جازعاً
قصوا حواشيها وطنوا أنهم
وأوتوا بحاذقهم^(١) يكيدها بما
ماذا ألم بها وماذا أحدقنا
أمنوا صواعقها فكانت أصعقنا
يثنى عزائمها فكانت أحدقنا

وقال يخاطب الشباب ومهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها:

أهلاً بنايتة البلاد ومرحباً
لا تياسوا أن تستردوا مجدكم
مدت له الآمال من أفلاكها
فتجشموا للمجد كل عزيمة
من رام وصل الشمس حاك خيوطها
جددت العهد الذي قد أخلقا
فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
خيطة الرجاء إلى العلا فتسلقا
إني رأيت المجد صعب المرتقى
سبباً إلى آماله وتعلقا

* * *

عارٌ على ابن النيل سباق الورى
أو كلما قالوا تجمع شملهم
فتدفعوا حُججاً وحوطوا نيلكم
حملوا علينا بالزمان وصرفه
هزوا مغارها فهابت بأسهم
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا
نم استمدوا منه كل قواكم
وابنو حوالى حوضكم من يقظة
وزنوا الكلام وسدوده فإنهم
وامشوا على حذر فإن طريقكم
نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا
الموت فى غشيانته وطروقه
مهما تقلب دهره أن يسبقا
لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا
فلكم أفاض عليكم وتدفعنا
فتأنقوا فى سلبنا وتأنقنا^(٢)
يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقنا^(٣)
لم يبق بابا للسعادة مغلقا
إن القوى بكل أرض يتقى
سورا وخطوا من حذار خندقنا
خبأوا لكم فى كل حرف مزلقا
وعر أطفاف به الهلاك وحلقا
للسالكين بكل فج موبقا^(٤)
والموت كل الموت ألا يطرقنا^(٥)

(١) يريد بطرس غالى رئيس الوزراء، ولكن الحق أن تبعه ذلك يتحملها الوزراء جميعا لا بطرس غالى وحده.

(٢) أى حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائيه، وتأنق فى الأمر: أى بالغ فيه.

(٣) يشير إلى الإنجليز، أى أنهم مدوا سلطانهم فى دول الغرب، ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا مصر هذه المكانة فى الشرق.

(٤) الفج: الطريق، الموبق: الهلاك.

(٥) أى إذا كان فى الإقدام موت فإن فى الاستسلام موتاً أكبر.

فتحينوا فرصَ الحياة كثيرة وتعجلوها بالعزائم والرق
أو فاخلقوها قادرين فإنما فرص الحياة خليفة أن تخلقا

مسألة قناة السويس

في أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأي العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهى مشروع مدّ الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاما أخرى، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه وبعرضه على الجمعية العمومية» قبل البت فيه.

حركت هذه المسألة الهامة روح الشعر في نفس حافظ، فنظم في نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيدة من بليغ شعره القومي، وصف فيها الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد، وأيد الحركة الوطنية في مطالبها، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها، قال في مطلعها:

لقد نَصَلَ الدُّجَى فمَتَى تَنَامُ أهُمُّ ذَاذَ نَوْمِكَ أَمْ هُيَامُ^(١)

إلى أن قال:

أيجمل بالأديب أديب مصر	بكاء الطفل أرهقه الفِطَامُ
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر	ومصرٌ في يد الباغى تُضَامُ
عدمت يراعى إن كان ما بى	هوى بين الضلوع له ضِرامُ
وما أنا والغرام وشاب رأسى	وغال شبابى الخطبُ الجسامُ
وربّانى الذى ربى (البيدًا)	فعلمنى الذى جهل الأنام ^(٢)
لعمرك ما أرقّت لغير مصر	ومالى دونها أمل يرامُ
ذكرت جلالها أيام كانت	تصول بها الفراعنة العظامُ
وأيام الرجال بها رجالٌ	وأيام الزمان لها غلامُ
فأقلق مضجعى ما بات فيها	وباتت مصر فيه فهل الأم؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال:

(١) الدجى: ظلام الليل.

(٢) لبيد، هو الشاعر العربى صاحب المعلقة التى أولها:

عفت الديار محلها فرسومها

أرى شعباً بمِزْجَةِ العوادي
إذا ما مرَّ بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى
قد استعصى على الحكماء منا
هلاك الفرد منشؤه توانٍ
وإنّا قد وَنِينَا وانقسمنا
فساء مُقَامُنَا في أرض مصر
فلا عجبٌ إذا مُلِكت علينا

تَمَخَّنْ عَظْمَهُ دَاءُ عُقَامٍ^(١)
أطل عليه بالبأساء عام
تَخَطَّفَ رِزْقَهُ ذَاكَ الزَحَامِ^(٢)
كما استعصى على الطب الجُذَامِ
وموت الشعب منشؤه انقسام
فلا سَعَى هناك ولا وئام
وطاب لغيرنا فيها المُقَامِ
مذاهبنا وأكثرنا نيام

وناجي الأمير حسين كامل وكان رئيساً لمجلس شورى القوانين أن يبث روح الحياة والتضامن في نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال، قال:

(حسينُ. حسينُ) أنت لنا فَنَبْه
وكن - بأبيك - لآلِين أخيك عَوْنًا
أَفِضْ في قاعة الشورى وئامًا
وعَلِّمهم مصادمة الأعادي
ففى (حزب اليمين) لديك قومٌ
وفى (حزب الشمال) لديك أَسَدٌ
فكونوا للبلاد ولا يَفْتَكُم
فما سادوا بمعجزة علينا
فلا تَثِقُوا بوعود القوم يوما
وخافوهم إذا لانوا فإِنِ
فكم ضحك (العميد) على لحانا

رجالا عن طِلاب الحق ناموا
فأنت بكفه نِعَمَ الحسام
فقد أودى بنا وبها الخصام
فمثلك لا يُرَوِّعه الصدام
وإن قلوا فإنهم كرام
كُماة لا يطيب لها انهزام
من النهزات والفرص اغتنام
ولكن في صفوفهم انضمام
فإن سَحَابَ ساستهم جَهَامِ^(٣)
أرى السُّوَّاسَ ليس لهم ذِمَامِ^(٤)
وغير سراتنا منه ابتسام

(١) المدرجة: الطريق. والعوادي: النواذب. وتمخخ العظم: إذا أخرج منه.

(٢) أى مزاحمة الأجانب للمصريين.

(٣) السحاب الجهم: الذى لا ماء فيه.

(٤) الذمام: الذمة والعهد.

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة، قال:

ليس العلمُ يسكننا وحيثاً	إذا لم ينصر العلمُ اعتزام
وإن لم يدرك (الدستور) مصرًا	فما لحياتها ابدا قوام
حُبُونَا وِرْدَ النِّيلِ عَذْبًا	وقالوا: انه موت زؤام
وما الموت الزؤام إذا عقلنا	سوى (الشركات) حل لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحن	بشروتنا وأولها (الترام)

فياويل (القناة) اذل احتواها	بنو (التاميز) وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيا حُطامًا	بأيدينا وقد عَزَّ الحطام
وقد كنا جعلناها زماما	فوالهفى اذا قُطع الزمام!

فيا (قصر الدبارة) لست أدرى	احربُ في جرابك أم سلام؟
أجبنّا هل يُراد بنا وراء	فنقضى أم يراد بنا أمام؟
ويا (حزب اليمين) اليك عنا	لقد طاشت نبالك والسهام
ويا (حزب الشمال) عليك منا	ومن ابناه نجدتك السلام

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأى العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التى قررت رفضه، وبذلك حبط المشروع.

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان في مارس سنة ١٩١٠، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال البريطانى، ودعا إلى الخضوع لحكمه، ولما وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته، بالخرطوم، وقد أثارت خطبته احتجاج الرأى العام، وشارك حافظ الأمة في سخطها على روزفلت، ونظم قصيدة عصماء لاه فيها على إطرانه الاحتلال، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة، قال.

أنى خطيبَ الدنيا شَنَّفَ سَمَعَ مصر بقولك المأثور

إنما شوقها لقولك يا (روز)
 قِفْ غَدًا أيها الرئيس وعَلِّمْ
 وأخبر الناس كيف سدتُم على النّاس
 وملكتُم أعنة الريح والماء
 قِفْ وَعَدُّد مآثر العلم واذكر
 وإذا ما ذكرت أنعمه الكبـر

فلت) شوق الأسير للتحرير
 أهل مصر حرية التعبير
 س وجئتم بمعجزات الدهور
 ء ودستهم على قارب العصور
 نعم الله ذكر عبـد شكور
 رى فلا تنس نعمة (الدستور)

* * *

يا نصير الضعيف مالك تطرى
 لم تطيقوا جوارهم بل اقمتم
 أنت تطريهم وتثنى عليهم
 ليت شعري أكنت تدعو إليهم
 يوم كانوا قذى بعين (نيويورك)
 يوم نادى (واسنجتون) فلبيا
 يوم سجلتم على صفحات الدهـ
 وثبتتم إلى الحياة ثوبا
 إنما النيل والمسيحي^(٣) صنوا
 وعجيب أن يفوز هذا بإطلا
 يانصير الضعيف حُبب إليهم
 فعليهم أن يهجروا وعلى المصـ

خطة القوم^(١) بعد ذاك النكير
 في حاكم من دولتهم ألف سور
 نائبا آمنا وراء البحور
 يوم كانوا على تخوم الثغور
 ك) وداء مستحكما في الصدور
 ه من الغيل كل ليث هصور^(٢)
 ر تاريخ مجدمك بالنور
 ونفضتم عنكم غبار القبور
 ن هما حليتان للمعمور
 ق وهذا في ذلة المأسور
 هجر مصر^(٤) تفز بأجر كبير
 رى ذكر المتيم المهجور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ في رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجمهورى في حفلة التآيين
 التى أقامها الحزب الوطنى يوم الأربعين لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزت مشاعر

(٣) هو النهر المشهور بأمريكا

(٤) أى الجلاء عنها.

(١) يقصد الإنجليز.

(٢) الغيل: موضع الأسد

السامعين والمواطنين لما حوته من المعاني الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مَنْ لِيَوْمٍ نَحْنُ فِيهِ مَنْ لَفْدٌ؟ مات ذو العزّة والرأى الأسد
حَلَّ (بالجمعة) حزنٌ وأسى ومشى الوجد إلى (يوم الأحد)^(١)
وبدا شعري على قرطاسه لوعةٌ سالت على دمع جمد

أيها النيل لقد جَلَّ الأسى كُنْ مِدَاداً لِي إِذَا الدمع نفد
وأذبل يازهرة الرّوض ولا تبسّمى للطلّ فالعيش نكد
والزم التّوحّ أيا طير ولا تبتّهج بالشّدو فالشدو حدد^(٢)
فلقد ولّى (فريدٌ) وانطوى ركن مصرٍ وفتاها والسند

خالد الآنار لا تخش البلى ليس يَبْلَى من له ذِكر خلد
زرتَ (برلين) فنادى سَمْتُها نزلت شمس الضحى برج الأسد
واختفت سمسك فيها وكذا تختفى في الغرب أقمار الأبد^(٣)

يا غريبَ الدار والقبر ويا سلوة النيل إذا ما الخطبُ جدّ
وحُساماً فلّ حدّيه الرّدى وشهاباً ضاء وهناً وخمد
قلّ (لصب النيل)^(٤) إن لا قيتّه في جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرّاً لا تنى عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئت عنها أحمل البشرى إلى (أول البانين)^(٤) في هذا البلد
فاستريح وهناً ونمّ في غبطة قد بذرت الحبّ والشعب حُصد^(٥)

(١) كنى بيومى الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.

(٢) الحدد: الحرام الذى لا يحل أن يرتكب.

(٣) كانت وفاة الفقيه في برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩.

(٤) يريد مصطفى كامل.

(٥) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩.

آثر النيل على أمواله وقواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصر وهو في سِقْوَة أحلى من العيش الرُغْد
ضاربٌ في الأرض يبغي مأرباً كما قاربه عنه ابتعد
لم يَعْبِهْهُ أَنْ تَجْنَى دهرُهُ رب جِدِّ حاد عن مجراه جَدًّا^(١)
يستحِمُّ العِزَمَ حتى إن بدت فرصة شدَّ إليها وصمد
فهو لا يثنى عنائاً عن مَنَى وهو هجيره (من جد وجد)
فأياديه إذا ما أنكرت إننا تنكرها عين الحسد

* * *

فقدت مصر (فريداً) وهى في موطن يُعَوِّزُها فيه المدد
فقدت مصر (فريداً) وهى في لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيراً حُولا^(٢) وهى والأيام في أخذ ورد
لم سكد يُتبعها الدهر به في ربوع النيل حيًّا لم يكد
ليتة عاش قليلاً فتري شعب مصر عينه كيف اتحد
وَيَحْ مصر بل فويحاً للثرى إنه أبلغ حزنًا وأشد
كم تَمْنَى وتمنى أهله لو يوارى فيه ذباك الجسد^(٣)

* * *

لهف نفسى هل (بيرلين) امرؤ فوق ذاك القبر صلى وسجد؟
هل بكت عينُ فروت تُرَبِّه هل على أحجاره خطُّ أحد؟
ها هنا قبرٌ شهيد في هوى أمة أيقظها ثم رقدًا

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة ١٩١٩ في قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجاً على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبه مع المتظاهرين من

^(١) الحد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ. والمعنى: رب اجتهاد أخطأ الحظ.

^(٢) الحول: الحادق البصير بتحويل الأمور.

^(٣) يشير في هذا البيت والبيت الذى سبقه إلى أن جثمان الفقيده توى في برلين، وقد نقل إلى مصر في يونيه سنة ١٩٢٠.

فظائع القتل والتنكيل، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن، وحمل في قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن، قال:

خَرَجَ الغَوَايِ يَحْتَجِجْنَ وَرُحْتَ أَرْقُبَ جَمْعَهُنَّ	فَإِذَا يَهِنَّ تَخْذَنَ مِنْ
سُودِ النِّيَابِ شِعَارَهُنَّ	فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَوَاكِبٍ
يَسْطَعْنَ فِي وَسْطِ الدُّجْنَةِ ^(١)	وَأَخْذَنَ يَحْتَزَنَ الطَّرِيقَ
وَدَارَ «سَعْدٍ» قَصْدَهُنَّ	يَمِشْنَ فِي كَنَفِ الْوَقَا
رَ وَقَدْ أَيْنَ شُعُورَهُنَّ	وَإِذَا بِجَيْشٍ مُقْبِلٍ
وَالْخَيْلِ مُطْلَقَةِ الْأَعْنَةِ	وَإِذَا الْجُنُودُ سَيُوفُهَا
قَدْ صُوبَتْ لِنَحُورِهِنَّ	وَإِذَا الْمَدَافِعُ وَالْبِنَا
دَقَّ وَالصَّوَارِمُ وَالْأَسْنَةُ	وَالْخَيْلُ وَالْفَرَسَانُ قَدْ
ضَرَبَتْ نَطَاقًا حَوْلَهُنَّ	وَالْوَرْدَ وَالرَّيْحَانَ فِي
ذَاكَ النَّهَارِ سِلَاحَهُنَّ	فَتَطَاحَنَ الْجَيْشَانِ سَا
عَاتٍ تَشِيبُ لَهَا الْأَجْنَةُ	فَتَضَعُضُ النِّسْوَانُ وَالنِّسْ
وَأَنْ لَيْسَ لهنَّ مُنَّةٌ ^(٢)	نَمْ انْهَزَمْنَ مَشْتَتَاتِ الشَّمْسِ
لِ نَحْوِ قِصُورِهِنَّ	

رَ بِنَصْرِهِ وَبِكُسْرِهِنَّ!	فَلِيَهِنَا الْجَيْشُ الْفَخْوُ
لَبَسُوا الْبَرَاقِعَ بَيْنَهُنَّ	فَكَأَنَّمَا (الْأَلَان) قَدْ
فِيًّا بِمَصْرِ يَقُودُهُنَّ	وَأَتُوا (يَهْدُنْبُرج ^(٣)) مُحْتَدَةً
وَأَشْفَقُوا مِنْ كَيْدِهِنَّ!	فَلِذَاكَ خَافُوا بِأَسْهَنَ

وأنشأ قصيدة حيا بها جمعية المرأة الجديدة، وألح فيها إلى بطولة المرأة في ثورة سنة ١٩١٩. قال:

(١) الدجنة: الظلام.

(٢) المنة: القوة.

(٣) المارشال هندنبرج، القائد الشهير في الحرب العالمية الأولى.

إِلَيْكَ يَهْدِي النِّيلُ أَلْفَ نَحْيَةٍ
وَيُثْنِي عَلَى أَعْمَالِكُنْ مُوَكَّلِي^(١)
أَقَمْتُنْ بِالْأَمْسِ الْأَسَاسَ مَبَارَكًا
صَنَعْتُنْ مَا يُعْبَى الرِّجَالُ صَنِيعُهُ
مَعَطَرَةٍ فِي أَسْطَرِ عَطَرَاتِ
بِإِطْرَاءِ أَهْلِ الْبَرِّ وَالْحَسَنَاتِ
وَجِئْتُنْ يَوْمَ الْفَتْحِ مُقْتَبِطَاتِ
فَزِدْتُنْ فِي الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ

* * *

يقولون : نصفُ الناسِ في الشرقِ عاطِلٌ
وهذى بنات النيلِ يَعْمَلْنَ لِنَهْيِ
وفي السنة السُّوداءِ كُنْتُنْ قُدُوةً
وَقَفْتُنْ فِي وَجْهِ الْخَمِيسِ مُدَجَّجًا
وَمَا هَالِكُنَّ الرُّمَحَ وَالسِّيفَ مُصَلَّتَا
تَعْلَمُ مِنْكُمْ الرِّجَالُ فَأَصْبَحُوا
نِسَاءَ قَضَيْنَ الْعَمْرِ فِي الْحُجَرَاتِ
زَيْغَرِسْنَ غَرْسًا دَانِي الثَّمَرَاتِ
لَنَا حِينَ سَأَلَ الْمَوْتَ بِالْمَهْجَاتِ
وَكُنْتُنْ بِالْإِيْمَانِ مُعْتَصِمَاتِ
وَلَا الْمَدْفَعُ الرَّشَاشُ فِي الطَّرُقَاتِ
عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أَهْلُ ثَبَاتِ

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلى - كيرزون، حين سافرت نيات الإنجليز في العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، ثم أشار إليها وهي تستنجد ببنيتها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى ليحتذوه، وينعاونوا على التمسك بالحق كاملاً حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب في القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها، إذ هي فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) وهذه القصيدة أنتدتها سيدة الطرب أم كلثوم من روائع أغانيها :

وَقَفَ الْخَلْقُ يَنْظُرُونَ جَمِيعًا
وَبِنَاءَ الْأَهْرَامِ فِي سَالِفِ الدَّهْدِ
أَنَا تَاجُ الْعِلَاءِ فِي مُفْرِقِ^(٢) الشَّرِّ
أَيُّ شَيْءٍ فِي الْغَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّاسَ
كَيْفَ أَبْنَى قَوَاعِدَ الْمَجْدِ وَحْدِي
رَ كَفَوْنِي الْكَلَامِ عِنْدَ التَّحْدِي
قِ وَدِرَاتِهِ فَرَائِدُ عِقْدِي
سَ جَمَالًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدِي؟

(١) موكل، أى أن النيل قد أنابه عنه في إبلاغهن ثناءه عليهن.

(٢) المفرق : وسط الرأس.

فترابى تَبْرٌ ونَهْرٌ فُراتٌ
 أينما سِرْتُ جَوَلٌ عندكم كَرَمٌ
 ورجالى لو أنصفوهم لَسَادُوا
 لو أصابوا لهم مجالاً لَأَبْدُوا
 أنا إن قَدَّرَ الإلهُ مَاقى
 وسمائى مَصْقُولَةٌ كَالْفِرْنِذِ^(١)
 عند زَهْرٍ مُدَنَّرٍ عند رَنْدٍ^(٢)
 مِنْ كُھُولٍ مِلءِ الْعُيُونِ وَمُرْدٍ^(٣)
 مُعْجَزَاتِ الذِّكَاةِ فِي كُلِّ قَصْدٍ
 لَا تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرَّأْسَ بَعْدَى

* * *

ما رَمَانِي رَامٍ رَاحَ سَلِيمَا
 كَمْ بَغَتْ دَوْلَةٌ عَلَيَّ وَجَارَتْ
 إِنِّي حُرَّةٌ كَسَرْتُ قُيُودِي
 مِنْ قَدِيمِ عَنَايَةِ اللَّهِ جُنْدِي
 نَمَّ زَالَتْ وَتِلْكَ عُقْبَى التَّعْدَى
 رَغْمَ رُقْبَى الْعِدَا وَقَطَعْتُ قَدَى^(٤)

* * *

قُلْ لِمَنْ أَنْكَرُوا مَفَاخِرَ قَوْمِي
 هَلْ وَقَفْتُمْ بِقِمَّةِ الْهَرَمِ الْأَكْ
 هَلْ رَأَيْتُمْ تِلْكَ النُّقُوشَ اللَّوَانِي
 حَالٌ لَوْنُ النَّهَارِ مِنْ قَدَمِ الْعَهْدِ
 هَلْ فَهِمْتُمْ أَسْرَارَ مَا كَانَ عِنْدِي
 دَاكُ فَنِّ التَّحْنِيطِ قَدْ غَلَبَ الدَّهْدُ
 يَمَثَلُ مَا أَنْكَرُوا مَآثِرَ وَلَدِي
 بِرِ يَوْمًا فَرَيْتُمْ بَعْضَ جُهْدِي؟^(٥)
 أَعْجَزَتْ طَوْقَ صَنْعَةِ التَّحْدَى؟
 سُدَّ مَا مَسَّ لَوْنَهَا طُولُ عَهْدِ
 مِنْ عُلُومٍ مَخْبُوءَةٍ طَيَّ بُرْدِي؟
 رَوَّابِلَى الْبِلَى وَأَعْجَزَ نِدَى

* * *

قَدْ عَقَدْتُ الْعَهْدَ مِنْ عَهْدِ فُرْعُو
 إِنَّ مَجْدِي فِي الْأُولِيَّاتِ عَرِيقُ
 أَنَا أُمُّ (التَّشْرِيعِ) قَدْ أَخَذَ الرُّو
 وَرِصَدْتُ النُّجُومَ مِنْذُ أَضَاءَتْ
 نَفَى (مَصْرَ) كَانَ أَوَّلَ عَقْدِ
 مَنْ لَهُ مِثْلُ أُولِيَّاتِي وَمَجْدِي؟
 مَا نُ عَنِ الْأَصُولِ فِي كُلِّ حَدِّ
 فِي سَبَاءِ الدُّجَى فَأَحْكَمْتُ رَصْدِي

(١) الفرات، العذب، والفرند؛ السيف.

(٢) المدثر، أى مختلف الألوان، أو المشرق التلألؤ، والرند: شجر طيب الرائحة.

(٣) مرد: جمع أمرد، وهو الشاب.

(٤) القد: القيد، بقدر منجلد.

(٥) فرَيْتُمْ، أى فرَأَيْتُمْ.

وَشَدَا (بنتشور^(١)) فَوْقَ رُبُوعِي
اتراني وقد طَوَيْتَ حَيَاتِي
أَيُّ شَعْبٍ أَحَقُّ مِنِّي بِعَيْشٍ
قَبْلَ عَهْدِ الْيُونَانِ أَوْ عَهْدِ (نَجْدِ)
فِي مَرَّاسٍ لَمْ أَبْلُغِ الْيَوْمَ رُشْدِي؟
وَارِفِ الظِّلَّ أَخْضَرَ اللَّوْنِ رَغْدِي؟

* * *

أَمِنَ الْعَدْلَ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَ الـ
أَمِنَ الْحَقَّ أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ الـ
نَصْفُ قَرْنٍ إِلَّا قَلِيلًا أَعَانِي
نَظَرَ اللَّهِ لِي فَأَرْشَدَ أَبْنَا
إِنَّمَا الْحَقُّ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى الدُّ
هَاءَ صَفَوْا وَأَنْ يُكَدَّرَ وَرِدِي؟
أَسَدٌ مِنْهُمْ وَأَنْ تُقَيَّدَ أَسْدِي؟
مَا يُعَانِي هَوَانَهُ كُلُّ عَبْدٍ^(٢)
نَسِيَ فَسَدُوا إِلَى الْعُلَا أَيُّ شَدِّ
يَا نَ أَمْضَى مِنْ كُلِّ أَيْضٍ هِنْدِي

وقال في تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد:

قَدْ وَعَدْتُ الْعُلَى بِكُلِّ أَبِيٍّ
أَمْهَرُوهَا بِالرُّوحِ فَهِيَ عَرُوسُ
وَرِدُّوا بِي مِنْهَا هَلِ الْعِزُّ حَتَّى
وَارْفَعُوا دَوْلَتِي عَلَى الْعِلْمِ وَالْأَخْذِ
وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ فَالصَّبْرُ إِنْ فَاءِ
خُلِقَ الصَّبْرُ وَحْدَهُ نَصَرَ الْقَوَى
شَهِدُوا حَوْمَةَ الْوَعَى بِنُفُوسٍ
فَمَحَا الصَّبْرُ آيَةَ الْعِلْمِ فِي الْحَرْبِ
مِنْ رِجَالِي فَأَنْجِزُوا الْيَوْمَ وَعْدِي
تَسْنَأُ الْمَهْرَ مِنْ عُرُوضٍ وَنَقْدٍ^(٣)
يَخْطُبُ النُّجْمُ فِي الْمَجَرَّةِ وَدِي
بِلَاقٍ فَالْعِلْمُ وَحْدَهُ لَسْتُ تُحْدِي
رَقٍّ قَوْمًا فَمَا لَهُ مِنْ مَسَدٍّ
مَ وَأَغْنِي عَنْ اخْتِرَاعٍ وَعَدٍّ
صَابِرَاتٍ وَأَوْجُهُ غَيْرَ رُبْدٍ
وَأُنْحَى عَلَى الْقَوَى الْأَشَدِّ

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ في غمرة من الانقسام:

إِنَّ فِي الْغَرْبِ أَعْيُنًا رَاصِدَاتٍ
فَوْقَهَا يَجْهَرُ يُرِيهَا خَفَايَا
فَاتَّقَوْهَا بِجُنَّةٍ مِنْ وَنَامٍ
كَحَلَّتْهَا الْأَطْمَاعُ فَيَكُمُ بِسَهْدٍ
كُمُ وَيَطْوِي شُعَاعَهُ كُلُّ بُعْدٍ
غَيْرِ رَثِّ الْعُرَا وَسَعْيٍ وَكَدٍّ

(١) ستشور: أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصري، وقبل عهد اليونان الخ، أي قبل سغراء اليونان وشغراء العرب

(٢) يقصد عهد الاحتلال البريطاني.

(٣) تسناً: تكراه.

رَبِّ هَافٍ هَفًا عَلَى غَيْرِ عَمَدٍ
رَأَى فِيهِ وَعَثْرَةَ الرَّأْيِ تُرْدِي
مِنْ خِلَافٍ وَالْخُلْفِ كَالسُّلِّ يُعْدِي
فِيُعِيدُ الْجَهْلَ فِيهَا وَيُبْدِي
وَيَقُولُ الْقَوِيُّ قَدْ جَدُّ جَدِّي
جَانِبِيهِ بِعَزْمَةِ الْمُسْتَعِدِّ
قَدْ قَطَعْنَاهُ بَيْنَ سُهْدٍ وَوَجَدٍ
وَالْأَمَانِيِّ بَيْنَ جَزَرٍ وَمَدِّ
وَهُوَ رَمَزُ لَهْمِدِي الْمُسْتَرَدِّ
فَالْعَالِي مَخْطُوبَةٌ لِلْمُجَدِّ

وَاصْفَحُوا عَنْ هَنَاتٍ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
نَحْنُ نَجْتَازُ مَوْقِفًا تَعَزُّرُ الْآ
وَنُعِيرُ الْأَهْوَاءَ حَرِّبًا عَوَانًا
وَنُثِيرُ الْفَوْضَى عَلَى جَانِبِيهِ
وَيُظَنُّ الْغَوِيُّ أَنْ لَا نِظَامَ
فَقِفُوا فِيهِ وَقْفَةَ الْحَزْمِ وَارْمُوا
إِنْسَانًا عِنْدَ فَجَرٍ لَيْلٍ طَوِيلٍ
غَمَرْتَنَا سُودُ الْأَهَاوِيلِ^(١) فِيهِ
وَتَجَلَّى ضِيَاؤُهُ بَعْدَ لَيْ
فَاسْتَبِينُوا قَصْدَ السَّبِيلِ وَجِدُوا

الاستقلال المقيد

قالها عندما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

أَجَدَّتِ الْأَيَّامُ أَمْ تَمَزَحُ؟
أَمْ ذَاكَ لِلَّهِ بِنَا مَسْرَحُ؟
فِي حَالِكَ الشُّكِّ فَأَسْتَرْوِحُ
فَأَتَنَّى أَنْكَرُ مَا أَلْمَحُ
إِنْ لَمَحُوا بِالْقَصْدِ أَوْ صَرَحُوا
مَكَانَكُمْ بِالْأَمْسِ لَمْ تَبْرَحُوا
وَرَاءَهَا الْغَايَةُ وَالْمَطْمَحُ
هَذَا هُوَ اسْتِقْلَالُكُمْ فَأَفْرَحُوا
وَاسْتَوْثِقُوا فِي عَهْدِكُمْ تَرَبَّحُوا
لِلرَّأْيِ فِيهَا وَالْجَبَا أَفْسَحُوا
أَلَّا تَرَى عِزَّتَهَا تُجْرَحُ
فَمِنْهُمْ الْمُخْلِصُ وَالْمُصْلِحُ

أَصْبَحْتُ لَا أَدْرِي عَلَى خَيْرَةٍ
أَمْوَقِفُ لِلْجِدِّ نَجْتَازَهُ
أَلْمَحُ لَاسْتِقْلَالِنَا لَمْعَةً
وَتَطْمِسُ الظُّلُمَةُ آثَارَهَا
قَدْ حَارَتِ الْأَفْهَامُ فِي أَمْرِهِمْ
فَقَائِلُ لَا تَعَجَّلُوا إِنَّكُمْ
وَقَائِلُ أَوْسِعْ بِهَا خُطْوَةً
وَقَائِلُ أَسْرَفَ فِي قَوْلِهِ:
إِنْ تَسْأَلُوا الْعَقْلَ يَقُلْ عَاهِدُوا
وَأَسْأَلُوا دَارًا لِنُؤَابِكُمْ
وَلَتَذْكُرِ الْأُمَّةُ مِثَاقَهَا
وَتَتَنَجَّبُ صَفْوَةَ أَبْنَائِهَا

(١) الأهوايل جمع أهوال.

وَلْيَتَّقِ اللَّهَ أُولُو أَمْرِهِا أَنْ يُسَكِّتُوا الْأَصْوَاتِ أَوْ يُرْفَعُوا^(١)
 أَوْ تَسْأَلُوا الْقَلْبَ يُقَلِّ حَازِرُوا • وَصَابِرُوا أَعْدَاءَكُمْ تُفْلِحُوا
 إِنِّي أَرَى قَيْدًا فَلَا تُسَلِّمُوا أَيْدِيَكُمْ فَالْقَيْدُ لَا يَسْجَحُ^(٢)
 إِنْ هِيَ أَوْهَ مِنْ حَرِيرٍ لَكُمْ فَهُوَ عَلَّ لَيْنٍ بِهِ أَفْذَحُ
 حَتَّامٌ - وَالصَّبْرُ لَهُ غَايَةٌ - لَغَيْرِنَا مِنْ بَثْرِنَا نَمْنَحُ؟
 حَتَّامٌ - وَالْأَمْوَالُ مَشْفُوهَةٌ -^(٣) نَمْنَحُ إِلَّا (بِصْرًا) مَا نَمْنَحُ؟
 حَتَّامٌ يُمِضِي أَمْرَنَا غَيْرِنَا وَذَاكَ بِالْأَحْرَارِ لَا يَلْمَحُ؟

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام:

أَسَاءَ بَعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِهِمْ ظَنَّا وَقَدْ أَمْسَوْا وَقَدْ أَصْبَحُوا
 فَانْتَهَزَتْ أَعْدَاؤُنَا نَهْرَةً فِينَا وَمَا كَانَتْ لَهُمْ تَسْنَحُ
 فَالرَّأْيُ كُلُّ الرَّأْيِ أَنْ تُجْمِعُوا فَإِنَّمَا إِجْمَاعُكُمْ أَرْجَحُ
 وَكُلُّ مَنْ يَطْمَعُ فِي صَدْعِكُمْ فَإِنَّهُ فِي صَخْرَةٍ يَنْطَحُ
 أَخْشَى إِذَا اسْتَمَثَرْتُمْ بَيْنَكُمْ مِنْ قَادَةِ الْآرَاءِ أَنْ تُفْضَحُوا
 فَلْتَقْصِدُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ فِيهِمْ فَإِنَّمَا فِي الْقَلَّةِ الْمَنْجَحُ

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال في التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعته في الحرب التي شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسي الجرحى، وترعى حقهم قال:

لَا تَلَمْ كَيْفَ إِذَا السَّيْفُ نَبَاً^(٤) صَحَّ مِنْي الْعِزُّمُ وَالْدَهْرُ أَبِي
 رَبِّ سَاعٍ مُبْصِرٍ فِي سَعِيهِ أَخْطَأُ التَّوْفِيقَ فِيهَا طَلِبَا
 مَرْحَبًا بِالْخَطْبِ يَلُونِي إِذَا كَانَتْ الْعُلْيَاءُ فِيهِ السَّبِيَا

(١) يريد تأييد المواطنين من النفي إلى (رفع) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفي للأحرار.

(٢) يلين ويسهل.

(٣) أي مستنفدة مضجرة.

(٤) نبا السيف: كل وارتد.

إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقك إلا خلباً^(١)

إلى أن قال:

كنتُ أهوى في زمانى غادةً
حملتُ لى ذات يوم نبأ
وأنت تخطر والليل فتى
ثم قالت لى بشعر باسم
نبأونى برحيل عاجلٍ
ودعانى موطنى أن أغتدى^(٢)
نذبح الدبَّ^(٤) ونفرى جلده
وهبَ الله لها ما وهبها
لارعاك الله ياذاك النبأ
وهلال الأفق فى الأفق حباً
نظم الدرُّ به والحبيبا
لا أرى لى بعده مُنْقَلِباً^(٣)
علنى أقضى له ما وهبها
أظنّ الدبُّ أن لا يغلبا؟

قلتُ والآلام تغرى مهجتي
ما عهدناها لظبيٍ مسرحا
ليست الحرب نفوساً تشتري
أحسبتِ القدَّ من عُدتها
فدعيها للذى يعرفها
ويك! ماتصنُع فى الحرب الظبأ؟
يبتغى ملهى به أو ملعبا
بالتنى أو عقولا تُستبى
أم ظننت اللحظ فيها كالشبا^(٥)
والزمنى ياظبية البان الحبا^(٦)

فأجابتنى بصوتٍ راعنى
إن قومى استعذبوا وردَّ الردى
أنا يا بانية لا أنسى
أنا إن لم أحسن الرمى ولم
أخدم الجرحى وأقضى حقهم
هكذا (الميكاد) قد علّمننا
وأرتنى الظبى ليثاً أغلبا
كيف تدعونى ألا أشرباً؟
عن مرادى أو أذوق العطبأ
تستطع كفاى تغليب الظبأ
وأواسى فى الوغى من نُكبا
أن نرى الأوطان أما وأبا

(١) الرق الخلب الذى ينتظر الناس مطره ويخلفهم.

(٢) المنقلب: العودة.

(٣) أغتدى، أى أبادر مبكرة للدفاع عنه.

(٤) الدب: رمز لروسيا.

(٥) الشبا: جمع شبابة وهى حد السيف.

(٦) البان: شجر لين تألفه الظبأ، والخبا: البيت.

ملكٌ يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهزَّ المغرباً
بعث الأمة من مرقدِها ودعا للعلا أن تَدأباً
فَسَمَتَ للمجد تبغى شأوه وقضت من كل شيء مأرباً

يَسْتَنهضُ الهمم، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين:

ويدُّ الإله مع الجماعة فاضربوا بعضا الجماعة تَظْفَرُوا بنجاح
كونوا رجالاً عاملين وكذبوا -والصبحُ أبلغُ- حامل المصباح^(١)
ودعوا التخاذل في الأمور فإنما شَبَّحُ التخاذل أنكرُ الأشباح
والله ما بلغ الشقاء بنا المدى بسوى خلافٍ بيننا وتلاحي^(٢)

* * *

قُم يا ابنَ مصر فأنت حرٌّ واستعد مجد الجدد ولا تُعَدِّلمِراح^(٣)
شمر وكافح في الحياة فهذه دُنْيَاكَ دارُ تناحر وكفاح
وإذا ألح عليك خطبٌ لا تَهَن واضرب على الإلحاح بالإلحاح
وخُض الحياة وإن تلاطم موجهاً خوض البحار رياضةُ السباح
في البحر لا تثنيك نارُ بوارجٍ في البر لا يلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربي كيف سَمَتَ به بين الشعوب طبيعة الكدَّاح

إلى أن قال:

وابنُ الكنانة في الكنانة راكدٌ يَرْنُو بعين غير ذات طماح
لا يستغل كما علمت ذكاءه وذكاؤه كالخاطف اللُّمَّاح
فانهض ودع شكوى الزمان ولا تنح في فادح البؤسى مع الأنواع
واربح لمصر برأس مالك عِزَّةً إن الذكاء حُبالة الأرباح
واشرب من الماء القراح مُنعمًا فلكم وردت الماء غير قَرَّاح

(١) الإشارة إلى الفيلسوف ديوجنس الذي كان يحمل في رابطة النهار مصباحاً يبحث عن رجل.

(٢) التلاحي: التخاصم.

(٣) يريد بمِراح: الأخذ بأسباب المرح واللهو.

يحذر سعدا من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له في تهنته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذ ذاك معتزماً السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية في القضية الوطنية:

لا تقرب (التاميز) واحذر ماء	مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفي مائه	والختل ^(١) فيه مُدَوَّب مصقول
كم وارد يا (سعد) قبلك مباءه	قد عاد منه وفي الفؤاد غليل ^(٢)
القوم قد ملكوا عَنانَ زمانهم	ولهم روايات به وفصول
ولهم أحاييل ^(٣) إذا ألقوا بها	قنصوا التَّهى أسيرهم مخبول
ولكل لفظ في المعاجم عندهم	معنى يقال بأنه معقول
نصَلت ^(٤) سياستهم وحال صباغها	ولكل كاذبة الخضاير نُصول
جمعوا عقاقير الدواء وركبوا	ما ركبوه وعندك التحليل

حافظ والإنجليز وجهها لوجه

في سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية في إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد في هذه المحنة، مع أنهم مدبروها، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيتهم وعدوانهم، وكشف فيها الستار عن حيادهم الكاذب، وطعن على سياسة الاستعمار عامة، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التي نظمها في تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال في عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

قال في مارس سنة ١٩٣٢ مخاطباً الإنجليز مندداً بسياسة «الحياد» التي أعلنوها، ناعياً عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة:

بَنَيْتُمْ عَلَى الْأَخْلَاقِ آسَاسَ مُلْكِكُمْ	فَكَانَ لَكُمْ بَيْنَ الشُّعُوبِ ذِمَامٌ ^(٥)
فَمَالِيَ أَرَى الْأَخْلَاقَ قَدْ شَابَ قَرْنُهَا ^(٦)	وَحَلَّ بِهَا ضَعْفٌ وَدَبَّ سِقَامٌ

(١) الختل: الخداع والمكر.

(٢) الغليل: شدة العطش.

(٣) الأحاييل: المصايد.

(٤) نصلت: انكشفت وخرجت من لونها الكاذب إلى لونها الحقيقي. وحال: تحول.

(٥) الذمام هنا الحق والحرمة.

(٦) القرن: النواية من الشعر.

أخاف عليكم عَثْرَةً بعد نهضة
أَضَعْتُمْ ودَادًا لو رَعَيْتُمْ عهوده
أبعد «حيادٍ» لا راعى الله عهدَه
إذا كان في حسن التفاهم مَوْتُنا

وقال في هذا المعنى:

لا تَذْكُرُوا الأخلاقَ بعد «حيادكم»
حاربتمو أخلاقكم لِتَحَارِبُوا

وقال عن (الحياد الكاذب):

قَصَرَ الدُّبَارَةَ قد نقض
أَخْفَيْتَ ما أضرَّتَه
الحَرْبُ أروْحُ للنفو
ت العهدَ نَقَضَ الغاصب
وأبْنَتَ ودَ الصاحب
س من «الحياد» الكاذب

وقالَ مخاطِبًا السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى وقتئذ، مندداً بحياد الإنجليز المصطنع:

ألم تَرَ فى الطريق إلى «كياد»^(١)
ألم تلمح دموعَ الناس تجرى
ألم تخبر بنى «التاميز» عنا
بأننا قد لمسنا الغدر لَمْسًا
كشفنا عن نواياكم فلستم
سنجمع أمرنا فتزول منا
ونأخذ حقنا رغم العوادي
ضربتم حَوْلَ قادتينا نطاقًا
تصيد البَطَّ بؤس العالمينا؟
من البلوى - ألم تسمع أنينا؟
وقد بعثوك مندوبًا أمينًا؟
وأصبح ظننا فيكم يقينا
وقد برح الخفاء محايدينا
لدى الجلى^(٢) كرامًا صابرينا
تُطيفَ عَنا ورغم القاسطينا^(٣)
من النيران يُعْىى الدَّارَ عينا

(١) الناعرات: الداميات.

(٢) بركة مركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامى البريطانى يذهب إليها لصيد الطيور.

(٣) الجلى: النازلة الشديدة.

(٤) القاسطون: الظالمون.

عل رغم المروءة قد ظفرتم
فهل يجديكم الأسطول نفعا
ولكن بالأسود مصقديننا
إذا ما نازل الحق المبينا؟
وقال في هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢):

(إلى المحايدين)

أُحَايِدُ أَمْ حَائِدُ	عن منهج الحق المبين؟
نَازَلْتُ شَعْبًا أَعَزَلَا	بِدَرَعَيْنِ مَدَجَجَيْنِ
وَأَمَنْتَ عَقِبَى الظَّالِمِينَ	وَبَشَّ عَقِبَى الظَّالِمِينَ!
مَهْمَا تُصَبُّ مِنَّا فِلَسَ	سَنَا الْجَازَعِينَ الْيَائِسِينَ
إِنَّا بِجَبَارِ السَّمَاءِ	وَبِالْعَقِيدَةِ نُسْتَعِينُ
إِنَ الْعَقِيدَةِ لَا تَزَلُ	زَلْهَا حَرَابُ الْغَاصِبِينَ
فَلْتَنِ مَلَكْتُمْ يَوْمَكُمْ	لَعْدُ لَرَبِّ الْعَالَمِينَ
أَأْمَنْتُمْ صَرْفَ الزَّمِ	سَانِ وَفَتْكَهَ بِالْفَاشِمِينَ؟

كَمْ مِنْ قَوًى هَذِهِ	كَيْدُ الضَّعِيفِ الْمُسْتَكِينِ
أَوْ لَمْ تَرَوْا مَا ذَاقَهُ	بِالْأَمْسِ ذِيَاكَ السَّجِينِ ^(١) ؟
فِي (سَنْتِ هِيلِينَ) قَضَى	مِنْ دَوَّخِ الدُّنْيَا سَنِينَ
مَنْ كَانَ فِي غَارَاتِهِ	فِي الْكُونِ مَنْقَطَعُ الْقَرِينِ
أَمْسَى أَلَانَتْهُ الْخُطُوبُ	وَكُنْ صُلْبًا لَا يَلِينُ
أَوْ تَتَّقُونَ مَصِيرَهُ	أَمْ لَسْتُمْ بِالْمُتَّقِينَ؟

ضُفْنَا بِكَيْدِ مُحَايِدِ	سَنَ لَنَا وَكَيْدِ مُبْشِرِينَ
ثَارُوا عَلَى دِينِ الْهُدَى	وَتَخَطَّفُوا مِنَّا الْبَنِينَ
دَاسُوا الْعَرِينَ وَقَدْ خَلَا	مِنْ أَسَدِهِ ذَاكَ الْعَرِينَ

(١) نابليون، وقد مات أسيرا سجيناً في جزيرة سنت هيلين.

خسر المبشر، إنَّ دين
الله حاميه وكافيه
الحق دين المسلمين
شُرور المعتدين

نحن والإنجليز وجهها لوجه

وقال أيضًا:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا
سفكت مودتنا لكم وبدالنا
إن المراحل شرُّها لا يُتقى
لم يبقَ فينا من يئى نفسه
أمن السياسة والمروءة أننا
إنَّا جمعنا للجهاد صفوفنا
تجرى وهل بعد الدماء سلام؟
أن الحياد على الخصام لثام
حتى ينفس كربهنَّ صمام
بودادكم فردادكم أحلام
نَشقى بكم في أرضنا ونُضام؟
سنموت أو نحى ونحن كرام

وقال في أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز)، وهى من أبلغ ما قيل فى تحدى القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت:

حَوِّلُوا النِّيلَ واحجِّبوا الضَّوءَ عنا
واملأوا البحر إن أردتم سفينًا
وأقيموا للعسف فى كلِّ شبرٍ
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ
واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملأوا الجو إن أردتم رُجوما
(كونستبلا) بالسوط يَفْرِى الأديما^(١)
أو ترونا فى التراب عظمًا رميما

* * *

عاصفُ صانِ مُلككم وحماكم
غال (أرمادة)^(٢) العدو ففزتم
فعدلتم هنيهةً، وبَغَيْتُم
فشهدنا ظلمًا يقال له العد
فاتَّقوا غضبةَ العواصفِ إني
وكفاكم بالأمس خطبًا جسيما
وبلغتم فى الشرق شأوا عظيمًا
وتركتُم فى النيل عهدًا ذميما
لُ وودًا يسقى الحميم الحميما^(٣)
قد رأيت المصير أمسى وخيما

(١) يفرى الأديم أن يشق الجلد.

(٢) الأرمادة هى الأسطول الأسباني الذى تحطم فى القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزى الذى كان دونه قوة وعددا.

(٣) الحميم الأول الصديق، والحميم الثانى الشراب الشديد الحرارة.

وقال أيضًا (أبريل سنة ١٩٣٢):

لقد طال الحياءُ ولم تكفوا	أما أرضاكم ثمنُ الحياءِ؟
أخذتم كل ما تبغون منا	فما هذا التحكُّم في العباد؟
بلونا سدةً منكم ولينا	فكان كلاهما ذرَّ الرَّماد
وسألتم وعاديتم زمانا	فلم يُغنِ المُسالم والمعادى
فليس وراءكم غير التَّجنى	وليس أماننا غير الجهاد

وعود الانجليز في الجلاء

وقال في سنة ١٩٣٢ يندد بكاتب فرنسي زعم أن جلاء الإنجليز سيكون في أكتوبر من ذلك العام:

كم حددوا يوم الجلاء الذى	أصبح في الإيهام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهم	كذبة (إبريل لأكتوبر)

حافظ وصدقى باشا

وقال في سنة ١٩٣٢ يندد بسياسة صدقى باشا رئيس الوزارة وقتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلا النزر اليسير:

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعام	وابنُ الكنانة في حماء يضام
صَبُّوا البلاءَ على العباد فنصفهم	يجبى البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ماجتى	(صدقى) الوزير وماجبى (علام) ^(١)

ومنها في مخاطبة صدقى باشا:

ودعا عليك الله في محرابه	الشيخُ والقسيس والحاخام
لا هم أحمر ضميره ليذوقها	غصصًا وتنسف نفسه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال في حرب طرابلس (سنة ١٩١١ - ١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتكافح الاستعمار، ويمجد التضحية في سبيل الحرية:

(١) محمد علام باشا، وكيل حزب اشعب الذى ألفه صدقى باشا. يشير إلى ما كانوا يجيئون به من الأموال إعانة لحزب الشعب.

طَمَعُ أَلْقَى عَنِ الْغَرْبِ اللَّثَامَا
وَاحْمِلِي آيَتَهَا الشَّمْسُ إِلَى
وَاشْهَدِي يَوْمَ التَّنَادِي^(١) أَنَّنَا
مَادَتِ الْأَرْضُ بِنَا حِينَ انْتَشَتْ
عَجَزَ الظُّلْيَانُ عَنِ أَبْطَالِنَا
كَبَلُوهُمْ، قَتَلُوهُمْ، مَثَلُوا
ذَبَحُوا الْأَشْيَاخَ وَالزَّمَنِي^(٢)، وَلَمْ
أَحْرِقُوا الدُّورَ، اسْتَحْلُوا كُلَّ مَا
بَارَكَ الْمَطْرَانُ فِي أَعْمَالِهِمْ
أَبْهَذَا جَاءَهُمْ أَنْجِيلُهُمْ
كَشَفُوا عَنِ نِيَّةِ الْغَرْبِ لَنَا
فَقَرَأْنَاهَا سَطُورًا مِنْ دَمٍ

وختم قصيدته بقوله:

فَاطْنِي أُمَمَ الشَّرْقِ وَلَا
إِنَّ فِي أَضْلَاعِنَا أَقْنَدَةً

فَاسْتَفِقْ يَا شَرْقُ وَاحْذَرُ أَنْ تَنَامَا!
كُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فِي الشَّرْقِ السَّلَامَا
فِي سَبِيلِ الْحَقِّ قَدْ مِتْنَا كِرَامَا
مِنْ دَمِ الْقَتْلِ حَلَالًا وَحَرَامَا
فَأَعْلُوا^(٣) مَنْ دَرَارِينَا الْحُسَامَا
بَذَوَاتِ الْخِذْرِ، طَاحُوا بِالْيَتَامِي
يَرْحَمُوا طُفْلًا، وَلَمْ يُبْقُوا غُلَامَا
حَرَمْتَ (لَاهَائِي) فِي الْعَهْدِ احْتِرَامَا
فَسَلُوهُ: بَارِكِ الْقَوْمَ عِلَامَا؟
أَمْرًا يُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ سِلَامَا؟
وَجَلُّوا عَنْ أَفْقِ الشَّرْقِ الظَّلَامَا
أَقْسَمْتُ تَلْتَهُمُ الشَّرْقُ التَّهَامَا

تَقْنَطِي الْيَوْمَ فَإِنَّ الْجَدَّ قَامَا
تَعَشَّقُ الْمَجْدَ، وَتَأْبِي أَنْ تُضَامَا

تمجيده للشورى

قال في عمريته المشهورة التي أنشأها في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

يَا رَافِعًا رَايَةَ الشُّورَى وَحَارِسَهَا
لَمْ يُلْهَكِ النَّزْعُ عَنْ تَأْيِيدِ دَوْلَتِهَا^(٤)
لَمْ أَنْسَ أَمْرَكَ لِلْمِقْدَادِ يَحْمِلُهُ
إِنْ ظَلَّ بَعْدَ ثَلَاثٍ^(٥) رَأْيُهَا شُعْبَا
فَاعْجَبْ لِقُوَّةِ نَفْسٍ لَيْسَ يَصْرِفُهَا

(٤) دولتها، أى دولة الشورى.

(٥) بعد ثلاث، أى بعد ثلاث ليال. والهوادي: الأعناق.

(١) يوم القيامة.

(٢) أعلوا أى سقوا.

(٣) الزمنى: ذور العاهات.

دَرَى عَمِيدُ بَنَى الشُّورَى بِمَوْضِعِهَا فَعَاشَ مَا عَاشَ يَبْنِيهَا وَيُعْلِيهَا
وَمَا اسْبَدَّ بَرَأْيُ فِي حُكُومَتِهِ إِنَّ الْحُكُومَةَ تُقَرَى مُسْتَبْدِيهَا
رَأَى الْجَمَاعَةَ لَا تَشْقَى الْبِلَادُ بِهِ رَغِمَ الْخِلَافُ وَرَأَى الْفَرْدُ يُشْقِيهَا

الاستمرار في الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار في الكفاح:

إِنَّا سَنَعْمَلُ لِلْخِلَاصِ وَلَا نَبْنِي وَاللَّهُ يَقْضِي بَيْنَنَا وَيُبدِّلُ^(١)
كَمْ دَوْلَةٍ شَهِدَ الصَّبَاحُ جَلَالَهَا وَأَتَى عَلَيْهَا اللَّيْلُ وَهِيَ قُلُولُ
وَقُصُورِ قَوْمٍ زَاهِرَاتٍ فِي الدُّجَى طَلَعَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَهِيَ طُلُولُ

يَأْيُهَا النَّشْءُ الْكَرَامُ تَحْيِيَّةً كَالرُّوضِ قَدْ خَطَرَتْ عَلَيْهِ قَبُولُ^(٢)
يَا زَهَرَ مَصْرَ وَزَيْنَهَا وَمُحَامَتَهَا مَدْحَى لَكُمْ بَعْدَ الرَّئِيسِ^(٣) فُضُولُ
جُدْتُمْ لَهَا بِالنَّفْسِ فِي وَرْدِ الصَّبَا وَالْوَرْدُ لَمْ يُنْظَرْ إِلَيْهِ ذُبُولُ
كَمْ مِنْ سَجِينٍ دُونَهَا وَبَجَاهِدٍ دُمُهُ عَلَى عَرَصَاتِهَا مَطُولُ
سَيَرُوا عَلَى سَنَنِ الرَّئِيسِ وَحَقَّقُوا أَمَلِ الْبِلَادِ فَكُلُّكُمْ مَأْمُولُ
أَنْتُمْ رَجَالٌ غَدٍ وَقَدْ أَوْفَى غَدُ فَاسْتَقْبِلُوهُ وَحَاجِلُوهُ وَطُولُوا^(٤)

تقريره للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقرير أحياناً. وله سنة ١٩٠٤ قصيدة يعنى فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية ثار لها الرأى العام بغير موجب، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكرمة السيد عبد الخالق السادات، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة في النسب، وانحاز الرأى العام إلى جانب المدعى، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف في الهيئة الاجتماعية، قال حافظ:

(١) يدل، أى يعمل الدولة لنا عليهم.

(٢) القبول: ربح الصبا.

(٣) يقصد هنا سعد زغلول.

(٤) حجلوة، أى اجعلوه يوماً أبيض، وطولوا أى افخروا واعتزوا.

حَطَمْتُ الْيِرَاعَ فَلَا تَعْجَبِي
فَمَا أَنْتِ يَا مِصْرَ دَارِ الْأَدِيبِ
وَكَمْ فِيكَ يَا مِصْرَ مِنْ كَاتِبٍ
فَلَا تَعْذِلِينِي هَذَا السُّكُوتُ
أَيَعْجُبُنِي مِنْكَ يَوْمَ (الْوَفَاقِ)^(١)
وَكَمْ غَضَبَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِنَا

وَعَفْتُ الْبَيَانَ فَلَا تَعْتَبِي
وَلَا أَنْتِ بِالْبِلْدِ الطَّيِّبِ
أَقَالَ الْيِرَاعَ وَلَمْ يَكْتُبِ
فَقَدْ ضَاقَ مِنْكَ مَا ضَاقَ بِي
سَكُوتَ الْجَمَادِ وَلِعَبُ الصَّبِيِّ؟
لَسَلْبِ الْحَقُوقِ وَلَمْ تَغْضَبِ

* * *

أَنَابَتَ الْعَصْرَ إِنَّ الْغَرِيبَ
يَقُولُونَ: فِي النَّشْءِ خَيْرٌ لَنَا
أَنْفَى (الْأَزْبَكِيَّة) مَثَوَى الْبَنِينَ
(وَكَمْ ذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ)
أُمُورٌ تَمُرُّ وَعَيْشٌ يَمُرُّ^(٣)
وَشَعْبٌ يَفِرُّ مِنَ الصَّالِحَاتِ
وَصُحُفٌ تَطْنُ طَنِينَ الذُّبَابِ
وَهَذَا يَلُودُ بِقِصْرِ الْأَمِيرِ
وَهَذَا يَلُودُ بِقِصْرِ السَّفِيرِ
وَهَذَا يَصِيحُ مَعَ الصَّائِحِينَ

مُجِدُّ بِمِصْرَ فَلَا تَلْعَبِي
وَلِنَشْءٍ شَرٌّ مِنَ الْأَجْنَبِي
وَبَيْنَ الْمَسَاجِدِ مَثَوَى الْأَبِ؟
كَمَا قَالَ فِيهَا (أَبُو الطَّيِّبِ)^(٢)
وَنَحْنُ مِنَ اللَّهِوَ فِي مَلْعَبٍ
فِرَارَ السَّلِيمِ مِنَ الْأَجْرِبِ
وَأُخْرَى تَشْنُ عَلَى الْأَقْرَبِ
وَيَدْعُو إِلَى ظِلِّهِ الْأَرْحَبِ
وَيُطْنِبُ فِي وَرْدِهِ الْأَعْذَبِ
عَلَى غَيْرِ قَصِيدٍ وَلَا مَأْرَبِ

* * *

وَقَالُوا: (الْمُؤَيَّدُ) فِي غَمْرَةٍ
دَعَاهُ الْغَرَامُ بِسَنِّ الْكَهُولِ
فَضَجَّ لَهَا الْعَرْشُ وَالْحَامِلُوهُ
وَنَادَى رِجَالُ بِلَاسِقَاتِهِ

رَمَاهُ بِهَا الطَّمْعُ الْأَشْعَبِي
فَجَنَّ جُنُونًا بِبَنْتِ النَّبِيِّ
وَضَجَّ لَهَا الْقَبْرِ فِي (يَثْرِبِ)^(٤)
وَقَالُوا: تَلَوْنُ فِي الْمَشْرَبِ

(١) يقصد الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ ومقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطاني لمصر.

(٢) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي: (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا).

(٣) عيش يمر، أي يصير مرأ.

(٤) اسم قديم للمدينة المنورة.

وَعَدُّوا عَلَيْهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ أَلَوْفًا تَدُورُ مَعَ الْأَخْقَبِ
وَقَالُوا لَصِيقُ بَيْتِ الرَّسُولِ أَغَارَ عَلَى النَّسَبِ الْأَنْجَبِ
وَزَكَّى (أَبُو خَطُوةٍ) قَوْلَهُمْ بِحُكْمٍ أَحَدٌ مِنَ الْمَضْرَبِ
فَمَا لِلتَّهَانِ عَلَى دَارِهِ تَسَاقَطُ كَالطَّرِ الصَّيْبِ؟
وَمَا لِلوَفُودِ عَلَى بَابِهِ تَرْفُ الْبَشَائِرُ فِي مَوَكِبِ؟
وَمَا لِلخَلِيفَةِ أَسَدَى إِلَيْهِ وَسَامًا يَلِيقُ بِصَدْرِ الْأَبِيِّ؟

* * *

فِي أُمَّةٍ ضَاقَ عَنْ وَصْفِهَا جَنَانُ الْمَفْوَةِ وَالْأَخْطَبِ
تَضِيعُ الْحَقِيقَةُ مَا بَيْنَنَا وَيَصْلَى الْبَرَىءُ مَعَ الْمَذْنَبِ؟
وَيُهْضَمُ فِينَا الْإِمَامُ الْحَكِيمُ وَيُكْرَمُ فِينَا الْجَهْلُولُ الْغَبِيُّ

* * *

عَلَى الشَّرْقِ مَنَى سَلَامُ الْوَدُودِ وَإِنْ طَاطَأَ الشَّرْقُ لِلْمَغْرِبِ
لَقَدْ كَانَ خِصْبًا يَجْدِبُ الزَّمَانَ فَأَجْدَبَ فِي الزَّمَنِ الْمُخْصِبِ

شعره الاجتماعي

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقي، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية، وعانى ما تعانيه من الألم والحرمان، فصار أدق تصويرا لأحوالها وآلامها، وفي ذلك يقول بحق عن نفسه في قصيدته التي أنشدتها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ في حفلة جمعية رعاية الأطفال:

لَمْ أَقِفْ مَوْقِفِي لِأَنْشِدَ شِعْرًا صَبَّ فِي قَالِبِي بِسَدِيعِ النَّظَامِ
إِنَّمَا قَمْتُ فِيهِ وَالنَّفْسُ تَشْوَى مِنْ كَوْسِ الْهَمُومِ وَالْقَلْبُ دَامَى
فَلِهَذَا وَقَفْتُ أَسْتَعِظُفُ النَّأَى سَ عَلَى الْبَائِسِينَ فِي كُلِّ عَامِ
ذُقْتُ طَعْمَ الْأَسَى وَكَابَدْتُ عَيْشًا دُونَ شُرْبِي قَذَاهُ شَرِبُ الْحِمَامِ^(١)
فَتَقَلَّبْتُ فِي الشَّقَاءِ زَمَانًا وَتَنَقَّلْتُ فِي الْخُطُوبِ الْجِسَامِ
وَمَشَى الْهَمُّ ثَاقِبًا فِي فُؤَادِي وَمَشَى الْحُزْنُ نَاحِرًا فِي عِظَامِي

(١) الحمام الموت.

عطفه على منكوبي حريق ميت غمر

في سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع في مدينة ميت غمر، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام، فدمرت كثيراً من دورها ومات في الحريق كثيرون؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير في إعانة المنكوبين وإسعافهم، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم، وفي ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة في وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها. قال:

سائلوا الليل عنهم والنهارا	كيف باتت نساؤهم والعذارى؟
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ	م وكيف اصطلى مع القوم نارا؟
كيف طاح العجوز تحت جدار	يتداعى وأسقف تتجارى؟
رب إن القضاء أنحي عليهم	فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها	ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى	هذه النار فهي تشكو الأوارا ^(١)
أشعلت فحمة الدجاجي فباتت	تلا الأرض والسما شارا
غشيتهم والنحس يجرى يمينا	ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض	ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم قلما استقلت	لم تغادر صفارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار غراة	حذر الموت يطلبون الفارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما	أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحد	ر ولا عنهم ترد الغبارا
أيها الرافلون في حلل الوشد	سى ^(٢) يجرن للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوما جاعا	يتوارون ذلة وانكسارا
أيها السجين ^(٣) لا يمنع السج	ن كريما من يقل العثارا
مر يالف لهم وإن شئت زدها	وأجرهم كما أجرت النصارى

(١) الأوار: شدة الحرارة والعطش.

(٢) حلل الوشى الثياب المزركشة.

(٣) يقصد أحمد المنشاوى باشا المحسن وصاحب المبرات المعروفة.

قد شَهِدْنَا بِالْأَمْسِ فِي مِصْرَ عُرْسًا^(١) مَلَأَ الْعَيْنَ وَالْفُؤَادَ ابْتِهَارًا
سَأَلَ فِيهِ لِلنُّضَارِ حَتَّى حَسِبْنَا أَنْ ذَاكَ الْفِنَاءَ يَجْرَى نُضَارًا
بَاتَ فِيهِ الْمُتَنَعِّمُونَ بِلَيْلٍ أَخْجَلَ الصُّبْحَ حُسْنُهُ فَتَوَارَى
يَكْتَسُونَ السَّرُورَ طَوْرًا وَطَوْرًا فِي يَدِ الْكَأْسِ يَخْلَعُونَ الْوَقَارَا
وَسَمِعْنَا فِي (مِيتَ عَمْرٍ) صِيحًا مَلَأَ الْبِرَّ ضَجَّةً وَالْبَحَارَا

* * *

جَلَّ مِنْ قَسَمِ الْحُظُوظِ، فَهَذَا يَتَفَنَّى وَذَاكَ يَبْكِي الدِّيَارَا
رُبَّ لَيْلٍ فِي الدَّهْرِ قَدْ ضَمَّ نَحْسًا وَسُعُودًا وَعُسْرَةً وَيَسَارَا!

الجامعة في سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له في سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية.

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا إِنْ تَنْشُرُوا الْعِلْمَ يَنْشُرْ فِيكُمْ الْعَرَبَا^(٢)
ولا حياة لكم إلا بجامعة تَكُونُ أُمَّا لَطُلَّابِ الْعِلْمِ وَأُمَّا
تَبْنِي الرِّجَالَ وَتَبْنِي كُلَّ شَاهِقَةٍ مِنْ الْمَعَالِي وَتَبْنِي الْعِزَّ وَالْغَلْبَا
ضَعُوا الْقُلُوبَ أَسَاسًا. لَا أَقُولُ لَكُمْ ضَعُوا النُّضَارَ فَإِنِّي أَصْفِرُ الذُّهْبَا
وابنوا بأكبادكم سورًا لها ودعوا قِيلَ الْعَدُوِّ فَإِنِّي أَغْرِفُ السَّبْبَا^(٣)
لا تقنطوا إِنْ قَرَأْتُمْ مَا يَرْوِقُهُ ذَاكَ الْعَمِيدُ وَيَرْمِيكُمْ بِهِ غَضْبَا^(٤)
وراقبوا يومَ لَا تُغْنِي حَصَائِدُهُ فَكُلُّ حَتَّى سُبُجْزَى بِالَّذِي اكْتَسَبَا^(٥)
بَنَى عَلَى الْإِفْكَ أَبْرَاجًا مُشِيدَةً فَابْنُوا عَلَى الْحَقِّ بُرْجًا يَنْطَحُ الشُّهْبَا
وجابوه بفعلٍ لَا يُقْوِضُهُ قَوْلُ الْمَفْنَدِ أَنِّي قَالُ أَوْ خَطْبَا
لَا تَهْجَعُوا إِنْهُمْ لَنْ يَهْجَعُوا أَبَدًا وَطَالِبُوهُمْ وَلَكِنْ أَجْمَلُوا الطَّلْبَا
وختمها بقوله:

إِنْ تُقْرَضُوا اللَّهُ فِي أَوْطَانِكُمْ فَلَكُمْ أَجْرُ الْمُجَاهِدِ طُوبَى لِلَّذِي اكْتَبَا

(١) يقصد عرس زواج (الأمير) حيدر فاضل من كريمة علي فهمي (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات.

(٢) أي يبحث فيكم مجد العرب.

(٣) يشير إلى ما كان يقيمه المعتمد البريطاني من العقبات في سبيل إنشاء الجامعة.

(٤) حصائد أي حصاد الصيد أي ما يقوله لثنى به العزائم عن مشروع الجامعة.

رعاية الأطفال

وألقى في إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية في احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف
بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف في مستشفى الجمعية:

شَبَحَا أرى أم ذاك طَيْفُ خيال؟	لا ، بل فتاة بالعرَاء حِيَالِ
أَمَسْتُ بِمَدْرَجَةِ الخُطُوبِ فَمَا لَهَا	راعٍ هناك وما لها مِنْ والى
حَسْرَى تكاد تُعيدُ فَحْمَةَ لَيْلِهَا	نارا بأَناتِ ذَكِينٍ ^(١) طِوالِ
ما خَطْبُهَا عَجَبًا، وما خطبى بها؟	مالى أشاطرها الوجيعة مالى؟
ذَانِيتُهَا ولصوتها فى مَسْمَعِى	وَقَعَ النَّبالُ عَطْفَنَ إِثْرِ نبالِ
وسألتها: من أنتِ؟ وهى كأنها	رَسَمٌ على طَلَلٍ من الأطلالِ
فَتَمَلَّلْتُ جَزَعًا وقالت: حَامِلٌ	لم تدرِ طعم الغَمَضِ منذ ليالى
قد مات والدُها وماتت أمُّها	ومَضَى الحِمَامُ بِعَمِّها والخالِ

وإلى هنا حبس الحياء لسانها	وَجَرَى البُكاءُ بَدْمَعُها الهَطَّالِ
فَعَلِمْتُ ما تُخْفِى الفتاةُ وإِنَّمَا	يَحْنُو على أمثالها أمثالِ
ووقفتُ أنظرُها كأنى عابِدٌ	فى هَيْكَلٍ يَرْنُو إلى تمثالِ
ورأيت آياتِ الجمالِ تكفَّلْتُ	بزوالهنَّ فوادِحُ الأثقالِ
لاشئ أفعلُ فى النفوسِ كَقَامَةِ	هَبِفاءِ رَوَّعها الأَسَى بهزالِ
أوغادة كانت تُريكِ إذا بَدَتْ	شمسُ النَّهارِ فأصْبَحَتْ كالآلِ ^(٢)

قلت: انهضى قالت: أَيْنَهُضُ مُيَّتٌ	من قبره وَيَسِيرُ شَنْ بَالِ ^(٣)
فحملتُ هَيْكَلِ عَظْمِها وكأَنِّى	حُمِلْتُ حينَ حَمَلْتُ عُوْدَ خَلالِ

(١) ذكين، أى توقدن واشتملن.

(٢) الآلُ السراب.

(٣) الشن. القرية الخلق البالية.

وطِفِقَتْ أَتَتْهَبُ الْخَطَا مُتِيْمًا
أَمْشَى وَأَحْمَلُ بِأَنْسَيْنِ: فَطَارِقُ
أَبْكِيهْمَا وَكَأَنَّمَا أَنَا ثَالِثُ
بِالْلَّيْلِ (دَار رِعَايَةِ الْأَطْفَالِ)
بَاب الْحَيَاةِ وَمُؤَذِّنُ بَزْوَالِ^(١)
لَهُمَا مِنَ الْإِشْفَاقِ وَالْإِعْوَالِ^(٢)

* * *

وَطَرَقْتُ بَابَ الدَّارِ لَا مُتَّهِيَا
طَرَقَ الْمُسَافِرُ أَبَ مِنْ أَسْفَارِهِ
وَإِذَا بِأَصْوَاتٍ تَصِيحُ: أَلَا فَتَحُوا
وَإِذَا بِأَيْدٍ طَاهِرَاتٍ عَوَّدَتْ
جَاءَتْ تُسَابِقُ فِي الْمَبَرَّةِ بَعْضُهَا
فَتَنَاولَتْ بِالرَّفْقِ مَا أَنَا حَامِلُ
وَإِذَا الطَّيِّبُ مُشَمَّرٌ وَإِذَا بِهَا
جَاءُوا بِأَنْوَاعِ الدَّوَاءِ وَطُوفُوا
وَجِئْنَا الطَّيِّبَ يَجْسُ نَبْضًا خَافِتًا
لَمْ يَذَرْ حِينَ دَنَا لَيْلُو^(٣) قَلْبَهَا

أَحَدًا وَلَا مَتَرَقَّبًا لِسُؤَالِ
أَوْ طَرَقَ رَبِّ الدَّارِ غَيْرُ مُبَالِي
دَقَاتُ مَرَضَى مُذْلَجِينَ عَجَالِ
صَنَعَ الْجَمِيلِ تَطَوَّعَتْ فِي الْحَالِ
بَعْضًا لَوَجْهِ اللَّهِ لَالِلِمَالِ
كَالْأَمِّ تَكْلَأُ طِفْلَهَا وَتَوَالِي
فَوْقَ الْوَسَائِدِ فِي مَكَانٍ عَالِي
بَسْرِيرِ ضَيَّقَتْهُمْ كِبَعُضُ الْآلِ
وَيَرُودُ مَكْمَنَ دَائِهَا الْقِتَالِ
دَقَاتُ قَلْبٍ أَمْ دَبِيبُ يَمَالٍ؟

* * *

وَدَعَتْهَا وَتَرَكْتُهَا فِي أَهْلِهَا
وَعَجَزْتُ عَنْ شُكْرِ الَّذِينَ تَجَرَّدُوا
لَمْ يُخْجَلُوهَا بِالسُّؤَالِ عَنْ اسْمِهَا
خَيْرُ الصَّنَائِعِ فِي الْأَنَامِ صَنِيعَةُ
وَإِذَا النَّوَالُ أَقَى وَلَمْ يَهْرَقْ لَهُ
مَنْ جَادَ مِنْ بَعْدِ السُّؤَالِ فَإِنَّهُ

وَخَرَجْتُ مُنْشَرَحًا رَضَى الْبَالِ
لِلْبَاقِيَاتِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
تِلْكَ الْمَرْوَةُ وَالشَّعُورُ الْعَالِي
تَنْبُو بِحَامِلِهَا عَنِ الْإِذْلَالِ
مَاءُ الْوَجْهِ فَذَلِكَ خَيْرُ نَوَالِ
- وَهُوَ الْحَوَادِ - يُعَدُّ فِي الْبُخَالِ

* * *

لِلَّهِ دَرَهُمْ فَكَمْ مِنْ بَائِسٍ
جَمُّ الْوَجِيعَةِ سَيِّئِ الْأَحْوَالِ

(١) طَارِقُ بَابِ الْحَيَاةِ: الْمُتَنَبِّهُ. وَيُرِيدُ بِالْمُؤَذِّنِ بِالزَّوَالِ، أَمَّهُ.

(٢) الْإِعْوَالُ، الْبِكَاءُ.

(٣) يَلِيُوهُ أَيْ يَحْتَبِرُ.

ترمى به الدنيا فمن جوعٍ إلى
عينٍ مُسَهَّدَةٍ وقلبٍ واجفٍ
لم يذر ناظره أعريانا يرى
فكانَّ ناجِلَ جسمه في ثوبه
يا بَرْدُ فاحملْ قد ظفِرتَ بأعزلٍ
يا عَيْنُ سَحَى يا قلوبَ تَقَطَّرى
لولا همُ لَقضى عليه شقاؤه
لولا هم كان الردى وقفًا على

عُرَى إلى سُقْمٍ إلى إقلال
نَفْسٍ مُرَوَّعةٍ وجيبٍ خالى
أم كاسيًّا فى تلكم الأسمال
خلفَ الخروق يُطل من غُرْبال
يا حَرُّ تلك فريسةُ المغتال
يانَفْسُ رَقَى يا مروءةُ والى
وَحْلا المجالِ لحاطفِ الآجال
نفس الفقير ثقيلة الأحمال

* * *

لله دَرُّ الساهرين على الألى
القائمين بخير ما جاءت به
أهل اليتيم وكهفه وحُماته
سهروا من الأوجاع والأوجال^(١)
مدنيّة الأديان والأجيال
وربيع أهل البؤس والإحمال^(٢)

* * *

لا تُهملوا فى الصالحات فإنكم
إنى أرى فقراءكم فى حاجةٍ
فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم
والمحسنون لهم على إحسانهم
وجزاء رب المحسنين يحلُّ عن
لا تجهلون عواقب الإهمال
- لا تعلمون - لقائل فعّال
ميدان سَبَقٍ للجواد النال^(٣)
يوم الإثابة عَشْرَةُ الأمثال
عَدُّ وعن وَزْنٍ وعن مكيال

وقال فى سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء:

دعوة البائس المعذب سُورٌ
وهى حَرْبٌ على البخيل وذى البَغْ
إنَّ هذا الكريم قد صان عِرْضى
يدفع الشرَّ عن حياض الكرام
سى وَسَيْفٌ على رقاب اللُّثام
وحمانى من عاديّات السقام

(١) الأوجال. المخاوف.

(٢) الإحمال. الجذب.

(٣) الجواد. الكريم. والنال. الكثير النائل وهو العطاء.

عال طفلى وعالى وحبانى وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤ
وأقاموا للبر داراً فكانت مُلئت رحمة وفاضت حناناً
بكسائٍ وبدرةٍ وطعام س وقامواً في الله خير القيام
خير ورِدِ يؤمّه كل ظامى فهى للبائسات دار السلام

إلى أن قال في الإحسان والزكاة:

قد نجا المنعم الجواد من المؤ فإطفئنا بها وقد ملأ الأند
وشهدنا ثغر الوفاء تجلى ورأينا شخص المروءة والـ
وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة، قبل الصيام
خصها الله في الكتاب بذكر فهى ركن الأركان في الإسلام
بدأت مبدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خير قوام
لو وفى بالزكاة من جمع الدن يا وأهوى على اقتناء الحطام
ماشكا الجوع مُعِدِّمٌ أو تصدى لركوب الشرور والآثام
راكباً رأسه طريداً شريداً لايبالى بشرعية أذنيام
سائلا عن وصية الله فيه آخذاً قوته بحد الحسام

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ في تحية ملجأ الحرية، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام
والفقراء، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة في النفوس من التطلع إلى المثل
العليا.

أيها الطفل لك البشرى فقد أيها الطفل لك البشرى فقد
قدّر الله حياة حرة وأبى سبحانه أن تُقبرا
لاتحف جوعاً ولا عرياً ولا تبك عيناك إذا خطب عراً^(٢)

(١) نشر: أى نحيا ونبعث.

(٢) عراء: ألم ونزل.

لك عند البرِّ في ملجئه
حيث تلقى فيه حذباً وترى
حيث تأوى خاطِرٌ لن يُكسراً
بين أترابك عيشاً أنضراً

لاتسىءَ ظننا بئرينا فقد
كان بالأمس وأقصى هه
فغدا اليوم يواسى شعبه
نبهت عاطفة البرِّ به
جمعتنا في صعيد واحد
فتعاهدنا على دفع الأذى
وتواصينا بصبر بيننا
أنشرت^(٢) في مصر شعباً صالحاً
كم محبِّ هائمٍ في حبها
وشبابٍ وكهولٍ أقسموا

تاب عن آثامه واستغفرا
- إن أتى عارفة^(١) - أن يظهرأ
وهو لا يرغب في أن يشكرا
محنة عمت ومقدار جرى
وأرادتنا على أن نقهرأ
بركوب الحزم حتى نطفرا
فغدونا قوة لا تُزدرأ
كان قبل اليوم مُنفك العرا
زاد عن أجفانه سرح الكرى
أن يشيدوا مجدها فوق الذرا

يارجال الجدِّ هذا وقته
ملجأ أومصرفاً أومصنعاً
أنا لأعذر منكم من وئى
فابعدوا بالملجأ الحرِّ الذى
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا
أيها المثرى! ألا تكفل من
أنت ما يُدريك لو أنيتته
ربما أطلعت (سعداً) آخرأ
ربما أطلعت منه (عبده)
ربما أطلعت منه شاعراً
ربما أطلعت منه فارساً

آن أن يُعملَ كلُّ ما يرى
أو نقابات لزراع القرى
وهو ذو مقدرة أو قصراً
جئت للأيدى له مستمطراً
أن كلَّ الصيد في جوف الفرا
بات محروماً يتيماً معسراً؟
ربما أطلعت بدرأ نيراً
يُحكِّمُ القول ويرقى المنبرا
من سمى الدَّين وزان (الأزهرأ)
مثل (شوقى) ناهياً بين الورى
يدخل الغيل على أسد الشرى^(٣)

(١) العارفة: العطية والمعروف.

(٢) أنشرت، أى أحييت.

(٣) الغيل: الشجر الكثير اللثف تأوى إليه الأسود، والشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بأسادها المثل.

كم طوى البؤس نفوساً لورعت منبتاً خصباً لكانت جوهراً
كم قضى العدم على موهبة فتوات تحت أطباق الثرى

كلُّ من أحيّا يتيمًا ضائعًا حسبه من ربّه أن يؤجرا
إنما تُحمّد عُقبى أمره من لأخراه بدنيّاهُ اشترى

جمعية إعانة العُميان

وقال في سنة ١٩١٦ في احتفال أقامته جمعية إعانة العُميان:

إن حقّ الضّرير عند ذوى الأب صار حقّ مستوجب التّقديس
لم يضرّه فقدّانه نور عينه به إذا اعتاض عنها بأُنيس
آنسوا نفسه إذا أظلم العي شى يعلم فالعلم أنس النفوس
وجّهوه إلى الفلاح يُفدكم فوق ما يستفيد من دروس
أكملوا نقصه يكن عبقرياً مثل (طه) مُبرّزاً في الطُّروس
كم رأينا من أكمه لا يُجارى وضرير يرجى ليوم عبوس
لم تقف آفة العيون حجازاً بين وثباته وبين الشمس
عديم الحسّ قائداً فحداه هدئ وجدانه إلى المحسوس
مثل هذا إذا تعلم أغنى عن كثير وجاءنا بالنفيس
ذاك أن الذكاء والحفظ حلاً في جوار النّهى بتلك الرؤوس
فعلى كلّ أكمه وبصير شكر أعضائكم وشكر الرئيس

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر، قصيدته - مصر تتحدث عن نفسها -:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلا ق فالعلم وحده ليس يجدى

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ١٢٦) في الحث على إعانة مدرسة للبنات ببورسعيد:

كم ذا يكابدُ عاشقٌ ويلاتى فى حُبِّ مضرٍ كثيرة العُشاق
إنّى لأحِلُّ فى هواك صَبَابَةً يامِصرُ قد خرَجْتَ عن الأطواق

هَفَى عَلَيْكَ مَتَى أَرَاكَ طَلِيقَةً
كَيفَ بِمَحْمُودِ الْخِلَالِ مُتَيِّمٌ
إِنِّي لَتَطْرُبُنِي الْخِلَالُ كَرِيمَةً
وَتَهْزُنِي ذِكْرِي المَرْوَةِ وَالنَّدَى
يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكَ شَعْبٌ رَاقِي
بِالْبَذْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَالْإِنْفَاقِ
طَرَبَ الْغَرِيبِ بِأَوْبَةٍ وَتِلَافِي
بَيْنَ الشَّمَائِلِ هِزَّةَ الْمُشْتَاقِ

* * *

فَإِذَا رَزَقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً
فَالنَّاسَ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا
وَالْمَالُ إِنَّمَا لَمْ تَدْخِرْهُ مُحَصَّنًا
وَالْعِلْمُ إِنَّمَا لَمْ تَكْتَفِهِ شَمَائِلُ
لَا تَحْسِبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ
فَقَدْ اصْطَفَاكَ مَقْسَمُ الْأَرْزَاقِ
عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
بِالْعِلْمِ كَانَ نِهَايَةَ الْإِمْلَاقِ^(١)
تُعْلِيهِ كَانَ مَطْيَّةَ الْإِخْفَاقِ
مَا لَمْ يُتَوَجَّ رَبُّهُ بِخِلَاقِ^(٢)

فضل المرأة على المجتمع

وقال في هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة في المجتمع:

من لى بتربية النساء؟ فإنها
الأم مدرّسة إذا أعدتها
الأم رَوْضٌ إِنْ تَعَهَّدَهُ الْحَيَا^(٤)
الأم أستاذ الأساتذة الألى
فِي الشَّرْقِ. عِلَّةُ ذَلِكَ الْإِخْفَاقِ
أَعَدَدَتْ شَعْبًا طِيبَ الْأَعْرَاقِ^(٣)
بِالرَّيِّ أَوْرَقُ أَيْمًا إِيْرَاقِ
شَغَلَتْ مَأْتَرُهُمْ مَدَى الْآفَاقِ

* * *

أَنَا لَا أَقُولُ دَعُوا النِّسَاءَ سَوَافِرًا
يَدْرُجْنَ حَيْثُ أُرْدَنَ لَا مِنْ وَازِعٍ
يَفْعَلْنَ أَفْعَالِ الرِّجَالِ لَوَاهِيَا
فِي دَوْرِهِنَّ شَتَوْنَهُنَّ كَثِيرَةً
بَيْنَ الرِّجَالِ يَجْلُنُ فِي الْأَسْوَاقِ
يَحْذَرْنَ رَقَبَتَهُ وَلَا مِنْ وَافِي
عَنْ وَاجِبَاتِ نَوَاسِرِ الْأَحْدَاقِ
كَشُّونَ رَبَّ السِّيفِ الْمَزْرَاقِ^(٥)

(١) الإملاق: الفقر.

(٢) الخلاق: النصب من الخير والصلاح.

(٣) الأعراق: الأصول، الواحد عرق.

(٤) الحيا: المطر.

(٥) المزراق: الرمح.

كَلَّا وَلَا أَدْعُوكُمْ أَنْ تُسْرِفُوا
 لَيْسَتْ نَسَاؤُكُمْ حِلِّيَّ وَجَواهِرًا
 لَيْسَتْ نَسَاؤُكُمْ أَثَا يُقْتَنَى
 تَتَشَكَّلُ الْأَزْمَانُ فِي أَدْوَارِهَا
 فَتَوَسَّطُوا فِي الْحَالَتَيْنِ وَأَنْصَفُوا
 رَبُّوا الْبَنَاتِ عَلَى الْفَضِيلَةِ إِنَّهَا
 وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَبِينَ بِنَاتِكُمْ
 فِي الْحُبِّ وَالْتِصِيقِ وَالْإِرْهَاقِ
 خَوْفِ الضِّيَاعِ تَصَانُ فِي الْأَحْقَاقِ
 فِي الدَّوَرِ بَيْنَ مَخَادِعِ وَطَبَاقِ
 دَوْلًا وَهِنَّ عَلَى الْجُمُودِ بِوَأَقِ
 فَالْشَّرُّ فِي التَّقْيِيدِ وَالْإِطْلَاقِ
 فِي الْمَوْقِفِينَ لَهُنَّ خَيْرٌ وَثَاقِ
 نَوْرُ الْهُدَى وَعَلَى الْحَيَاءِ الْبَاقِ

المناصب والفضائل

من قوله في رثائه لمحمود سامي البارودي:

إِنَّ الْمَنَاصِبَ فِي عَزْلِ وَتَوَلِيَةِ غَيْرِ الْمَوَاهِبِ فِي ذِكْرِ وَتَخْلِيدِ

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا من الشعر والحكمة والأخلاق لا تفنى ولا تنفد على مر الزمان.

خليل مطران

شاعر الحرية

١٨٧٢ - ١٩٤٩



شاعر الحرية والعروبة، حمل لواء التجديد في الشعر،
نيفاً ونصف قرن من الزمان، وبلغ الذروة في عالم الشعر
والفن والبلاغة والخيال.

ولد سنة ١٨٧٢ في بعلبك إحدى المدن الشهيرة بלבنا،
وتنشأ نزاعاً إلى الحرية سمح النفس، كريم الخلق، صفى
السريرة، محباً للخير، وديعاً في شمم وإباء، معتزاً بكرامته،
عيوقاً عن الصغائر.

ضاق صدرًا منذ صباه بجوٍ يضغط على حرية الرأي
والفكر، فارتحل إلى باريس يتم فيها دراسته وعلومه،
وهناك ارتوى من مناهل الآداب الغربية، وإذ كانت
شاعريته وليدة فطرته وسليقته، فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسي إلى التجديد في شعره،
فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعاني الأوروبية.

ثم هاجر إلى مصر، واتخذها موطنه الثاني، بل موطنه المختار.
أخلص لها، وغرّد في أكنافها، وتعشق نيلها وأرضها وسماها، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا
معا وانتتهت إليهم زعامة الشعر في العصر الحديث: شوقي وحافظ ومطران.
ألهم حب الحرية نظم القصائد الرائعة في تمجيدها والذود عنها، والجهاد في سبيلها، فكان من
أعلامها الخالدين.

كان إنساناً في شخصه وفي أخلاقه وفي شعره وأدبه.

كان في شعره ينشد الكمال، ويخلق في أجواء الحرية والوطنية.

كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفي ذلك يقول عن نفسه في الاحتفال بيوبيله الذهبي
سنة ١٩٤٨.

كان في الشعر لى مرأى خطير
هائم في الوجود أسأله الوح
أكبرونى ولست أكبر نفسى
لا يضئ صدر شاعر بأخيه
والسماوات لو تأملت فيها
كل جرم يعلو ويصبح نجما
والنجوم التى تلوح وتُخفى
فعدا طوقى المرأى الخطير
سى كما يسأل الغنى الفقير
أنا فى الفن مستفيد صغير
يكره الفضل أن تضيق الصدور
ليس تُحصى شمسوها والبدور
فله حيز وفيه بدور
ربوات وما يضيق الأثير

وبهذه الروح العالية، والنفس الصافية، والود الخالص، والإيثار والأريحية، عاش محبوباً من معاصريه: يحبهم ويحبونه، وينشد لهم الخير والكمال.

وقد أرخ في شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية، وسجل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل.

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير وبلاغة التعبير، هذا إلى اقتباسه من آداب اللغة الفرنسية التى درسها وتمكن منها تمكنه من آداب اللغ العربية، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، وهو زعيم مدرسة التجديد فى الشعر العربى، وسار على نهجه تلاميذه ومريدوه.

وقد عبر أبلغ تعبير وأرقه عن منهج التجديد فى شعره، بقوله فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال:

«هذا شعرى، وفيه كل شعورى، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال، نظمته فى مختلف الآونة التى تخلت فيها عن العمل لرزقى، نظمته مصبحا ومسيئا، منفردا ومتحدثا مع عشرينى، وقيدت فيه زفرائى وأحلامى، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى وبيتتى فى دقة واستيفاء.

«أتابع السابقين فى الاحتفاظ بأصول اللغة، وعدمم لتفريط فيها، واستيحاء الفطرة الصحيحة، وأتوسع فى مذاهب البيان مجازاة لما اقتضاه العصر، كما فعل العرب من قبلى، أما الأمنية الكبرى التى كانت تجيش بى، فهى أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حفظت وخدمت حق خدمتها، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلال من أغراض الفنون، وإنى لأرجو أن يرى المطلعون على هذا الجزء الثانى وما يليه من أجزاء (ديوان الخليل) مصداقا لدعواى».

وقال عنه صنوه وصديقه حافظ يشيد بنزغته في التجديد:

«هو في طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدعوا قيود التقييد، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الأعجمي، وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث، وطوّفوا بسرد وقائع التاريخ، ففتح بذلك فتحاً جديداً شتّى فيه الغارة على أهل الحفاظ والتمسيك».

وكان من أركان المسرح العربي بما كتب لهذا المسرح وعرب، فقد ترجم ليالى الفريد دى موسيه، ورواية هرنانى لفكتور هيجو، كما ترجم لكورنيل مسرحيات (السيد) وسينا وبوليكت، وترجم روايات شكسبير: هاملت، ومكبث، وعطيل، وتاجر البندقية.

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يحيى نهضة الشعوب العربية:

داع إلى العهد الجديد دعاك	فاستأنفى فى الخافقين علاك
يا أمة العرب التى هى أمنا	أى الفخار نمتته ونماك؟
يمضى الزمان وتنقضى أحداثه	وهواك منّا فى القلوب هواك
إنّا نقاضى الدهر فى أحسابنا	بالرأى لبالصّارم الفتاك
وملاك شيمتنا الوفا فائنه	لسعادة الأقبوام خير ملاك
آمالنا آلامنا أرواحنا	أشباحنا يوم الفداء فداك
بالعلم ننشّر ما انطوى من مجدنا	وبه نزكى فى السورى ذكراك

مطران ومصطفى كامل

كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر، كان مؤيدا لدعوته نصيراً لرسالته، دافع عنها فى حياة مصطفى، وظل وفيا لها بعد وفاته، ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته التى أنشدها سنة ١٩٠٨ فى حفلة الأربعين لوفاته، وقد نشرها فى ديوانه وصدرها فى طبعته الأولى بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب الشرق فى رجله المفرد، وبطله الأوحده، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة! إن فى هذا الديوان الذى اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فىلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، ووداع المجاهد المتطوّر للقائد العظيم».

وجعل عنوان القصيدة (حق الوطن وحق الإخاء) قال:

فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
خيرًا، وكلُّ واجدٍ ما أسلفا
ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

أعلى مكانتك الإلهُ وشرِّفا
اليوم فُزت بأجر ما أسلفتُهُ
وجزيت من فاني الوجود بخالد

بك واصفًا ذاك الجلال فيوصفا
حافين حولك في السرير وعُكفا
سربًا يجوز بك الدرارى موجفا
والأرض مائدةً عليك تأسفا
يذرو الرجال به المدامع ذرفا
بهم الرحيب من المسالك مصرفا
ساروا بطيف ناحلٍ أو أنحفا
فُلك يظلل اللواء مرفوفا
آثاره من رفعة لا تُقتفى

أعظم يومك في الزمان ومن له
حيث الوفود من الملائك أقبلا
وتحملوك على الأشعة وارتقوا
فوردت وردك في الخلود منعما
لم تُلف قبلك أمة في مشهد
يمشون من حول الجنازة ضائقا
متحقلين من الوقار وإنما
بحر من الأحياء نعشك فوقه
يبكون في آثاره العلم الذى

مُلقي على الأبصار سِترا أغدفا
خطبُ الآن برُوعه صم الصفا
من دمعهم إن خانهم متكفكفا
بعد الفقيده فتى بهم فتوقفا
هو خير من والى وأوفى من وفى
ليزيل ذاك العارض المتكشفا
لما مضيت ولست فيهم تخلفا

سَعَت الخوايد حاسرات والأسى
ولئن سفرن ولم يَحُلْنَ فإنه
فزع الشباب إلى الشيوخ بشارهم
ومن الغضاظة أن دعا داعى العلا
جزع النصارى واليهود لمسلم
بَكُوا المرجى في خلافٍ عارضٍ
واشد رُزُّه المسلمين وحزنهم

يُعلى لهم صوتًا وينشرُ مصحفًا؟
ويردُّ نقد الناقدين مزيفًا؟
ويزيل ما يلد التناكر من جفا

من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم
من يبرىء الإسلام من تُهم العدى
يُبدى لأعين جاهليه فضله

همًا تعيد له المقام الأشرفا
 سُمراً تهزُّ لكل خطبٍ معطفًا
 ليدودَّ عنه خصمه المتعسفا
 فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
 أيكون منقصةً لها أن تُكسفا؟
 يثنى أشعتها إلى أن يُكشفا
 للعالمين ورادعًا ومثقفًا
 أن قصر الأقوامُ عنه فأخلفا
 أن خالفوه فما استحال ولا انتفى
 نلنا به هذا الرقيُّ مُسلِّفا
 ومُنَى الساحةِ عودُهُ مستأنفا
 والشرُّ كل الشر أن يتخلفا
 بين العناصر أويهن ويضعفا
 سَقَمٌ ولم يُتَلَفَ عَمٌّ وأتلفا
 بسلامة الإسلام وهي لها ينففا
 أرضت خبيرًا بالحياة ومنصفًا
 حقَّ الإبانة هل تبالى مرجفا؟
 حتى أنار الكون منها مُشرفا

ويثير من غضب الغضاب لمجده
 لكنَّ من أقلام جنيدك حوله
 ولعل حُرًّا لا يدين به انبرى
 قِفْ أيها الناعى عليه جموده
 إن يعتر الشمس الكسوف هنيهةً
 وهل الكسوف سوى تعرض حائل
 لم تنزل الأديان إلا هاديا
 بشعارٍ حتى على الفلاح وما بها
 وبكل أمر موجبٍ إصلاحهم
 قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ
 ملأ البلاد إنارةً وحضارةً
 فالخيرُ كلُّ الخير فيه مقبلاً
 يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى
 والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضه
 بشرى البرية بعد مُزْمِن دائها
 إن أغضبت تلك السلامة جائراً
 يا من نهضت بنصره وأبنته
 مازلت في مصر تقيم مناره

وأرى ترابك من حنين قد هفا
 وكأننى بك مُوشِكُ أن تهتفا
 بأعزُّ منك ولم تعزُّ بأحففا
 في الحاليتين ملايناً ومعنففا
 بصبيب دمك جارياً مستنزفا
 متصدراً لرماتها مستهدفا
 ومُنَى لتكفيها المغير المجحففا

مصر العزيزة قد ذكرتُ لك اسمها
 وكأننى بالقبر أصبح منبراً
 مصرُ التي لم تحظ من نجباتها
 مصرُ التي لم تبغ إلا نفعها
 مصرُ التي غسلت يداك جراحها
 مصرُ التي كافحت لدُّ عُداتها
 مصرُ التي سَقَّت الجيوش مناقبا

بلغ الفداء نزاهاً وتعففاً
من شملها ما لم يكن ليؤلفا
لو لم يضافرُها رداك فيسعفا
شعبٌ يعزّ بنفسه مستنصفاً

مصرُ التي أحبيتها الحبُّ الذي
حتى مضيتَ كما ابتغيتَ مؤلفا
أمنيةً أعييتَ خلالك دونها
وهي التي لو قُسمتَ لَنما بها

بالحق لا شكساً ولا متصلفاً
يُعيى الحكيمَ مدبّراً ومصرفاً
فيه مهيب الطبع والمستظرفاً
يُجدي البلادَ فتبتيغيه مُلحفاً
تهوى ومعطاءً لغيرك مُسرفاً
بما تقول ولا تعاهدُ مُخلفاً

من كان أجراً منك يوم كريمةٍ
من كان أقدرَ منك تصرّيفاً لما
من كان أظهرَ منك خلُقاً جامعاً
من كان أزهدَ منك إلا في الذي
من كان أسمعَ منك مناعاً لما
من كان أصدقَ منك لامتنصلاً

على اللواء حمى الروءة والوفا
أغدت معالمهنّ قاعاً صفصفاً
ورجائه كذب النعنى وأرجفاً
ملء الوجودُ به ويصبح قد عفاً
بك في جهادك أو أشد وأشففاً
عن مصر تضربُ في البلاد مطوّفاً
بضو الطريق وتدفع المتخلففاً
همماً وتوشك أن تطم فتجرففاً
ويكاد يعزفُ كلُّ حرفٍ معزفاً
فهو النسيم وقد ذكا وتلطفاً
نقش المدادُ رسومها وتخففاً
وتعاف تحلية لئلاً تكشففاً
تلك النفوس مروّعا ومشففاً
ذكرى وعرفنا الحياة لنعرففاً

لهفى على فخر الصبى هادى النهى
يا من نعى تلك الفضائل والعلّى
للا وحققك يا شهيد وفائه
ما أنت بالرجل الذى يمسى وقد
إنى أراك ولا تزال كعهدنا
ثابرٌ على تلك العزائم ذائداً
أصدر صحائفك التي تحيى بها
تجرى بها الأنهارُ وهى دوافقُ
وتكاد أسطرها تهبُّ نواطقاً
فإذا حنوتَ على الحمى متحبباً
وكأنما الألفاظ مما خففتُ
تستام من أثوابها أرواحها
قم للخطابة في المجامع وامتك
أعد القديم من الممالك والقرى

شَدَّدُ عَزَائِمَنَا وَقَاتِلْ ضَعْفَنَا
 مَا هَذِهِ الْآيَاتُ يَرْمِي لَفْظُهَا
 مَا ذَلِكَ التَّرْصِيعُ لَيْسَ مَرَصُّعًا
 وَحَيَّ بِبَاهِجِيَّةٍ إِذْ مَا أُطْلِقَتْ
 تُحْيِي حَرَارَتَهَا وَهَدَى نَوْرَهَا
 تَاللهِ مَا أَنْتَ الْخَطِيبُ وَإِنَّمَا
 عَنْ نَظْمِهِ تَقَعُ الصُّرُوفُ مَوَاعِظًا

* * *

يَا حَبِذَا لَوْ كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَزَلْ
 وَالْآنَ نَحْنُ لَدَى ثَرَاكَ نَحِجُّهُ
 نُنْتِجُ وَهَلْ يَوْفَى ثَنَاؤُكَ حَقَّهُ
 مَاذَا يُعْيِضُكَ مِنْ شِبَابِكَ نَظْمُنَا
 وَيُعْيِضُ مِنْكَ وَكُنْتَ جَوْهَرَةَ الْحَمَى
 لَكِنَّهُ حُلُمٌ مَضَى مُسْتَطَرَفَا
 مَتَلَهِّبِينَ تَشَوْقَا وَتَشَوْفَا
 وَبِأَيِّ أَلْفَاظِ الْمُحَامِدِ يُكْتَفَى
 فَيْكَ الرِّثَاءَ مَنْسَقًا وَمَصْفُفَا
 صَوِّغُ الْكَلَامِ مَرَصُّعًا وَمَزْخَرَفَا

* * *

يَا أَخْلَصَ الْخُلَصَاءِ أَبْكِي بَعْدَهُ
 هَذَا مِثَالُكَ لَاحَ يَرْعَانَا وَقَدْ
 جَادَ الْهَلَالُ بِرِسْمِهِ تَاجًا لَهُ
 يَا مَنْ رَمَاهُ عُدَاتُهُ بِتَطْرِفِ
 كَهْوَاكِ لِلْأَوْطَانِ فَلْيَكُنِ الْهَوَى
 يَجْرِي عَلَى قَدَرِ الْمَطَالِبِ تَامِيَا
 أَنْشَأَتْ مِنْ مِصْرَ الشَّتَاتِ بِفَضْلِهِ
 أَحْدَثَتْ فِيهَا أُمَّةً أَنْدَى يَدًا
 عَرَفَتْ أَهْلِيهَا حَقِيقَةَ قَدْرِهِمْ
 نَفَحَاتُ رَوْحِكَ خَامَرَتْ أَرْوَاحَهُمْ
 حِصْنٌ أَشْمُ تَسَانَدَتْ أَجْزَاؤُهُ
 كَبِكَاءِ مِصْرَ تَحَرَّقَا وَتَلَهَّفَا
 كَشَفَ الْجَوَى عَنْهُ الْحِجَابَ فَأَشْرَفَا
 وَكَسَتْهُ نَاسِجَةُ الطَّهَارَةِ مُطَرَفَا
 حَقَّقَتْ آمَالَ الْهَدَى مُتَطَرَفَا
 لَا مِفْتَاحَ فِيهِ وَلَا مِتْكَفَا
 وَيَجِلُّ فِي مَجْرَاهُ عَنْ أَنْ يَصْدِفَا
 مِصْرَ الْفِتْنَةِ حِمَى يُعْزِزُ وَمَأْلَفَا
 لِلصَّالِحَاتِ وَبِالْعِظَائِمِ أَكْلَفَا
 وَكَفَاهُمْ مِنْ قَدْرِهِمْ أَنْ يُعْرِفَا
 فَهَمَّ مِرَامُكَ سَاءَ دَهْرٌ أَوْ صَفَا
 عَلِمًا وَأَمْنَهُ النَّهْيُ أَنْ يُنْسَفَا

فارقُ رقادَكَ إن ربك قد محَا بك ذنْبَ مصر كما رجوتَ وقد عفا

وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفاً رائعا للنهضة القومية التي كونت حافظا، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آملها وآملها، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدا بجهاده إلى أن مات، وبوته كانت الآية التي تم بها استقرارها، قال فيها:

طُرأتْ حالةٌ تيقِّظُ فيها	لدعاة الهدى ضمير السواد ^(١)
فإذا (حافظ) وقد بثَّ ما في	نفسه من تَجْهَم واربداد
وبدا للمنى الجلائل فيها	أفقٌ واسع المدى لارتداد
ما تجلَّى نبوغه كتجليه	وقد هبَّ (مصطفى) للجهاد
يوم نادى الفتى العظيم فلبى	من نَبَا ^(٢) قبله بصوت المنادى
وَوَرى ^(٣) ذلك الشعور الذى كا	ن كميئاً كالنار تحت الرماد
فتأقَّى بعد القنوط الدُّجوج	سَى ^(٤) رجاء للشاعر المجواد
مس منه السواد فانبجست نا	ر ونور من طيِّ ذاك السواد
أكبر الدهرُ وثبةً وثبتها	مصرُ مفتكةً من الأصفاد
وُثْقاء ^(٥) غدا هزيمًا ^(٦) فألقى	رُعبه فى مراض الآساد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيد	ث طوتها قرون الاستبداد
وجلا غرة الصلاح فلاح	تزدهى من غياهب الإفساد
فإذا أمة أبية ضيم	مالها غير حقها من عتاد
نهضت فجأة تنافح فى آ	ن عدوين أسرفا فى اللداد
أجنبيًا ألقى المراسى حتى	تقلع الراسيات فى الأطواد
وهوانًا كأنما طبع الشعب	عليه تقادم الإخلاق
حلبة يُعذرُ المقصّر فيها	والخواتيم رهن تلك المبادئ
ليس تغييرٌ ما يقوم يسيرًا	كيف ما عودوه من آماد؟
غير أن الإيمان كان حليفًا	لقلوب الطليعة الأنجاد

(١) المظلم.

(٢) الثناء: صوت الشاة والمعز.

(٣) الهزيم: صوت الرعد.

(١) يريد الجمهور.

(٢) نبا: نجى وتباعد.

(٣) ورى الزند: خرجت ناره.

فاستعانوا به على ما ابتغوه غير باغين من بعيد المراد

إلى أن قال:

بعد وثب في إثر وثبٍ عنيف وارتداد في الشوط غب ارتداد
ساور الأمة التردد والتا ث^(١) عليها في السير وجه الرشاد
لا تسل يومذاك عن جلد القا دة في ملتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبوا إ لا كفاحا وعزمهم في ازدياد
يبدلون القوى وفوق القوى غير مبالين أنها لنفاد
و (الزعيم الأبر) أطيبهم نفس ما عن النفس صراع العوادي
هل ينجي شعباً من اليأس إلا حذت من خوارق المعتاد
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ كر فداءً أن كنت أول فاد
مصطفى مصطفى ليهنك أن أح سييت قومًا بذاك الاستشهاد
دب فيهم روح جديد له ما بعده في القلوب والأخلاق^(٢)
تنقضي الحادثات بعدك والرو ح مقيم فيهم على الآباد
كاد يوم شيعت فيه يريم لحة من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوة الأعداد
واستشفوا لبأسهم فيه سرا كم تحامى أن يدركوه الأعادي
هذه مصر الفتية هبت في صفوف فتية للذيد
رجل مات مُخلفاً منه جيلاً رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار بعد طول الخمود والإخاد
تخذت عبقرية الشعر فيه سلماً للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجاً زاد منه العلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله في سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله بع

ظل حبيسا في «مدرسة مصطفى كامل» من سنة ١٩١٤. قال:

(١) الثالث عليه الأمر: اختلط والتبس.

(٢) الأخلاق: العقول.

ماذا خشوا من فتنة التمثال؟
فاضت أسي ودموعهن غوال
وجلاء من أوفى بنيتها جال
وتذاد عنهم يوم الاستقلال؟
في بدئها ولكل بدء تال
فيما ادعى صلفا وجدك عال
تلقاك بالإكرام والإجلال
من غرّ فتيانٍ وصيد رجال
في هذه الأساد والأشبال
وسواك يحسبه رجاء محال
سرف المطلوب بعيد نوال

أمنوا بموتك صولة الرئبال
حبسوه عن مقل إليه مشوقة
حتى أرادت مصر غير مرادهم
أتهبىء استقلال قومك جاهداً
انصفت بعض الشيء بل هي توبة
فلقد تتوب وجد غيرك عاثر
يا حسن عودك والكنانة حرة
أيروعك الحشد الذي بك يحتفى
ماذا بثت من الحياة جديدة
بعث لموطنك العزيز رجوته
خاطرت فيه بالشباب وبذله

شوقى إليك فهن جد طوال
زالوا ولم يشأ القضاء زوالى
فأحق حى بالأسى أمثالى
وجب الرثاء فإنما يرثى لى
وشخصهم ملء الزمان حيالى
وإلى يمينى تارة وشمالى
في كل حادثة ولست بآل
يقضى الحمى من حقهم ويوالى
متجددا بتعاقب الأحوال
يغدو الفراق بها شبيه وصال
لا ينقضى بتحول الأحوال

أى مصطفى! ولت سنون وما اشتفى
عجب بقائى بعد أكرم رفقة
هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها
حزن بعيد الغور فى قلبى فإن
ماذا أقول وهذه أسماؤهم
تعتادنى فى مسمعى أو ناظرى
إنى لأحفظ عهدهم وأصونه
وكان حسى حسهم فرحا بما
كم فى مغارسهم جنى ألفيته
سلوى أتاحتها مآثرهم وقد
وكذاك مجد العبقريّة والفدى

لو كان يتصف امرؤ بكمال
غير المكاره فيه والأهوال
عانيت فى الغدوات والآصال
من جهد أيام وسهد ليالى

أى مصطفى ما كنت إلّا كاملا
ماذا لقيت من الصبى ونعيمه
إنى شهدت شهادة العينين ما
متطوعا تسخو بما يفنى القوى

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن
 حال التورع دون إغراء المني
 والقوم في ظماً ووعدك مطمع
 تسعى ويعترض السبيل قنوطهم
 فتظل تضرب في جوانبه وما
 لك دون ما تبغى مضاء مصمم
 حتى إذا وضع اليقين وصدقت
 فتويت أظهر ما تكون على عدى

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن
 فالقوم من جزع عليك كأنهم
 كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا
 وتبينوا أن الخنوع مهانة
 لله حسن بلاتهم لما أبوا
 وتوثبوا بعزيمة مصدوقة
 يردون حوضاً والمنايا دونه
 حتى أتيح الفتح يجلو حسنه
 فتح بدا اسمك وهو في عنوانه
 إيها شديد الحب للبلد الذي
 أبهج بأوبتك السنية طالعا
 للذكر آفاق سحيقات المدى
 فإذا دنت منا فتلك عوالم
 تطوى من الأدهار مالا ينقضى
 أنوار وجهك طالعتنا اليوم من
 قد أثبتتها مصر بين عيونها
 نعم الثواب لذى مآثر في الفدى

بأشد منها هزة الزلزال
 آل وقد رزثوا عزيز الآل
 أن الحياة مطالب ومعال
 لا يستطال بها مدى الآجال
 متضاقرين دوام تلك الحال
 برئت من الأحقاد والأوجال
 مستبسلين ضروب الاستبسال
 في يومه إحسان يوم خال
 متخضبا بدم الشباب الغالى
 لا أنت ساليه ولا هو سال
 في أفقه كالكوكب المتلالى
 ولزهرها المتألقات مجال
 وإذا نأت عنا فتلك لآلى
 وتجول في الأفكار كل مجال
 برج حلت به لغير زيال
 فالحال متصل بالاستقبال
 فرضت محبته على الأجيال

* * *

فتيان مصر وعهدها غير الذى عاتته فى الأصفاد والأغلال

حيوا مدبل حياتها من يأسها ومذلل الآلام للآمال
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها وخطيب تورتها في الاستهلال
هذى مواكبها وتلك وفودها في ملتقى ذى روعة وجمال
حفلت برمز نهوضها ومثاله مالا تدانى صنعة المثال
لكنها مهج بنته ولم تكن إلّا ذرائعها فضول المال
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم يك مكس جاب أو تطول وال
رسم يلوح وفيه معنى أصله فيروع بين حقيقة وخيال
لان الحديد له فصاغ لعينه أنراً على الأيام ليس يبال
كم في بليغ سكوته من عبرة أوفى وأكفى من فصيح مقال
هو خالد ويظل مدره قومه في كل نازلة وكل نضال

تحيته للمجاهدين في المؤتمر الوطنى ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم في سنة ١٩١٠ قصيدة ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد برآسة المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل في سبتمبر سنة ١٩١٠. قال:

أتراه فوق مناكب الأدهار شفقٌ تخلفَ عن بديع نهار^(١)
حقبٌ دَجَّتْ منها السُّفوح ولم يزل فوق الذرى منها بريق نضار^(٢)
يا مغرب الماضى أما من آية فتعود فى سَحَر من الأسحار؟
هذا صباحٌ مقبل من غيبه فتبينوه يا أولى الأبصار
تجد العيون على نواصى أفقه ضواءاً تألّق من وراء ستار
سَحَر الرجاء بدا لكم وإزاءه شفق البقية من علّ وفخار^(٣)
شقان من حلّى أغرّ تصوغه تاجاً لمصر أنامل المقدار^(٤)

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها ناقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق، أى النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها.
(٢) الحقب السنون. ودجا أظلم. الذرى؛ جمع ذروة، أعلى الشيء. والنضار الذهب. أى أن عهود التأخر قد تركت ظلاماً مخيباً على البلاد، ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التى غربت.
(٣) أى يتجلى فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم.
(٤) الحلّى وجمعه حلّى ما يصنع من مصوغ المعدنيات، أو الحجارة الكريمة والمقدار هو القدس، يريد أن يجد الماضى والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقى تاج لمصر.

تاجٌ ستلبسه الفتاة مخلفاً عن أمها في سالف الأعصار
ويكون من آياته وشُعاعه آيات مجد رجالها الأخيار

نجباء مصر الواترين لِعِزِّها وجلالها من ذلة وصغار^(١)
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم لا فوز إلاَّ بعد خوض غمار
ما شاء سَعْدُ الدار أن تشقُّوا له فاشقُّوا له ما شاء سعد الدار
إن شَقَّ ترحالُ فهذى هجرةً لا شُقَّةُ^(٢) في مثلها فبدار
سيروا تنموا في الحياة فطالما كان التقاعس مؤذنا ببوار
ما اللُّجُّ وادَّعَ أو تشاكسَ حارِناً إلا ذلول الراكب الكرار^(٣)
ما البرُّ أنجد أو أغار بجائب إلا سليب خطى ونهب قطار^(٤)

ركبَ النجاة استطلعوا لبلادكم في الغرب كل مطالع الأنوار
هزوا منابرَه بعلَى صوتكم حتى يرنَّ صداه في الأقطار
أنتم جنود السِّلْمِ رُسلُ جهاده أنتم أشعة مصر في الأمصار
أنتم أشعة حزمها شَفَافَةٌ عن حزنها والنورُ بثُّ النار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم حق الحياة وما بها من عار
لا تسأمون تغرباً في مبتغى أسمى الهنات وأشرف الأوطار

الحكم شورى لا تفرد صالح في غير حكم الواحد القهار
لا تسترق عسيرةً وديارها لعسيرة غلابيةً وديار

(١) مخاطب ركب المؤتمر وأعضائه. ويصفهم بأنهم ذاهبون لينأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضم.

(٢) الشقة: السفر البعيد.

(٣) لجج البحر أمواجه. أى ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الدلول للفارس الذى يروضها.

(٤) الجانب المسافر.

العدل إن يُقصد فليس بكائن في نُكر معرفة وغصب جوار
الرأى تكمد شمسُه في موطنٍ متناقض الإعلان والإسرار
الخير تُفقد سُبُلُه في مجمع متعارض الإقبال والإدبار

* * *

ماذا عليكم أن تكون شعاركم هذى المطالبُ وهي خير شعار
لستم بسفاكي دم، لستم إلى غير الحقيقة طامحي الأنظار
لستم غلاة، والأقل مرامكم بين الشعوب السُّبق الأحرار
لستم غلاة، خال ذلك منكم من لم يخلكم من ذوى الأخطار^(١)
ليس الذى تبغونه من مطلب إلا أحقَّ مطالب الأحرار
من لم يخل في مصر عبدًا شاكيًا في فترة التفكير والإضرار
أجزعُ بسارٍ آمِنٍ في معهد وثبت عليه فجاءةُ التزار^(٢)

* * *

إنى ليعجبني كبيرُ مرامكم وهو الحقيق بغاية الإكبار
وأقول للمزرى بسنَّ صغاركم ليس العظيم نفوسُهم بصغار
أماجرى أرض الكنانة إنكم وجميع من فيها من الأنصار^(٣)
إمضوا دعاةً للهدى واستنصفوا بالحق للبلد العزيز الجار
كونوا الشهود له على أعدائه برجوع شمسِ نهاره المتوارى

الثبات في الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلطت قانون المطبوعات على الصحف:

شَرِّدُوا أَخْيَارَهَا بَحْرًا وَبَرًّا وَاقْتُلُوا أَحْرَارَهَا حُرًّا فَحْرًا

(١) أى لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوى الكفايات والأقدار.

(٢) أجزع: أى ما أشد جزع. والفجاءة مصدر فجأة. والتزار زئير الأسد. يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية في ذلك العهد، كما يفاجأ السارى بزئير الأسد.

(٣) يسعى أعضاء المؤتمر المهاجرين. وسكان مصر الأنصار، تشبيها لهم بالمهاجرين والأنصار في صدر الإسلام.

إِنَّمَا الصَّالِحُ يَبْقَى صَالِحًا آخِرَ الدَّهْرِ وَيَبْقَى الشَّرُّ شَرًّا
كَسَرُوا الْأَقْلَامَ هَلْ تَكْسِيرُهَا يَمْنَعُ الْأَيْدَى أَنْ تَنْقُشَ صَخْرًا
قَطَّعُوا الْأَيْدَى هَلْ تَقْطِيعُهَا يَمْنَعُ الْأَقْدَامَ أَنْ تَرْكَبَ بَحْرًا
حَطَّمُوا الْأَقْدَامَ هَلْ تَحْطِيمُهَا يَمْنَعُ الْأَعْيُنَ أَنْ تَنْظُرَ شَرْرًا
أَطْفَأُوا الْأَعْيُنَ هَلْ إِطْفَاؤُهَا يَمْنَعُ الْأَنْفَاسَ أَنْ تَصْعَدَ زَفْرًا؟
أَخِدُوا الْأَنْفَاسَ، هَذَا جُهْدُكُمْ وَبِهِ مَنَاجَاتُنَا مِنْكُمْ... فَشُكْرًا!

وقال في هذا المعنى حين توعده الحكومة بالنفى من مصر على أثره نشره الأبيات السابقة:

أنا لا أخاف ولا أَرْجَى فَرَسَى مُؤَهَّبَةً وَسَرَجَى
فإذا نَبَا بِي مَتْنٌ بَرٍّ فَاَلْمَاطِيَّةُ بَطْنٌ لُجٍّ
لا قول غير الحقِّ لى قَوْلٌ وَهَذَا النَّهْجُ نَهْجَى
الْوَعْدُ وَالْإِبْعَادُ مَا كَانَ لَدَى طَرِيقِ فُلْجٍ^(١)

يحيى رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عصاء حيًّا بها العام الهجرى (١٣٢٩)، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما في هجرة الرسول الكريم من المعانى الجليلة، والأغراض السامية. وأهاب بهم أن يضاعفوا جهودهم لبعث الحياة في مصر والشرق. قال:

هَلْ أَهْلَالُ فَحَيُّوا طَالَعَ الْعِيدِ حَيُّوا الْبَشِيرَ بِتَحْقِيقِ الْمَوَاعِيدِ
يَا أَيُّهَا الرَّمْزُ تَسْتَجَلِي الْعُقُولَ بِهِ لِحُكْمَةِ اللَّهِ مَعْنَى غَيْرِ مَحْدُودِ
كَأَنَّ حُسْنَكَ هَذَا وَهُوَ رَائِعُنَا حُسْنٌ لِيَكْرَمَ مِنَ الْأَقْمَارِ مَوْلُودِ
لِلَّهِ فِي الْخَلْقِ آيَاتٌ وَأَعْجَبُهَا تَجْدِيدُ زَوْعَتِهَا فِي كُلِّ تَجْدِيدِ

فَتَيَانُ مِصْرَ وَمَا أَدْعُو بِدَعْوَتِكُمْ سَوَى مُجِيبِينَ أَحْرَارًا مَنَاجِيدِ^(٢)
سَوَى الْأَهْلَةِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ أَدَبٍ مُؤْمِلِينَ لِفَضْلِ غَيْرِ مَحْجُودِ

(١) الفلج: الظفر.

(٢) المناجيد: الشجعان السباقون إلى النجدة.

المستسيرُ شعار المقتدين به
ما زال من مبدأ الدنيا يُنبئنا
فإن تسيروا إلى الغايات سيرته
العاملين بغيري منه مقصود^(١)
أن التمام بمسعاةٍ ومجهود
إلى الكمال فقد فُزتم بنشود

* * *

يا عيدُ جئت على وعدٍ تُعيدُ لنا
بل كنت «عبدین» في التقريب بينها
رُدِّدتَ يومًا يُسرُّ المؤمنون به
أولى حوادثك الأولى بتأييد
معنى لطيفٍ ينافي كل تبعيد
ولم تكن بادئًا يومًا لتعيد

* * *

رسالة الله لا تنهى بلا نصيب
رسالة الله لو حلت على جبلٍ
ولو تحمّلها بحرٌ لشبَّ لظى
فليس بدعًا إذا ناء الصفيُّ بها
ينوى الترحُّل عن أهلٍ وعن وطنٍ
يكاد يكتُّ لولا أن تداركه
يشقى الأمين وتغريبٍ وتأكيد
لأنذك منها وأضحى بطنٍ أخذود
وجفَّ وانهاه فيه كلُّ جُلُود
وبات في ألمٍ منها وتسهيّد
وفي جوانحه أحزان مكبود
أمر الإله لأمرٍ منه موعود

* * *

فإذ غلا القوم في إيذائه خطلاً
دعا الموالين إزماعاً لهجرته
مضى هو البدء، والصديقُ يصحبه
مولىً وجهه شطر (المدينة) في
حتى إذا اتخذ الغار الأمين حِمًى
حماءً وشئى بباب الغار منسدلاً
يا للعقيدة والصديق في سهرٍ
وشرّدوا تابعيه كلَّ تشريد
فلم يجبه سوى الرهط الصناديد
يُغامِرُ الحزن في تيهاء صيخود^(٢)
لئلا أغرَّ على الأدهار مشهود
ونام بين صفاه نوم تجهود
من الآلى هددوه شرّ تهديد^(٣)
تؤذيه أفعى ويكى غير منجود

(١) المستسير: المستقر، أى القمر الذى لم يبد فى مظهره إلا أقله.

(٢) التيهاء: أرض يتيه فيها السالك، وصيخود شديدة الحر.

(٣) إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضل المتعقبن للرسول.

مُنَى الْقُرَى فَهِيَ حَصْنٌ غَيْرُ مَهْدُودٍ
سَارِينَ فِي كُلِّ مَسَرَّى غَيْرِ مَرْصُودٍ
كَهَوْلَاءِ الْأَعْزَاءِ الْمَطَارِيدِ^(١)
فَرَسَانِ رُؤْيَا لَشَأْنٍ غَيْرِ مَعُودٍ
مَالِ خَيْرِ سِرْتٍ فِي مَهْجَةِ الْبِيدِ
فَوْقَ الظَّلَالِ عَلَى الْمَهْرِيةِ الْقُودِ

إِنَّ الْعَقِيدَةَ إِنْ صَحَّتْ وَزَلْزَلَتْ
أَمَّا الصُّحَابُ الَّذِينَ اسْتَخَرُوا تَلَّوْا
مَاجِدَ قَيْصَرٍ أَوْ كَسَرَى إِذَا افْتَخَرُوا
كَأَنَّهُمْ فِي الدُّجَى، وَالنَّجْمُ شَاهِدُهُمْ،
كَأَنَّهُمْ وَضِيَاءُ الصُّبْحِ كَاشِفُهُمْ
فِي حَيْطَةِ اللَّهِ مَا شَعَتْ أَسْنَتُهُمْ

لِمَ أُرِبَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ
حَتَّى يَعُودَ بِتَمَكِينٍ وَتَأْيِيدٍ
قَدْرَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ فَادَى بِهَا فُؤْدَى
لِلْإِحْتِفَاطِ بِعَمْرِ رَهْنٍ تَحْدِيدِ
وَلِيَبِغَ فِي الْأَرْضِ شَقًّا كُلِّ رَعْدِيدِ
عَدَا الْفَنَاءِ بِذِكْرِ غَيْرِ مَلْحُودِ

عَانِي «مُحَمَّدٌ» مَا عَانِيَ بِهَجْرَتِهِ
وَكَمْ غَزَاةٍ وَكَمْ حَرْبٍ تَجَشَّهَهَا
كَذَا الْحَيَاةَ جِهَادًا، وَالْجِهَادَ عَلَى
أَدْنَى الْكَفَاحِ كِفَاحُ الْمَرْءِ عَنْ سَفِهِ
لِيَغْنَمَ الْعَيْشَ طَلْقًا كُلِّ مَقْتَحِمِ
وَمَنْ عَدَا الْأَجَلَ الْمَحْتُومَ مَطْلَبُهُ

لَكِنَّ صَوْقِي فِيكُمْ صَوْتُ تَرْدِيدِ
مِنْ صَالِحَاتٍ أَعَدَّتْهَا لِتَخْلِيدِ
طِوَالِ مَا خَلَقْتُ^(٢) فِيهَا بِتَسْوِيدِ
فِي كُلِّ مَسْرَحٍ بَادٍ كُلِّ تَوَطِيدِ
إِلَّا كَعْبِيدٍ لَهُمْ فِي شَكْلِ مَعْبُودِ
بَعْضُ الْمَعَادِنِ أَوْ بَعْضُ الْجَلَامِيدِ^(٣)
ثِقَالِ بَطْشٍ لِدَانٍ كَالْأَمَالِيدِ^(٤)
إِلَّا مَنَازِلَ تَشْتِيَتْ وَتَبْدِيدِ
إِلَّا كَمَا صِيحَ فِي عُفْرِ عِبَادِيدِ

لَقَدْ عَلِمْتُمْ، وَمَا مِثْلِي يُتَبَّكُّمُ
مَا أَثْمَرَتْ هَجْرَةُ الْهَادِي لِأُمْتِهِ
وَسَوَّدَتْهَا عَلَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
بَدَا وَلِلشُّرْكِ أَشْيَاءُ تُوَطِّدُهُ
وَالْجَاهِلِيُونَ لَا يَرْضَوْنَ خَالِقَهُمْ
مُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ صِنَاعَتِهِمْ
مُسْتَكْبِرُونَ أَبَاةَ الضِّيمِ غُرُجَجِي
لَا يَنْزِلُ الرَّأْيُ مِنْهُمْ فِي تَفْرِيقِهِمْ
وَلَا يَضُمُّ دُعَاءٌ مِنْ أَوَابِدِهِمْ

(٣) الجلاميد: الصخور.

(٤) لدان، جمع لدن، وهو اللبن.

(١) المطاريد، فرسان الطراد في الحرب

(٢) خلقت: استحدثت.

ولا يطيقون حكمًا غير ما عقدوا لذى لواءٍ على الأهواء معقود

بأى حلمٍ مبيد الجهل عن ثقةٍ بأى عزمٍ مُذلّ القادة الصيّد
أعباد ذاك الفتى الأمّى أمته شملًا جميعًا من الفرّ الأماجيد
لِتلك تاليةً الفرقان في عجبٍ بل آيةُ الحقِّ إذ يُغنى بتأكيد
صعبان راضها: توحيد معشرهم وأخذهم بعد إشاركِ بتوحيد
وزاد في الأرض تمهيدًا لدعوته بعهده للمسيحيين والهود
وبدئته الحكم بالشورى يتمُّ به ما شاءه الله عن عدلٍ وعن جود
هذا هو الحقُّ والإجماع أيّده فمن يُفنِّدُه أولى بتفنيده

أى مسلمى (مصر) إن الجُدّ دينكم وبئس ما قيل: شعبٌ غير مجذود
طال التّقاعس والأعوام عاجلةً والعام ليس إذا ولّى بمرّدود
هُبوا إلى عمل يُجِدّي البلاد فما يفيدها قائلٌ: يا أمّتى سودى
سعيًا وحرزًا، فوّد العدل ودّكم وإن رأى العدل قومٌ غير مودود
تعلّموا كلَّ علمٍ وانبغوا وخذوا بكلِّ خلقي نبيه أخذ تشديد
فكّوا العقول من التّصفيد^(١) تتطلّقا وما تبالون أقدامًا بتصفيد

(مصر) الفؤاد فان تُدرك سلامتها فالشرق ليس وقد صحت بمفؤود^(٢)
الشرق نصفٌ من الدنيا بلا عملٍ سوى المتاع بما يُضنى وما يودى
والغرب يرقى وما بالشرق من همٍ سوى التفاتٍ إلى الماضى وتعيد
تشكو الحضارة من جسمٍ أشلَّ به شطرٌ يُعدُّ وشرطٌ غير معدود

أبناء (مصر) عليكم واجبٌ جَلَلٌ لبعث مجيّدٍ قديم العهد مفقود

وَلْتُرْزَهْ (مصر) بكم مرفوعة الجيد
حقيقة الفعل والذكرى بتمجيد
من حاسد كائد كيداً لمحسود
حُرَّان من كل تقييد وتعبيد
إلا تداركه الثَّاني بتسديد
لما يعمُّ بنفع كل موجود
من رَوْضكم كل نامٍ ناضر العود
دَع زعم كل عدو الحق مرَّيد^(١)

فَلْيَرْجِع الشرق مرفوع المقام بكم
ما أجل الدهر إذ يأتي وأربُعنا
والشرق والغرب معوانان قد خلاصا
صنوان برَّان في علم وفي عمل
لا فِعْل يُخْطئ فيهِ الخير بَعْضُهما
ولا خصومة إلا في استباقهما
هذي الثَّمار التي يرجو الأنام لها
لمصر والشرقي بل للخافقين معاً

* * *

فقد تبدَّل منحوسٌ بمسعود
يُنْفَى بحسنٍ ولا يُوهَى بتهديد
بُشْرَى التَّمام لوقتٍ غير ممدود
بخاتمِ النُّور زَلَّتِ الدُّجَى السود

جُوزوا على بركات الله عامكم
رجاؤكم أبداً ملءُ النفوس، فما
بدا الفلاح، وفي هذا الهلال لكم
غداً نرى البدر في طُرسِ السَّماءِ تحا

يحيى بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يحيى بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب الذين قاوموا العدوان الإيطالي :

أجر الجهاد وأجر اليرِّ بالناس
صدع الرِّصاص وجرح الصَّارمِ القاسي
غول الرَّدَى بين أنيابٍ وأضرار
تري العيونُ غياضاً فوق أفراس
نَدَى الجفاف وتخبو شعله البَّاس
وإن هم استوحشوا إخوان إنَّاس
ودافعوا الموت عنهم دَفَعَ أكياس^(٣)

سيروا على بركات الله واغتنموا
لِيَشْفِ مبضعكم والرفقُ يُعمِّله
لَهْفَى على شُوس^(٢) أبطالٍ تلوَّكهم
كانوا وقد ركبوا للحرب أبهج ما
واليوم قد عثروا تَدَى نضارتهم
كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسية
رُدُّوا على الوطن الباكي أعزَّته

(٣) أكياس جمع كيس وهو الفطن الذي يحسن الفهم.

(١) مرید: الخبيث.

(٢) شوس جمع أشوس وهو الشجاع الجريء.

فإن أسقامهم في كل جارحة
 لله مسعاتكم والحق يشكرها
 مبرةً ظهّرت أرواحكم وسمّت
 خوضوا المصاعب لا يُلِمُّ بأنفسكم
 هذا الهلال لكم رَأْدُ النهار هدى
 وإن في ظلّه النّادى برحمته
 أي عصبه الخير داووا أبرياء هَوُوا
 لو صور الله في جسم امرئٍ ملّكا

منّا وآلامهم في كلّ إحساس
 والخلق يذكرها تردّد أنفاس
 بها مراتب فوق الضّيم والياس
 ما قد تلاقون من من ضُرٍّ ومن باس
 وفي اعتكار الدّياجى خير نبراس
 لبّاساً لجراح القلب والرّأس
 صرعى مطامع قوادٍ وسوّاس
 لصوّر الملّك الإنسى في آس^(١)

عتب وطني

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر في موقف تردد:

إن تكونوا أمّاتها وبنيتها
 ما لتلك الذّنابِ تَعَسُّ فيها؟^(٢)
 أفترضون أن تهون عتيداً
 بعد ذاك الإباء في ماضيها؟
 تلك أوطانكم تُباع عليكم
 صَفَقَةٌ بخُسةٍ فمن مشتريها؟

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة في رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩؛ قال:

أفريدُ لا تبعد على الأدهار
 أنت الشهيد الخالد التذكار
 بالأهل بالدم بالفاهة بالغنى
 فدّيت مصر وفديت من دار
 حررت نفسك دائب المسعى إلى
 تحريرها لتعزّ بعد صغار
 مسترسلا والدهر في إقباله
 مستبسلًا والدهر في الإدبار
 ثبّتاً إذا ما الراسخون تقلقلوا
 متوافق الإعلان والإسرار
 فبررت بالعهد الذي عاهدته
 ووفيت في الإيسار والإعسار
 ما كان ذاك العمر إلا قرينة
 موصولة الآصال بالأسحار
 ومن المنى ما ليس يوفى حقه
 حتى يكون الجود بالأعمار

(٢) تعسّ تطرق ليلاً

(١) آس أى مداو للجروح

فريد ومصطفى :

إني لأذكر مصطفى ورفيقه
متوخياً إعتاق مصر كلاهما
وكلاهما يسعى الغداة مذلاً
وكان مصر حيال كل مخاطر
في قلبها حب الحياة طليقة
وضميرها أنا فأنا يُجتلى
عرفا حقيقتها وبثا بثها
لم يلبثا متآزرين بنية
حتى إذا ما أيقظا إيماتها
أبدت أساها يوم فارق مصطفى

في مستهلها وفي الإبدار
وكلاهما لأخيه خير مبار
سبل النجاح لمقتفى الآثار
إذ ذاك في شغل عن الأخطار
لكنها تخشى أذى الإظهار
فيُرى كما اقتدح الزناد الوارى
ثقة وما كانا من الأيسار
مصدوقة في خفية وجهار
فذكاء ذكاء النور قبل النار
هذا الجوار ورام خير جوار

فريد رئيساً للحزب الوطني :

ذهب الرئيس فسيط عبء مقامه
أفريد هذا الشأو قد أدركته
فتقاض أضعاف الذى قدمته
إن تلتمس جاهها أصب ما تشتهى
والشرق يقبل قد عملت من الأولى
الشعب سبه البحر لا تأمين له
فغداً ويا حذرا لمثلك من غد
يسلو الأولى عبدوك أمس وربما
فتبيت صفر يد وكنت مليتها
لكن أبيت العرض إلا سالما
لم تعتقد إلا الولاء وقد أوى
وسموت عن أن يستملك خادع
فظللت مبدؤك القويم كعهده

بالأنزه الأوفى من الأنصار
وسبقت من جارك في المضمار
واستسق صوب العارض المدرار
أو رفعة فاظفر بالاستيزار
يتحملون غرائب الأعدار
ما أمن مقتعد متون بحار
قد تستفيق ولات حين حذار
كوفئت من عرف بالاستنكار
وتذوق كل مرارة الإقتار
وإن ابتليت بشقوة وضار
لك أن تلبى داعى الإخفار
بالمنصب المزجى أو الدينار
عند الوفاء وفوق الاستئثار

ورسوخ إيمان بالاستمرار
يرنو إليك بمقلة الغدار
والبغى جنّاء على الأطهار
عدت فضائله من الأوزار

تزداد صدق عزيمة براسه
ما إن تبالي ساهراً مترصدًا
يجنى عليك لغير ذنب باغيا
من كان جار السوء يوما جاره

فريد في السجن :

إن السجون معاهد الأحرار
أن اعتقالك مطلق الأفكار
نورًا تضاء به سبيل السارى
فيلوح فوق ذراه ضوء منار
ونرى هدى في وجهك المتوارى
غَنِيَتْ عن الأسماع والأبصار
علم بأن التّم بعد سرار
لزموا التفرد عن رضا وخيار
شظفى المعاش لا بسى الأطمار
لقيام دعوتهم على الأخطار
بعثوا الهدى كالشمس في الإزهار
كلم المهيمن في اصططعاق النار
يسمو به راقٍ من الأنوار
في الغار عن صرعاته في الفار
للنفس حررها بالاستئثار
من أن تمحصهم يد المقدار

قل للرئيس إذا مررت بسجنه
وافيته طوعا ورأيتك ثابت
إن يججوبوك فإن فكرك رافع
كم تحجب الظلمات طودًا شامخًا
إننا لنسمع من سكوتك حكمة
وإذا النفوس تجردت لمرامها
حاشاك أن تأسى وهل تأسى على
الأنبياء انتابهم زمن به
لجأوا إلى الخلوات واحتبسوا بها
مستجمعين مروضين قلوبهم
ومن الغيابات التى أمسوا بها
سل موحشًا في طور سينا سامعًا
سل طيف جلجلة يكاد من الطوى
سل خاليا بحرًا يلبي ربه
بالعزلة اكتملوا ورب مروض
لا شيء أبلغ بالدعاة إلى المنى

فريد في طريق المنفى :

ما فوق غُلّ الجيد والإحصار
أعلى وأغلى صفقة للشارى
شرفا إلى سجن بغير جدار
إلا ليدركه القضاء الجارى

لم يكفه ما كان حتى جاءه
النفى بعد السجن: تلك عقوبة
يسمو بها السجن القريب جداره
لا يترك الجارى عليه حكمه

أى السفائن تستقل كأنها
ينأى بها عن أهله ورفاقه
ينبو ذرا البلد الأمين بمثله
متلفتاً حين الوداع وفي الحشى
متشبعاً متروياً مما يرى
يرنو إلى صُفر الشواطئ مُنطقت
ويذوب قبل الين من شوق إلى
يستاف ما تأقى الصبا بفضوله
وبسمعه لحن المواطن جامعا
لهفى عليه مشرداً قبل الردى
من أجل مصر يؤم كل ميم
لا يوم يسكن فيه من وثب، ومن
في غربة موصولة آلامها
تنتابه الصدمات لا يشكو لها
ثقة بأن الفوز ليس لجازع
وتعضه الفاقات لا يلوح بها
حرصاً على المتطولين بفضلهم

فريد في مرضه:

ما كان هذا الحد حد عذابه
صال الشقاء على فريد صولة
قصرت لياليله على مجهوده
ما بال ذاك الوجه بعد تورّد
ما بال ذاك الوجه بات من الضنى
ما بال ذاك العزم بعد مضائه
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه
أمسى يعالج سكرة في نزعه

إحدى المدائن سيرت ببخار
دامى الفؤاد وشيك الاستعبار
والزاحفات أمانة الأحجار
ما فيه من غصص ومن أكرار
لشفاء مسغبة به وأوار
أعطافها بالأزرق الزخار
أنس الحمى وجماله السحار
من طيب تلك الجنة المعطار
لغة الأنيس إلى لغى الأطيّار
سيهيم في الدنيا بغير قرار
في قومه ويزور كل مزار
بسكينة للكوكب السيار؟
أنضته في الرحلات والأسفار
إلا شكاة المحرب الكرار
في العالمين، الفوز للصبار
عزا ويسترها بستر وقار
أن يجنحوا وجلاً إلى الإقصار

تردى الأسود ضرورة الأخدار
بين الجوانح أنذرت ببوار
واليوم عدن عليه غير قصار
خلع النضارة واكتسى ببهار؟
كالرسم في جرف به منهار؟
عثرت به العلات كل عثار؟
تنتابه هدآت الاستقرار؟
من لم يذق في العمر طقم عقار

ولو استطاع لما أضع دقيقة
وفى بما أعطاه حق بلاده
أمكانه هذا أهلك حليه
أكذاك يختم في الشقاء حياته
ماذا تفى من حقه بعد الذى
إن الذى يبلوه شارى قومه

عظة وفاته:

مات الرئيس فراع مصر وأهلها
مات العصامى العظامى الذى
ما كان بالعالى ولا الجبار

تحية الختام:

أفريد هذا ما يهيه الفدى
نم إن مصرًا عنك راضية وفز
أوتسكت أجزع فانتहित بأنى
لعشيرة فديتها وديار
من شكرها بمتوبة الأخيار
آنست فيك مشيئة للبارى

تحية الشهداء

قال في حفلة أقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية:

إلى أرواح الشهداء

تحية أمها القتلى وتسليما
لا يعبد المرء رباً لا ولاوطناً
قلتم وصدق ما قلتم تحمّلكم
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به
يُحطّم العظم منكم دون بُغيثكم
براً (بمصر) وخوفاً أن يُسلّمها
ليس الشهادة إلا من يموت على
بلغتم الشأ وتخليداً وتعظيماً
بمثل إغلائه القربان تقديماً
أذى يَرُدُّ فِرْنَد الصبر مثلوماً^(١)
من غاصب وانتصاف الشعب مظلوماً
فتصبرون ويأبى العزم تحطيماً
إلى العدى وإهناؤ الإيما تسليماً
حق ومن لا يبالى فيه ما سيم

(١) القرنند: حد السيف.

إمضوا رفاقاً كراماً، حسبكم عوضاً
للمشتري بصباه عز أمته
وللتى استبدلت بالقبر مرتعها
لا تحسبوا مصر تنساكم فكلكمو
وفي المربع من أرواحكم نسّم
مجدّ عزيز على الخطّاب إن رما
ذكر يُديم اسمه بالتبر مرقوما
قسطاً من الفخر فوق العمر تقويما
يبقى على الدهر مروّوما ومرحوما
تظل تأتي بها لأرواح تنسيها

تحية للذين أطلقوا من الاعتقال

وقال في هذه القصيدة مخاطبا من أفرج عنهم من الاعتقال:

يا خارجين كراماً من محابسهم
كم كبّل الحق بالأصفاد من قديم
يا سوء دهر قضته قبل نهضتها
تهى قوى اللئث من عيث الذئاب بها
فاليوم عاد إلى رأى يُشرّفها
دلّت على قوة فيها صلابتكم
هل يجزىء الشكر من ضيم تحمله
قد أثمّوكم وكم من مثلة نزلت
وبعض ما عاقبوكم فيه جعلكمو
لا حاكماً دون ما أوحث ضمائركم
ومبتهجى كلّ قلب كان مغموما
ثم انطوين وياه البطل مهزوما
(مضر) يخيم فيها الذل تخيما
ويلتوى الأمر تحليلاً وتحرّما
من ظن إقليمها للخفض إقليما
تذود عنها الأشداء المقاحيما
بالأس من كان منكمو في رأيه ضيما
بالأبرياء وبالأبرار تأثيما
صدّق الهوى للحمى ديناً وتعليما
تراقبون ولا ترعون محكوما

لقد ظفرت بما أدنى القصي لكم
هل استقام زمان لا يُقومه
أونال حريّة قوم بها جدّوا
من المرام فليس الفوز مزعوما
بنوه بالصبر والإقدام تقويما؟
وهم يبالون تقيلاً وتكليما^(١)

يا سادة كالنجوم النرّ منزلة
وسيدات كعقد الدرّ منظوما

(١) التكليم: التجريح.

حمداً لإقبالكم هذا وحفلتكم
من الأولى ماونوا عن واجب فبنوا
أولتكم إن بدا من فضلهم أثر
فلتحي «مضر» وأبرار نجلهمو
تهنئون الصناديد المقاديا
لعز «مضر» طرافاً^(١) كان مهدوما
فكم لهم من جميل ظل مكتوما
ونحتفى بهم حبا وتكريما

رثاؤه لأمين الرافعي

ومن قصيدة له في رثاء المرحوم أمين الرافعي الذي انتقل إلى جوار ربه في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧. وقد ألفت هذه القصيدة في حفلة تأبينه:

باعوا المخلد بالحطام الفاني
تلك الحياة أمانة أدبتها
بالصبر والإيمان أخلص بنوها
أعرضت عن لذاتها منذ الصبي
متوخيها من دونها أمنيّة
تهوى البلاد ولا هوى لك غيرها
ظلت تنازعك الصرّوف بما بها
مستنزفاً دمك الزكي ولم يرق
في صولة للدهر تعقب صولة
حتى قضيت شهيداً رأيك وانقضى
ويح الأبيّ تسوءه أيامه
ممن يقدم في الرجال وما به
ماذا دهى «الفسطاط» حين تجاوبت
وجلا عن القدر المخبأ ليلها
وشرّيت بالأغلى من الأمان
بتمامها لله والأوطان
وختمها بالصبر والإيمان
والرؤى تغرى والقطوف دواني
لم يوهي وحدتها شتيت أمان
أو تفتدى من ذلّة وهوان
من منّة، وظلت ثبتت جنان
بشباة قرضاب ولا بسنان
منتابة في الآن بعد الآن
ما كنت تلقى دونه وتعاقب
وتسر كل مماذق^(٢) مدعان
إلا الطلاء بكاذب الألوان
أصداؤها لنواك بالإرنان؟^(٣)
وبدا الصباح مقرح الأجفان

(١) الطراف: البيت.

(٢) مماذق: أى غير مخلص.

(٣) الإرنان: رفع الصوت.

خطبُ أَرانأ في مجالأت الفِدى والصدقِ كيف مِصارعُ الشجعان
فالشرق في سَرَقٍ من الدمع الذي أجرى العيون وفاض بالغُدران

* * *

أى «مصطفى» يبكىك قومك كلما عادتهمو ذكرى فتى الفتيان
يوم الوفاء دعا فكنّت لواءه وطليلةً لطليلة الفرسان
هذا شهيدٌ من ولاتك خامسٌ يهوى بحيث هويت في الميدان
لكأثمهم، والموتُ أسوأ مغنمٍ، يتراكضون إليه خيلَ رهان
بذلوا النفوس لله آذلت وأرخصوا ما عزَّ من جاءٍ ومن قُنيان
فإذا دُكرتَ وأنت عنوان الفدى فاسم الرفاق تتممة العنوان

وظل خليل مطران يغرد بشعره ألحان الحرية، ولا ينقطع عن التغريد حتى فاضت روحه
الكريمة مساء ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٩.

* * *

أحمد محرم

١٨٧١ - ١٩٤٥



شاعر ملهم، من شعراء الوطنية والأخلاق، كان أدياء الجليل يضعونه في صف سوقى وحافظ ومطران، وكان سيخ الشعراء إسماعيل صبرى يتغنى بسعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم، وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة، وتذوقه للفن والجمال، وقوة إيمانه، وتأملاته العميقة الفلسفية، واستمساكه طول حياته بمبادئه الوطنية، فكان شعره كله وقفاً على المبادئ، لم ينحرف عنها يوماً في قصيدة أو في أى بيت من الشعر، ظل مقبياً عليها وفيها لها في السراء والضراء، فكان حقاً مثلاً أعلى في الشعر والوطنية، وكان مصطفى كامل يعجب به

وبشعره، ويشيد به على صفحات (اللواء)، ويسميه (نايعة البحيرة)، وبقي أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه، كما ظل وفيّاً لمبادئه الوطنية إلى أن توفاه الله في ١٣ يونيو سنة ١٩٤٥. كان شاعراً بفطرته وسليقته، قال الشعر وهو في سن مبكرة. ومعلّفته التي يقول في مطلعها:

منازل سلمى لا عدتكَ الغنائم وإن درست بالجزع منك المعالم
قد نظمها وهو في السادسة عشرة من عمره.

وطنيته في شعره

تتجلى روحه الوطنية التي ألهمته الشعر أكثر ما تتجلى حين أصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨، فقد أهداه إلى (النيل)، وكتب كلمة الإهداء في عنوان الكتاب (هدية النيل)، وأعقبها بهذا البيت الذي يترجم عن وطنيته الأصيلة مخاطباً النيل قال:

وَهَبْتُكَ مُلْكَ القريض العتيد وذلك أفضل ما يوهبُ

وقال في مقدمة ديوانه يشرح المعنى الذي استوحاه في إهداء ديوانه إلى النيل:

«لقد جرى أكثر الكتاب والشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاؤا من ذوى الثروة

والجاء تعرضاً لموازرتهم والانتفاع بهم وسط هذا الكساد الآخذ بأكظام الأدب في بلادنا، ولكنني انصرفت بشعري عن تلك المواقف، وبرئت إلى نفسي أن آخذ بهذه الأسباب، على ما أعلم من وعورة مسلكي، وضيق مضطربي، وما كنت في ذلك إلا جاريًا على سنتي في سياسة نفسي، وتصريف ما آتى وأدع من أمور الحياة، فما استظهرت بغير أخ حفي، أو صديق صفي، ولا آثرت أن أهدي ديواني إلى غير (النيل)، ذلك الأب الذي وهبني نعمة الحياة، وأفاض عليّ هذه المنح والصلوات.

فيا نيل أنت الهوى والحياة	وأنت الأمير وأنت الأب
ويا نيل أنت الصديق الوفي	وأنت الأخ الأصدق الأطيب
وأنت القريض الذي أقتفى	فيرزى به الشرق والمغرب
فإن أهب الخصب هذه العقول	فما سننت لها تحصب
وإن أنا أطربت هذه النفوس	فصوتك لا صوتي المطرب
تسيل فتدفق الرائعات	وتجري فتستبق الجوب

إلى أن قال:

لئن فاتني الذهب المستفاض	فما فاتني الأدب المذهب
وهبتك مُلك القريض العتيد	وذلك أفضل ما يوهب

وقد ظهر الجزء الثاني من ديوانه سنة ١٩٢٠.

دعوة الوطنية

قال يدعو مواطنيه إلى الإخلاص لبلادهم والعمل على استعادة مجدها:

دعا فائز الساكنين دعاؤه	ونادى فراع الأمنين نداؤه
أخو وصّب ما أن يحم انقضاؤه	وذو أرب ما أن يحين قضاؤه
به من بنى مصر عناء مبرح	فياليت شعري هل يزول عناؤه؟
أما إنه لو كان يُسقى غليله	بكاء على مصر لطل بكائه
تقسّمها الأقوام لا ذو حمية	فيحمي ولا واق فيُرجى وقاؤه
وما مصر إلا موطن نحن أهله	عزيز علينا أرضه وسماؤه

إلى أن قال يستنكر الاحتلال البغيض ويهيب بالأمة أن تحاربه:

ثوى فيه أقوامٌ مللنا ثواءهم ·
 لقد كان يابى أن يذلّ لغاصب
 ويا ربّ ثاو لا يُملُّ ثواؤه
 لقد كان يرعاه رجال أعزّه
 فياليت شعرى أين ضاع إباؤه؟
 هم تاضلوا عنه فصانوا ذماره
 بهم من صروف الدهر كان احتماؤه
 بصارم عزم ما يُردّ مضاهؤه

* * *

بنى وطنى لا تسخطوه عليكم
 بنى وطنى خلّوا التخاذل إنه
 فليس سواءً سخطه ورضاهؤه
 سلامٌ عليكم من أخ ذى حمية
 بلاؤكم يجتاحكم وبلاؤه
 دعى فأثار الساكنين دعاؤه

لواء الوطنية

وقال يمجّد لواء الوطنية ويدعو إلى الالتفاف حوله والتضحية فى سبيله:

فداؤك نفسى من لواء محب
 إذا ما دعى أنصاره التف حوله
 حمى جانبه كل ماضٍ مدرّب
 فمنهم قوّل للصواب مسدّد
 جحا جحة^(١) من ذائد ومذنب
 يدين له الجبار غير معذل
 يصرف صرّاً له وقع أنطب
 ومنهم فعولٌ للمكارم ماجدٌ
 ويعنو له المغوار غير مؤنّب
 هم الصحب صانوا للديار لواءها
 يلبي نداء كل داعٍ مشوّب
 يكرّون كرّ الدارعين إلى الردى
 وصالوا على أعدائها غير هُيّب
 إذا طلبوا حقاً تداعوا فأجلّبوها
 إذا الحرب أبدت عن عبوس مقطب
 على ساليه فانتثوا غير خُيّب

إلى أن قال:

وما منع الأوطان إلا حماؤها
 هم ذخرها المرجو فى كل حادث
 وذادتها من ذى شباب وأشيب
 سلامٌ عليهم من كهول وفتية
 وعُدتها فى كل يوم عَصْبُصَب
 ويورك فيهم من شهود وغُيب

(١) جحاجة جمع جحاج السيد المسارع فى المكارم.

كبوة الشرق

وقال تحت عنوان (كبوة الشرق) يستصرخ أهله ليعيدوا إليه سالف مجده:

متى ينهض الشرق من كبوته	وحتى متى هو فى غفوته؟
كَبَا وكذلك يكبو الجواد	براكبه وهو فى حلبته
ونام كما نام ذو كربة	تقلكه اليأس فى كربتته
وَهَى عَزْمُهُ ما يطيق الحراك	وقد كان كالليث فى وثبته
تَجَرَّ عليه عوادى الخطوب	كلا كلَّها وهو فى غفلته
نواهبٌ ما كان من مجده	سوالبٌ ما كان من عزته

إلى أن قال:

فيالهف قلبى لمجدٍ مضى	ويا شوق نفسى إلى عودته!
وياهف آبائنا الأولين	على الشرق إن ظل فى نكبته
همُ غادروه كروض أريض	تنوق النفوس إلى نضرتته
ونحن تركناه للعاديات	<u>ولم نرع ما ضاع من حرمتته</u>
فأذهبن ما كان من حسنه	وأفنين ما كان من بهجته

* * *

فهل يسمح القول أهل القبور	خطيبٌ فيسهب فى خطبته
يناديهم فيم هذا الرقاد؟	كفى ما دهى الشرق من رقدته
لقد ضاع بعدكمو مجده	وكل المثالب فى ضيعته
وأنتم رجال ذوو نجدة	فلا تقعدوا اليوم عن نجدته

يدعو إلى بعث مصر

وقال يذكر مجد مصر الغابر ويدعو مواطنيه إلى النهوض لاستعادة هذا المجد:

أهذى ديار القوم غيَّرها الدهرُ	فعوجوا عليها نبكها أيها السفر
محي آيها مرَّ العصور وكثرها	إذا مرَّ العصرُ كر من بعده عصر

نسائلها أين استقلّ قطينها
وكائن ترى من ذى ثمانين خَضِبَتْ
بكى وطننا أودت بسالف مجده
أغارَت عليه من جنوب وشمّال

وهل تنطق الدار المعطلة القفر؟
لطول البكا من شبيه الأدمع الحمر
حوادث دهر من خلائقه الغدر
فما برحت حتى أتيح لها النصر

* * *

ألا إنها مصر التى شقيت بنا
مضى عزّها القُدُوسُ^(١) ما يستعيده
هم رقّدوا عنها فطال رقّادهم

فياويح مصر ما الذى لقيت مصر؟
بنوها فلا عزٌّ لديهم ولا فخر
فديتكمو هُبّوا فقد طلع الفجر!

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وقال عن ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ :

نلومك يا يوم النحوس ونعذل
فلا نحن ما عشنا عن اللوم نرعوى

وأنت على ما أنت تمضى وتقبل
ولا أنت ماكرّ الجديدان تحفل

إلى أن قال :

لعلك أن تأتى بما تعد المنى
لحى الله قوماً يحملونا من الأذى
هم خذلوها فاستبيح حريمها

نفوس رجال أوشكت تململ
بما ضيّعوا الأوطان ما ليس يحمل
وما برحت تبغى انتصاراً فتخذل

بهاجم الاحتلال

وقال سنة ١٩٠٢ ينعى على الاحتلال يغيه وعدوانه، وعلى الإنجليز نقضهم للعهود والمواثيق :

فى كل يوم شرعة ونظام
عشرون عاما والديار مريضة
لم يعرف المتطبّبون دواءها

ما هكذا الأحكام والحكام
تنتابها الأدواء والأسقام
فتنوعت فى دائها الأوهام

(١) القُدُوس: القديم.

ترك العليل تذيبه الآلام
حتى يعود الداء وهو عقام
أم كيف يزجى عزها ويرام؟
عنها على زجر المهيب نيام

إن الأساة لتعلم الداء الذى
ولربما غش الطبيب عليه
كيف الشفاء لمصر من أدوائها
والمصلحون كما علمت وأهلها

إلى أن قال مخاطبا بريطانيا:

علما تُنكس تحتَه الأعلام
إن كان منك لِوُثْقٍ إبرام؟
يا هذه، نقضُ العهد حرام
تأقى وتذهب بعدها الأعوام
ليطول لولا الجهل منك مقام

يا دولة رفعت على أوطاننا
أين المواثيق التى أبرمتها
لم تحفلى بعهودنا فنقضتها
عشرون عاما ما كفتك وهكذا
طال المقام وأنتِ أنتِ ولم يكن

وقال يهيب بالأمة أن تهب للجهاد:

ستيلها أيديهم الأيام

غنموا نفائسه ونم بقية

ويدوم منه البر والإكرام
أودى بهاتيك النفوس أوام
ترعى لدى أمثاله الأرحام

عجبا لهذا النيل كيف نعقه
لو كان يجزينا بسوء صنيعنا
لكنها رجمُ الجدود ولم تزل

أبدا يكلف نصحكم ويسام
عنكم وعننا ذلك الضرغام
هبي فقد أودت بك الأحلام
والمرء يُظلم غافلا ويضام
حول الحمى مستيقظون قيام
نومٌ عن الأوطان واستسلام
فعلهم وعلى الديار سلام

يا آل مصر خذوا نصيحة شاعر
لا تغفلوا عنها فليس بغافل
يا أمة خاط الكرى أجفانها
هبي فما يحمى المحارم راقد
هبي فما يغنى رقادك والعدى
شيثان يذهب بالشعوب كلاهما
إلا يحن للراقدين قيام

يدعو إلى البذل والتضحية في سبيل مصر

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٤ بمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية:

من يُسعد الأوطانَ غيرُ بنِها	وينيلها الآمالَ غيرُ ذومها
ليس الكريمُ بمن يرى أوطانه	نَهَبَ العوادى ثم لا يحميها
ترجو بنجدته انقضاء شقائها	وهو الذى بقعوده يشقيها
وتودُ جاهدةً به دفعَ الأذى	عن نفسها وهو الذى يؤذيها
سُبُلُ المكارم للكرام قويمه	فعلام يخطئها الذى يبغيها؟
ما أكثر المتفاخرين وإنما	فخر الكرام باحبت أيديها
يحوى الكريم المالَ لا يبغي به	شيئاً سوى أكرامة يحويها
والجود يُحمد حيث كان وخيره	مانال أوطان الفتى وبنِها
ولقلما أرضى امرؤ أوطانه	حتى تراه بنفسه يفديها

يا آل مصر وما يؤدى حقها	إلا ففى يكفى الذى يعنيهها
هى أمكم لا كان من أبنائها	من لا يواسيها ولا يرضيها
وهبتكم الخيرَ الجزيل فهل فتي	منكم بحسن صنيعها يجزيها؟
سعدت لعمري بالصنائع حقبة	دلّت على (عجل) فمن يتنبها؟
دار الصنائع خير دار تُبتى	فالله يجزى الخير من بينها

يطعن فى الملوك، ويستهن الرتب والألقاب

من قصيدة بعنوان (الشرف والملوك)، وإذا عرفت أنه نظم هذه القصيدة ونشرها سنة ١٩٠٨ فى الجزء الأول من ديوانه، لرأيت أنه أول شاعر وطنى حمل على الرتب والألقاب، وأول من هاجم الملكية والملوك بهذه القوة والشجاعة، فسبق بهذه القصيدة الخالدة عجلة الحوادث بنصف قرن من الزمان، قال:

كذب الملوك ومن يحاول عندهم	سُرْقاً ويزعم أنهم سُرفاء؟
رُتَبٌ وألقاب تغرُّ وما بها	فخرٌ لمحرزها ولا استعلاء

أَنَا تَبَاعٌ وَتَارَةٌ هِيَ خُدْعَةٌ تَمْنَى بِشَرِّ سَعَاتِهَا الْأُمْرَاءُ
 كَمْ رَتْبَةٌ نَعِيمَ الْغَبِيِّ بَنِيْلَهَا مِنْ حَيْثُ جَلَّلَهَا أَسَى وَشَقَاءُ
 لَوْ كَانَ يَعْلَمُ ذُلُّهَا وَهَوَانُهَا مَا طَالَ مِنْهُ الزَّهْوُ وَالْخِيَلَاءُ
 يَلْقَى الْكَرَامَةَ حَيْثُ كَانَ وَفَعْلُهُ جَمُّ الْمَسَاوِيِّ وَالْمَقَالِ هِرَاءُ
 تِلْكَ الْجَهَالَةُ وَالْغُرُورُ وَبَاطِلُ مَا يَصْنَعُ الْأَغْرَارُ وَالْجَهْلَاءُ

* * *

ذَنْبُ الْمُلُوكِ رَمَى الشُّعُوبَ بِنَكْبَةٍ جُلِّيَ تَنْوٍ بِحَمْلِهَا الْغُبْرَاءُ
 لَا الْمَجْدُ بِمَجْدٍ مَا عَبَثَتْ بِهِ أَيْدَى الْمُلُوكِ وَلَا السَّنَاءُ سَنَاءُ
 مَا لَوْ أَنَّ الشَّرْفَ الصِّمِيمَ وَأَحْدَثُوا مَا شَاءَتْ الْأَوْهَامُ وَالْأَهْوَاءُ
 رَفَعُوا لَطْغَامَ عَلَى الْكِرَامِ فَأَشْكَلَتْ قِيَمُ الرِّجَالِ وَرَابَتْ الْأَشْيَاءُ
 وَإِذَا الرِّعَاةُ تَنَكَّبَتْ سَبِيلَ الْهَدْيِ غَوَتْ الْهَدَاةُ وَطَاشَتْ الْحُكْمَاءُ
 وَإِذَا الطَّبِيبُ رَمَى الْعَلِيلَ بِدَائِهِ فَيَمْنُ يَؤْمِلُ أَنْ يَبْلُ الدَّاءُ ؟

* * *

لَوْ جَاوَرَ الشَّرْفُ الْمُلُوكَ لَأَوْرَقَتْ صُمُّ الصُّخُورِ وَضَاءَتْ الظُّلُمَاءُ
 ظَلَمٌ يُبْرِحُ بِالْبَرِيِّ وَغِلَظَةٌ يَشْقَى بِهَا الضُّعْفَاءُ وَالْفُقَرَاءُ
 الْحَقُّ مَنْتَهَكُ الْمَحَارِمِ بَيْنَهُمْ وَالْعَدْلُ وَهُمْ وَالْوَفَاءُ هِبَاءُ
 رَفَعُوا الْعُرُوشَ عَلَى الدِّمَاءِ وَإِنَّمَا تَبْقَى السَّفِينَةُ مَا أَقَامَ الْمَاءُ !

يرثى مصطفى كامل

قال سنة ١٩٠٨ من قصيدة له في رثاء مصطفى كامل :

مَازَلْتَ تَقْتَحِمُ الْمَصَاعِبَ مَجْهَدًا نَفْسًا مَوْطِنَةً عَلَى الْأَهْوَالِ
 حَتَّى طَوَاكَ الْمَوْتُ غَيْرَ مَجَامِلِ شَعْبًا يَجْلُكُ أَيَّامًا إِجْلَالِ
 أَحْيَيْتَهُ وَقَتَلْتَ نَفْسَكَ بِالذِّى حَمَلْتَهَا مِنْ فَادِحِ الْأَثْقَالِ
 هَلَا رَحِمْتَ نَفْسَنَا فَرَحْمَتِهَا وَبَقِيَتْ تَكْفِينُنَا أَذَى الْمَغْتَالِ

وختمها بقوله :

إن كان قد حُمَّ الفراق فوقفة تشفى نفوسا آذنت بزوال
هيهات ما جزع النفوس لراحل سارت به الحدياء غير خيال
سرُّ فالحياة كما علمت رواية محتومة الأدواء بالآجال

يدافع عن حرية الصحافة، ويلوم الخديو عباس

قال من قصيدة له سنة ١٩٠٩ ينعى على الحكومة تقييدها حرية الصحافة، وفيها يوجه اللوم إلى الخديو عباس الثانى فى خذلانه للأمة:

صُبوا المداد وحطّموا الأقاما واطووا الصحف وانزعوا الأفهاما!
وخذوا على الوجدان كل ثنية واقضوا الحياة مزملين نياما
ودعوا البلاد تذوق من عنت العدا ما شاء خادمها الخزون وناما

اليومُ نمنع أن نئن لمؤلم أو نشكى الإعانات والإرغاما
والله لا ندع الشكاية منهم أو ينعوا الأوصاب والآلاما
كيف القرار على الإساءة والأذى أم كيف نكتم فى القلوب ضراما؟
ومتى رضينا أن نعيش أذلة فنطبق مسكنة أو استسلاما؟

إلى أن قال يخاطب الخديو عباس الثانى ويلومه:

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا أفأصبحت حرب الغزاة سلاما؟
الحرب دائرة وجيشك قائم ينضى السيوف ويرفع الأعلاما
والملك مضطرب ومصر كعهدها تدعو الحماة وتشتكى الأقواما
إن كنت خاذلها ولست بفاعل فحمايتها لا يخفرون ذماما^(١)
أتخون مصر وما تحوّل نيلها سماً وما انقلب الضياء ظلاما
نبغى لها الشرف الأسمى مؤيداً بالبأس يؤس صرحه الهداما

(١) يقصد بحمايتها أبناءها المجاهدين.

ونعز رايتها وننزع حوضها ونزيد صادق حبها استحكاما
عباسُ رأيك في البلاد وأهلها أن الأذى يستضرم الأوغاما
إن كان عسف فالزمان مؤرخ يحصى لنا الحسنات والآثاما

* * *

قلمي. كتابي. أمتي. وطني. متى نشفي نفوسا تستطير أواما؟

يندد بملوك الشرق

من قصيدة له سنة ١٩١٢ بعنوان (الملك الزائل) يندد فيها بملوك الشرق لمناسبة ضياع
مراكش بعد توقيع السلطان عبد الحفيظ المعاهدة التي قبل فيها وضع بلاده تحت حماية فرنسا:

هَوَتْ العروش وزُلْزَت زلزالا عرشُ هَوَى وقديم مُلْكٍ زالا
رِيعَتْ لمصره المشارق إذ مَشَى فيها النعْيُ وأجفلت إجمالا
سَلَبَ المغيرُ حياته واستأصلت أيدي الجوائح عِزَّهُ استئصلا
تَنَجُّو الممالك مانجا استقلالها فإذا اضمحلَّ أعارها اضمحلالا
أَيْنَ (الخليفة) ما دهاه وما له؟ أرضى المغيرَ وطاوع الغتالا

* * *

ماقام شعبٌ نام عنه حماته واستشعر التفريط والإهمالا
تأبى العناية أن تصافح أمةً ترضى الهوان وتألف الإذلالا

* * *

قد كان يأنف أن يكون قرينهم ويعددهم لجلاله أمثالا
لعب الغرورُ به فضيَّع ملكه واعتاض منه مذلة وخبالا
وإذا أراد الله شرا بامرئ تبع الغواة وطاوع الجهالا

* * *

أخليفة يعطى البلاد وآخر يهوى القيان ويعشق الجريالا؟
أغرور مفتون وصبوة جاهل بئس (الخلائف) سيرةً وفعالا

فظائع الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى

من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى:

أيها الجند ظافراً يتمشى	في الجماهير معجباً مختالاً
يوم غاب الحماة واستصرخت مصر	ر تنادى الرجال والأبطالاً
أقتلت الكماة في الحرب غلباً ^(١)	أم قتلت النساء والأطفالاً؟
أنصفي (الظالمين) يا (دولة الفا	روق) منا وعلمي (الجهالاً)
علمينا كيف الحياة نُعا	نيها وصوني النفوس والآجالاً
خففي الفتك إتنا قد عيننا	ولقينا في ظلك الأهوالاً
إقبضي ظلك (المحب) عنا	واجعليها عقوبة ونكالاً

إلى أن قال يندد بغدر الاحتلال:

ماذكرنا لكم من الخير شيئاً	مارضينا لكم على الدهر حالاً
نذكر الحكم ظالماً مارأينا	فيه عدلاً ولاوجدنا اعتدالاً
نذكر العهد شيئاً ماعرفنا	فيه حرية ولااستقلالاً
نذكر الشر والبلاء جميعاً	فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالاً
رصعوا (التاج) بالوفاء وحلوا	بجلى الصدق (عزه والجلالاً)
لاتريقوا دم الضعيف عليه	وانظروه من فوقه كيف سالا
أكرموا التاج إنكم إن أبيتم	زاد فينا مهانة وايتذالاً
طال عهد احتلالكم فحسبنا	أن يوم الحساب يدعى احتلالاً

إلى أن قال منذراً الإنجليز بسوء العاقبة:

هل من الله مهرب أونجاة	حين يزجي جنوده والرعالا ^(١)
يأخذ البر والبحار عليكم	ويريكم نزاله والدحالا ^(٢)
تلك عقبى الأذى فلاتنكروها	جاءكم يومكم فذوقوا الوبالاً!

(١) غلباً، جمع سلب.

(٢) الرعال جماعة الخيل.

(٣) الدحال، الامتناع.

فظائع الإنجليز في ثورة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ يندد بفظائع الإنجليز في إخماد الثورة وما ارتكبه من القتل والتنكيل بالأبرياء:

من نكبة تدع النفوس شعاعاً!	ياسوء ما حمل البريدُ ويا لها
يسترسلون إلى المنون سراعاً	ياربِّ ما ذنبُ الذين تتابعوا
صرَّعى وما سألوا العدو صراعاً	جرحى وما حملوا السيوف لغارة
عند النداء بتائها الأسماعاً	قالوا (الحياة) فعوجلوا أن يقرعوا
فارتاب ثم رآهمو فارتاعاً!	(عزريل) نُبئ ما أصاب جموعهم
يدمى القلوب ويقصم الأضلاعاً	مرأى يشق على العيون ومشهد
ألقي عليه من الحياء قناعاً	لما أطل الظلم فيه بوجهه
حتى تراجع طرفه استفظاعاً	ودعا (بنيرون الرحيم) فما رنا
(للمصلحين) مقابراً ورباعاً	وصفو المصاب (لدنشواي) فكبرت
كانوا أبر خلائقاً وطباعاً	واستيقنت أن الأولى نكيت بهم

ومصاب أهلك جاوز المُسطاعا	يامصر خطيئك في الممالك فادح
وتصيههم نُوب الزمان تباعا	قومٌ يَروعهُم البلاء مضاعفا
هوج الحوادث ركنه فتداعى	لاذوا بحسن الصبر حتى زلزلت
وتمور مما تحمل الأوجاعا	حملوا القلوب تفور مما تصطلى
خطب يروّع منهم الأطماعا	إن هاجهم طمع الحياة رمى بهم
حمر خلا الوادى فكن سباعا	وإذا أرادوا نهضة نفرت لهم

يرمون شعباً لا يطبق دفاعا	سفكوا الدماء بريئة وتنمروا
ونظل صرعى في البيوت جياعا	لم يذكرنا إذ نحن نبذل قوتنا
عدلا لمن يألو العدو قراعا	بش الجزاء وربما كان الأذى

جاءوا فقوم يضمرون مودة
فتكافأ الحزبان في حاليلهما
ورضى. وقوم يظهرون خداعا
ومضت حقوق العالمين ضياعا
إلى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقوقه بالمهج والأرواح والإقدام والشجاعة:

<u>لايستقلّ الشعبُ يترك حقه</u>	<u>ويرى البلاد تجارة ومتاعا</u>
يخشى العدو فلا يطيق تشدداً	ويال منه فلا يريد نزاعا
إن الحياة لأمة مقدامية	تعيى العدو شجاعة ومصاعا
تزجى إليه من الحفاظ جحافلا	وتقيم منه معاقلا وقلاعا
إن شامها في الحادثات تفرقا	عقدت على خذلانه الإجماعا
وإذا أراد بها الهزيمة أرهفت	هما يضيق بها الدهاة ذراعاً

* * *

<u>ياربّ مصر تولّ مصر وهب لها</u>	<u>شعباً يريد لها الحياة شجاعا</u>
<u>لو سيم يوماً أن يبيع بلاده</u>	<u>بمالك الدنيا معاً ما باعاً!</u>

يرثى فريدا

من قصيدة له سنة ١٩١٩ يرثى محمد فريد:

أترى الكنانة كيف تعث بالدم	الله للشهداء إن لم ترحم!
أدنى المراتب في الصباية عندهم	تلف المحب وطول وجد المغرم
تزجى تحيتها فيكذب دونها	أمل الملول ومطمع المتبرم
ضل امرؤ قتلته (مصر) فلم يضمن	عهد الولاء لها وحق المنعم
معشوقة يجرى مع الدم جبهها	في قلب نصرانيها والمسلم
بعثته (مصر) مجاهداً ورمّت به	فرمت بجيش للفتوح عرمرم
خاض الغمار يهدّ كل كتيبة	وهز رايات الكمي المعلم
متجرّداً لله يطلب حقه	ويقسم جانب شعبه المتهدم
فإذا القياصر بالأرائك تنقى	وإذا الأرائك بالقياصر تحتفى
كل به فزع وكل جازع	يبقى القرار ولا قرار لمجرم

إلى أن قال:

أرضيت ربك في جهادك فاغنم
إلا كبادىء حجة لم تختتم
ضدان من ماض وآخر محجم
تنفى غرام المطلب المتهجم
أن المنية مركب المتجتم
وصفوك ظلماً بالغريب المعدم
قيست كنوز العالمين بدرهم
ويقين ذى الوجدان أفضل منجم
وارتج ما بين الحطيم وزمزم

يا سيد الشهداء بعد رفيقه
ليس الذى بدأ الجهاد فلم يمت
والناس في شرف الحياة وعزها
وأجل ما رزق الرجال همامة
تتجشم الصعب المخوف وعندها
مأوى الممالك والشعوب ومالها
لك من يقينك ثروة إن قدرت
إيمان ذى الإيمان أعظم ثروة
ضج النعاة فضج كل موحد

ثم قال:

وبرئت من ماضيك إن لم تنقضى
بين المضاجع والشعوب النوم
فامشى على آثارها وترسمى
خلق المريب وشيمة المتوهم
إلا مراقبة العدى واللوم

يا مصر حسبك مارضيت من الأذى
إن التى رمت الممالك باعدت
الأر تركض بالشعوب حثيثة
إن كان قيدك لم يحلّ فإنه
سيرى فما بك غير تلك وما بنا

الله جارك فاغتبط وتنعم
نلقى الهموم بكل أغلب أضخم
لفداء (مصر) من المهم المؤلم
وقضيت من حق عليك محتم
ودعت مسلمة عليك فسلم
وكفيت سوء الذكر من لم يخدم
إلا إذا نال السساء بسلم
والحر مؤتمن وإن لم يقسم

يا نازحاً لم نقض حق بلائه
وانقض همومك عن فؤادك إننا
إن المناكب والنفوس بأسرها
ماذا حفظت لأهلها من حرمة
حيثك (مصر) على البعاد فحيها
جاوزت حسن الصنع في خدامها
كذب المضلل لن ينالك سعيه
أقسمت مالك في جهادك مشبه

مازلت تسرف في المغارم دائباً
أى القواضب بعد ما قطع الطبا
رددت صوتي في الرثاء وإنما
حيثك في الملاء العلى وأزلفت
أسفى لأوبة راحل لم تقضها
حتى جعلت النفس آخر مغرم
ولوى الأسنة في الوغى لم يثلم
رددت من صوت الكنانة في فمي
حور الجنان إليك شعر (مخرم)
عدة المنى وتحية لم تنظم

ذكرى فريد

وقال سنة ١٩٢٢ في ذكرى محمد فريد:

ألا فاذكروا من قومنا كل مقدم
وما الناس إلا الخالدون على البلى
هم ثروة الأجيال لولا هم انطوت
إذا المرء لم يعمل لما بعد يومه
ففى هذه الذكرى حياة لأقوام
وصرف الليالي من هداة وأعلام
على فاقة ما تستطيع وإعدام
طوى كل حي ذكره بعد أيام

سلام على الحى المقيم وإن طوى
على الكوكب الطافى على لجّة الردى
إلى المنزل الأقصى ثلاثة أعوام
إذا ما طوى الأقمار طوفانه الطامى

ألا فاذكروا الأبطال وابتدروا الوغى
هى الوثبة الأولى وإن وراءها
وكونوا أولى بأس شديد وإقدام
لما يستجيش الوثب من كل ضرغام

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له في ذكره:

جددوا الذكرى لأهل المشرق
يعشق المجد فان لجّت به
علّموه كيف يقضى حقّه
وأروه السبيل ناراً ودماً
وصّفوا المجد لشعب شيق
لوعة الوجد تنحى يتقى
نابه الموقف حرّ المصدق
من يهب فيها المنايا يصعق
ليظن السبيل من إستبرق
مزقوا الأوهام عنه إنه

إلى أن قال:

يا (شهيد النيل) لو ناجيته
شاقه الصوت البعيد المرتقى
وشجاءه أن يرى صمصامه
جاشت الأحداث تستقصى المدى
لشفاه منك عذب المنطق
والمقام الكسروى الرونق
غير وضاح السناء فى المأزق
وارتمت من كل صوب تلتقى

إلى أن يندد بانقسام الأحزاب وبمساوئ الحكم القائم وقتئذ (نوفمبر سنة ١٩٢٥) حكم الرجعية والسراى:

سائل الأحزاب ماذا عندها
وتأمل هل ترى اليوم سوى
فات (نيرون) رجال رزقوا
لو جرى (فرعون) أو (هامانه)
سجنوا الدستور طفلاً ناعماً
لاجرى (النيل) على الوادى ولا
غير ترجاف وهم مقلق
دولة فوضى وحكم أخرق
من فنون الظلم ما لم يرزق
يتعاطى شأوهم لم يلحق
واستبدوا بالسجين الموثق
بورك الشعب إذا لم يُطلق

تلك ذكرى (النيل) للنفس التى
هى عين من حياة عذبة
فزعت مصر إلى أبطالها
سائل القوم أما من غيبة
لا أرى النجدة إلا فى الأولى
ننصر الله ونحمى أمة
همة المقدام من آلائها
عكف (النيل) عليها يستقى
فى يفاع من سناء مشرق
فالبس النقع ويسر فى الفيلق
لذمام صادق أو موثق
هم أولو العهد الأبر الأصدق
نحن منها فى الصميم المعرق
وبيان العبقرى المفلق

الحالة السياسية سنة ١٩٢٥

فى سنة ١٩٢٥ عين اللود جورج لويد معتمداً (مندوباً سامياً) لبريطانيا فى مصر خلفاً للمارشال أللبنى الذى استقال من منصبه، وقد حضر المعتمد الجديد إلى مصر فى أكتوبر

سنة ١٩٢٥، فنظم أحمد محرم قصيدة يخاطبه فيها ويحذره مغبة السياسة الاستعمارية، وفيها يتدد بانقسام الزعماء وتنكبهم سبيل الإخلاص والسداد، وهيب بالأمة ألا تقع في شرك الاستعمار ومناوراتهم، وأن تصمد في الجهاد. قال:

أَسْأَلُ مِصْرَ مَا حَمَلَ (العميد)	وهل عند الرماة لها جديد؟
هو السهم الذي عرفته قدما	وَجَرَّبَ وَقَعَهُ الشَّعْبُ الْوَثِيدَ
تَمَرَّدَ مَبْدِئُ وَطْغَى مَعِيدِ	ولم تزل الرميّة تستزيد
(مسيح الهند) إن بصر شعبا	يشق عليك إن خضع الهنود
فما نظر المسالم أين تبغى	ولا عرف المساوم ما تريد
<u>دع الزعماء إن لهم لَدِينًا</u>	<u>يدين بغيره الشعبُ الرشيد</u>
إذا ذكروا الزعامة فهي دعوى	يكيد بها (الكثانة) من يكيد
ولا تبقى البلاد إذا أصيبت	بمن يبغى الزعامة يستفيد
<u>لمن تتألب (الأحزاب) شتى</u>	<u>وما هذى الصواعق والرعود؟</u>
<u>تداعوا للوغى فهو صريعا</u>	<u>على أيديهم الوطنُ الشهيد</u>
مضت أسلابه تُزَجَّى إليهم	فمأتمّة لدى الأقوام عيد
إذا ساد التخاذل في أناس	فأعوز ما ترى شعبٌ يسود

إلى أن قال:

عميدَ (الغاصبين) نزلت أرضا	يبيد الغاصبون ولا تبيد
يزود الواحد القهار عنها	إذا قهرت جنودك من يزود
أتذكر إذ لقومك ما أرادوا	وإذ (لكرومر) البطش الشديد
تطوف جنوده فتصيد منا	ومن سرب الحماثم ما تصيد
أتذكر (دنشواي) وكيف كادت	جوانبها بأهلها تميد
تضج من العذاب ولا سبيل	إلى غير العذاب ولا تحيد

إلى أن قال مشيرا إلى طغيان كرومر وكيف أكرهته مصر على الاستقالة من منصبه:

سيوف الجند مظهر كل حق	ورأى (كرومر) الرأي السديد
أتذكر إذ نعاتبه فيطغى	وهدر في مقالاته الوعيد ^(١)

(١) يسير إلى خطبته سنة ١٩٠٧ قبيل رحيله عن مصر وقد توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال

أخذناه بقارعة ألحَّتْ
 صدعنا ركنه فانقضَّ هوى
 هوى جبلٍ من العدوان عالٍ
 ونحن القائمون بحق مصر
 ونحن المقبلون على المنايا
 نضن بمصر إن عدت العوادي
 هي الذم المصونة والعود
 عليه فزال واشتفت الكبود
 وذاب الصخر أجمع والحديد
 وزلزل للأذى صرْحُ مشيد
 إذا ما استسلم القوم القعود
 إذا الأبطال كان لهم صدود
 ولكنا بأنفسنا نجود
 فما ينبغي (كرومر) أو (لويْدُ)

* * *

أخا (السكسون) هل نبئت أنا
 لقد كذبوا عليك فليس فينا
 إذا سمعت (الوفود) إليك فاحذر
 فما أجد بمالك أمر مصر
 مضت دنيا القيود وتلك دنيا
 حينما ماحى الآباء قدما
 بلاد ما تباع وباقيات
 جلاوذة لقومك أو عبيد
 لمن ينبغي الهزيمة مستقيده
 عواقب ما تقول لك (الوفود)
 وما بالشعب جبنٌ أو جمود
 تُذمُّ بها وتُحتقر القيود
 وصان لنا وللتنيل الحدود
 من الآثار معدنها الخلود

يدعو إلى اليقظة السياسية، ويندد بالتراخي في الوطنية

قال سنة ١٩٢٧ من قصيدة في (الشعر السياسي):

تسعى الشعوب ونحن في غفلتنا
 ركبوا متون العاصفات وشأننا
 نأبى الفعال ونكثر الأقوالا
 أن نركب الأوهام والآمالا

* * *

يا باعث الموقى ليوم معادها
 أعد الحياة لأمة أودت بها
 وأضئ لها سُبُل النجاة ليهتدى
 وتوَلَّها بالصالحات ولقَّها
 تنساب من أجدانها أرسالا
 غفلاتها فَنُوت سنين طوالا
 من زاغ عن وُضُح الطريق ومالا
 منك الأمان ووقها الأوجالا

وَأَمْنٌ عَلَيْهَا مِنْ لَدُنْكَ بِقُوَّةٍ تَوْهَى الْقِيُودَ وَتَصُدِّعُ الْأَغْلَالَ
 وَاجْمَعْ عَلَى صَدَقِ الْإِخَاءِ فِضَاظَنَا فَلَقَدْ تَفَرَّقَ يَمِينَةُ وَشِمَالَا
 أَوْدَى بَنَا بَيْنَ الشُّعُوبِ تَبَاغُضٌ صَدَعَ الْقُلُوبَ وَمَزَّقَ الْأَوْصَالَ
 تَسْتَفْحِلُ النُّكَبَاتُ بَيْنَ ظَهُورِنَا وَيَزِيدُ مَعْضِلَ دَائِنَا اسْتَفْحَالَ
 اللَّهُ يَحْكُمُ فِي الْمَالِكِ وَحْدَهُ وَيَصْرِفُ الْأَقْدَارَ وَالْأَجَالَ

إلى الشعب

وقال سنة ١٩٢٧ في هذا المعنى موجها الخطاب إلى الشعب:

ادفع بنفسك لا تكن منهيبا ما اعتر في الأقوام من يتهيب
 شرف الحياة وعزها لمغامر يمضي فلا يلوى ولا يتنكب
 أشرع لأمتك الحياة ولا يكن لك في حياتك غير ذلك مأرب

مصر الحياة وحبها الشرف الذى بطرازة الغالى أدل وأعجب
 نفسى وما ملكت يدائى لأمتى وسراة آبائى ومن أنا منجب
 أبئى إنك لبلاد وإنها لك بعد والدك التراث الطيب
 شمر إزارك أن نُدبت لنصرها إن الكريم لمثل ذلك يندب
 ما لمراء إلا قوميه وبلاده فانظر إلى أى المواطن تنسب
 ليس التعصب للرجال معرة إن الكريم لقومه يتعصب
 للمرء من شرف العشيرة زاجر ومن الخلال الصالحات مؤدب

حكم التاريخ

من أنعم التاريخ أن حسابه حق وأن قضاءه لا يُشجِب
 تقف الخلائق تحت راية عدله فيقام ميزان الحقوق ويُنصب
 في موقف جلال تجيش جموعه فيداس فيه متوج ومُعَصَّب
 ملك الزمان فما لعصر موئل يحميه منه وما لجليل مهرب

يخاطب النيل

يانيل والموفون فيك قلائل ليت الزعاف لمن يخونك مشرب
 قُتل الوفاء فما غضبت وإغما يحمي الحقيقة من يغار ويغضب
 تهب الحياة له وليس لقاتل في غير حكمك من حياة توهب
 من لي بشعب في الكنانة لا القوى تنشق منه ولا الهوى يتشعب
 متألب ينبغي الحياة كأنه جيش على أعدائه يتألب
 أين الرجال العاملون فإنما تبقى المماك بالرجال وتذهب

وطن يعذب في الجحيم فلسطين الشهيدة

من قصيدة نظمها سنة ١٩٣٨ عن مأساة فلسطين:

لبيك يا (وطن الجهاد) ومرحبا لبيك إذ بلغ البلاء وإذ أبي
 من ذا يرى دمه أعز مكانة من أن يُخضب من (فلسطين) الرُّبى
 وطن يُعذب في الجحيم وأمة أعز علينا أن تُصاب وتكبا
 بقلوبنا الحرى وفي أحشائنا ما شب من أشجانها وتلهبا
 وبنا من الألم المبرح ما بها وأرى الذى تلقى أشد وأصعبا
 نتجرع البلوى وندرع الأسى نرعى لإخوتنا الدمام الأقربا
إننا لنعلم أن آكل لحمهم سيخوض منا في الدماء ليشربا
 جعلوا الكفاح عن العروبة حرثهم وتعهده فکان حرثا طيبا
 يسقون مازرعوا دما في مخضب لولا الدم الجارى لأصبح مجدبا
 (البيت) يطرب من أين جراحهم أرايت في الدنيا أنينا مطربا؟

وقال يحمل ساسة بريطانيا وأمريكا مسئولية مأساة فلسطين:

إن الذى زعم السلام مُراذه جعل الدماء سبيله والمركبا
 إن كان قد غمر الزمان وأهله كذبا فمن عاداته أن يكذبا

أرأيت إذ سكب الدموع غزيرةً
متصّنعٌ باسم الضعيف يُريقُها
ما كان أصدق نُسكه لو أنه
يَهْدِي بِذِكْرِ الْعَدْلِ فِي صَلَوَاتِهِ
بأبي الحياء لثُلْها أن يُسكبا
وهو الذي تَرَكَ الضعيف مُعَذِّباً
رحمَ البريء ولم يُحَايِ المذنباً
أرأيت عدلاً بالدماء مُحَضَّباً؟

وقال يهب بالأُمم العربية أن تهب لنجدة فلسطين:

رُسِّل العروبة هل أُسيتم جُرحها
جُرحٌ تقادم عهده وتفتحت
أنتم أساءة الجُرح فاتَّخِذُوا له
وصفَ الدواء لكم وخَلَفَ عِلْمُه
ما باله استعصى وماذا أعقبا؟
أفواهه تدعو الأساءة الغُيبا
مِنْ طِبِّ شَيْخٍ أُسَاتِكُمْ ما جَرَّبا
فيكم فأين يريد منكم من أبى؟

يا قومُ لستم بالضعاف فغامروا
أفما كفاكم قوّة من دينكم
يا (آلَ يَعْرَب) مَنْ يَرِينِي (خالدا)
من شاء منكم فَلْيَكُنْهُ ولا يقل
السُّرُّ باقٍ والزمانُ مجدّد
وخذوا مطالبكم سراعاً وثباً
ما جَمَعَ الإِيْمان فيه وألباً
يُزَجِّجِي الخَمِيس ويستحث المِقْنِبا
ذهب القديمُ، فإنه لن يذهب
والسيفُ ما فقد المضاء ولا نبأ

رُدُّوا المظالم عن محارم أمة
لم يَعْطِ أوطانَ العروبة حقها
رُدَّتْ ظُنُون ذوى الجهالة خُبياً
من كان يطمع أن تُبَاعَ وتوهبا

يشفق على الفلاح

ومن قصيدة له بعنوان (رحلة عابسة) سنة ١٩٤٠، وقد مر ببعض القرى وتحركت شاعريته
إشفاقاً على الفلاح. قال:

وئلى على فلاح مَصرَ أماكفى
يُغْنِي أُلُوفَ الْمُتَرْفِينَ بِماله
سبحان من شرع السبيل لخالقه
ما ذاق من عنتٍ ومن إرهاق
ويعيش فى فَقْرٍ وفى إِملاق
أكذا يكون تفاوت الأرزاق؟

أحمد نسيم

١٨٨٠ - ١٩٣٨



شاعر مبدع، من أعلام الشعر الوطني، يمتاز بجذالة الأسلوب، وتدقق المعاني والأحاسيس الوطنية في قصائده، لا يقل شعره رواء وحسن ديباجة عن شعر شوقي وحافظ وأحمد محرم.

ولد سنة ١٨٨٠، واعتنق منذ صباه مبادئ الوطنية، وتجلت مواهبه الأدبية وهو في سن مبكرة، فامتزجت الوطنية بروحه الشعاعية، وتمشت في قصائده الغر، وأضفت عليها جمالا ورونقا وبهاء، وجعلت لها رنيناً موسيقياً يأخذ بمجامع القلوب.

سمى (شاعر الحزب الوطني)، واعتز هو بهذا اللقب، وسجله في ديباجة ديوانه الذي ظهر في جزئين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٠، وأهداه إلى المرحوم محمد فريد زعيم الحزب الوطني إذ ذاك، قال في كلمة الإهداء:

رئيسي المحبوب

«أما بعد فأني أتشرف بإهداء الجزء الثاني من ديواني إلى سعادتكم لاحتوائه على القصائد الوطنية التي نظمتموها ما بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ميلادية، وقد اعتمدت في نقلها على الصحف التي تفضلت بنشرها مبكراً ديباجتها كما هي حتى لا يغرب عن ذهن القارئ على مدى الأيام وصف الحادث الذي نظمت القصيدة بسببه».

«وإني إذا أهديت ديواني إلى سعادتكم فكأني أهديته إلى الأمة المصرية التي يمثلها حزبكم الموقر».

أحمد نسيم

شاعر الحزب الوطني

ويعدّ نسيم ثاني الطبقة الأولى من شعواء الحزب الوطني، وأولهم أحمد محرم، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف الذي سنتحدث عنه فيما يلي، وجميعهم تبدأ أسماؤهم (بأحمد).

وتبدو مكانة نسيم الممتازة في عالم الشعر من قول إسماعيل صبرى شيخ الشعراء في تقريظ الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨ :

لَكَ فِي الشَّعْرِ يَا (نَسِيمُ) مَعَانٍ بَاهِرَاتٌ تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ
كُلُّ بَيْتٍ يُطْلَى مِنْهُ عَلَى أَفْهَامِ أَهْلِ النُّهَى مُحِيًّا جَمِيلٌ

ولما ظهر الجزء الثانى سنة ١٩١٠ قرظه صبرى أيضًا ببيتين آخرين رقيقين قال :

أَيُّ غُصْنٍ فِي الرُّوْضِ هَزُّ (نَسِيمُ) نُثِرَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْأَزْهَارُ
حَبِذَا شَعْرُهُ الْجَنَى وَأَهْلًا بَبِيَانٌ تُزْهِى بِهِ الْأَشْعَارُ

يؤيد مصطفى كامل في قطع علاقته بالخديو

قال نسيم مخاطبًا مصطفى كامل بمناسبة كتابه إلى الخديو عباس الثانى بقطع علاقته به سنة ١٩٠٤ :

خطيبَ الشرق لا تلوى العنانا	فأنت المرء أوقرهم جنانا
وأمضاهم إذا كتبوا يراعًا	وأذلّهم إذا نطقوا لسانا
لقد دافعتَ دهرًا عن بلاد	قد افتخرت بمديرها زمانا
وكم رُمّت العلاء لقوم مصر	وكنت أشد من فيها جنانا
بقلب عافَ أرزاء الليالى	كما عافَ المذلة والهوانا

* * *

وجانبتَ الأمير وأنت تنوى	فعالا لا يكون بها مُدانَا
وكم من فُرقةٍ صعبتَ فهانت	وكم من طارىءٍ أخفى فهانا
فزِدْنَا مصطفىَ وازدد ثباتنا	يَرُدُّكَ القومُ شكرًا وامتنانا
مدحتك لا لجائزة ولكن	وجدتك خير من يُهدى البيانَا
هدية شاعرٍ اظَل يُطرى	ويمدح فيك أخلاقا حسانَا
فكن للشرق ساعده المرجى	تزرِك قصائدى أنا فأنَا

يهاجم المعتمد البريطاني

ومن قوله سنة ١٩٠٧ مخاطبا اللورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر بعد خطبته التي هاجم فيها المصريين والإسلام:

يا لورد هل لك في الإسلام من غرضٍ	ترمى إليه بسهم منك مسنونٍ؟
هجوَت قومي وما فارقت أرضهم	حتى تجرأت أن تنحى على الدين
رأيتُ أنك لست المرء تصلحنا	ولست فينا على مصر بأمون
غادرتها وهي للتقرير صارخةٌ	إلى الإله بقلب منك مخزون
فلا رماك الحيا إلا بداجنةٍ	تهمى عليك بزقوم وغسلين

يمجد الشرق ويحزن لحالته

قال يمجّد الشرق ومصر ويحزن لحالتها:

تَدَاعَتْ رواسي الشرق فانهار جانبه	وما همّ حتى أقعدته نوائبه
تحاربه الأعداء من كل جانب	ولم يكفهم أن الزمان يحاربه
تحدّ على هاماته شفراته	وترهف فوق الناصيات قواضيه
وحسبك أن الشرق في كل أمة	مآثره مشهورة ومناقبه
تخرّج منه الفاتحون لأرضه	فماجت به بطحاؤه وسباسبه
وكم كان للشمس المضيئة مطلقا	أفق معالٍ لا تغيب كواكبه

إلى أن قال:

وما الشرق إلا موطن عبثت به	على غرة أبنائه وأجانبه
أضاعوا حمى يجرى النصار بأرضه	وتهمى عليه باللجين سحائبه

يهاجم أسرة محمد على

وقال سنة ١٩٠٨ يخاطب مصر ويهاجم أسرة محمد على وهي في إبان سلطاتها:

رَثَيْتُكَ يا أرض الفراعنة الألى	قضوا في بلوغ المجد ما الحق واجبُه
ورنتِ بفضل العلم عزّا ممنعا	فما بات إلا وابن غيرك غاصبه

ولا خير في عرشٍ من الغرب رَبِّهِ
أفريقي فما في الجهل إلا مذلة
أنيرى ظلام الشرق بعد انسداله
ولا تقنطى من رحمة الله مرة
وددت بلادى أن تسود بنفسها
ولا خير في مال من الغرب كاسبه
ولا العلم إلا سؤدد عزِّ صاحبه
فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه
إذا شيم من برق انخدالك خالبه
لأكتب فيها خير ما أنا كاتبه!

يدعو الأمة إلى الجهاد

ومن قوله سنة ١٩٠٨ يدعو الأمة إلى الجهاد والذود عن حقوقها واستقلالها:

هَلَمْ ندافع جهدنا عن بلادنا
كذلكم الرئبال تعروه سورة
ومن فقد استقلاله عاش هينا
هلم نخض غمر الصعاب إلى العلا
عسى يسعد الجد الذى مال نجمه
ألم نك كال يونان أهلاً لمجلس
ألم نك كالبلغار والصرب فى الحجا
ألم نك أرقى من ممالك لم تقم
أليست بلاد النيل أول أمة
علوم وأخلاق وفضل وهمة

وقال يفند مطاعن كرومر على المصريين:

فحتام ذياك العميد ينوشنا
فطوراً يعاديننا بتقرير كاشح
وباليتة ردّ الدليل بمثله
إذا عجز المهور عن قهر خصمه
بناجذ سرحان وظفر عقا
وطوراً يناوينا بنشر كتاب
وخفض من طعن له وضراب
لدى البطش لم يلجأ لغير سباب

يرثى مصطفى كامل

وقال سنة ١٩٠٨ فى رثاء مصطفى كامل من قصيدة تزيد على ستين بيتا:

ما بال دمعك لا هام ولا جارى
هل اكتفيت بما فى القلب من نار؟

جفّت دموعك من عينيك واستترت
ضاع الصواب ونفس المرء ساهمة
فيها لواعج أحزان وأكدار
ما بين أقضية تجرى وأقدار

يا طائر البين لا قرّبت من سكنٍ
نعيت خير فتى كنا نؤمله
ولا هدأت بأفنان وأوكار
فليمرح الذئب ما شاءت مهانته
يوم الرجاء لأوطان وأوطار
لا أيّد الله أعداء أذلهم
فقد غفّت عنه عين الضيغم الضارى
حتى أقاموا بدار الذل والعار

يا بائع الصبر إن الناس في جزع
ما زال يدأب حتى خانته قدر
فبع لهم كل مثقال بدينار
ألقي عليه عصا دأب وتسيار

وقال يصف الجنّاة واحتشاد الجموع فيها:

أعزّز على حامله فوق أعينهم
كأنما النعش عرش زانه ملك
أن يرجعوا بأكف منه أصفار
كأنما الناس حول النعش مائجة
يمشى الهوينا بإحلال وإكبار
فلو يعدّون ما أوفى بهم عدد
أمواج مضطرب الآذنى زخّار
كأنما لجب الباكين من هلع
كصيب القطر لا يحصى بمقدار
كأنما الأرض قد سدّت طرائقها
هزيم رعد أجش الصوت هذار
بالناس من ثابت فيها وسيار

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩٠٨ في رثائه:

أملّ نأى عن أرض مصر وزالا
يا نائبا عنا وكنت محسدا
أصمى القلوب وقطّع الأوصالا
مدّت إليك يد المنون فأنشبت
فيها كما كنت الشريف فعلا
بقلوبنا قضبا لها ونصلا

إلى أن قال:

إننا سنبقى ذكر فضلك خالدا
قد كنت أفضل من يذود لسانه
لنكون في صدق الوفاء مثالا
فليسق شؤبوب الحيا لك موحشا
عنا وأصدق من يقول مقالا
قد ضم مجدا بينه وجلالا

يؤيد فريداً في جهاده

قال سنة ١٩٠٨ مخاطباً محمد فريد رئيس الحزب الوطنى مؤيداً له في جهاده:

إجهر برأيك إن الحق قد غلباً	هذا يراعك يحكى السيف ما كتباً
أرى المضلين قد زاغت بصائرهم	ومن يظن الدجى صباحاً فقد كذباً
سِرْ في طريقك لا تحفل بذيهم	ولا يهزك مغرور إذا غضباً
لأنك ترجو افتقاراً منهم نشباً	ولا تؤمل من إحسانهم رتباً
لازلت بالحق بين القوم تخذلهم	حتى تراهم وكل في الوغى هرباً
فاهزم كتابهم وافلل مضاربهم	واسلل يراعك واكتب عنهم العجباً

يندد بوزارة مصطفى فهمى

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بوزارة مصطفى فهمى على أثر سقوطها، وكانت موالية للاحتلال:

ما للوزارة ذات الضعف والفشل	باتت على دارس أعفى من الطلل؟
وزارة بلغت بالوهن غايتها	في كل نائبة أوحادث جلل
ترحلت غير مبكى على أحد	وودعت غير مأسوف على رجل
إن زال مجد الفتى أو زال منصبه	فذكره بعد في التاريخ لم يزل
يا هيئة الصم بيني غير راجعة	إلى جمودك في أيامك الأول
وزارة مالها في الخير صالحة	ولا على صولة الأيام من قبل
كانت تماثيل بين القوم قائمة	<u>بلا لسان ولا قلب ولا عمل</u>

يندد بالخديو عباس

وقال في ديسمبر سنة ١٩٠٨ حين تنكر الخديو عباس الثانى للحركة الوطنية، وحيل بين جموع الشعب والأقتراب من موكله لمطالبته بالدستور:

خطوب ما لها أبداً نصير	وأمر حل في مصر خطير
لئن كُرهت حياة الشعب يوماً	فخير لو تفتحت القبور

أياربُ الأريكة قد رضىنا بأنك لا تُزار ولا تزور
وهبنا نطلب الدستور جهرا ألا يرضيك ذياك الشعور؟
أغيرك في الملوك وأنت أدرى له شعبٌ على البلوى صبور؟
فهل خدعتك في البهتان ناس أرادوا أن يسوء بنا المصير؟
(أمر يضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها الخبير)

يمجد الوطنية في رأس السنة الهجرية

وقال سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٧) الذى أقامته لجنة الحزب الوطنى الفرعية ببولاق بمدرسة الشعب يمجّد الوطنية ويخاطب فريداً:

قد مثلونا في التعصب مثلاً قد شاءت الآثام والأوزار
كذبٌ قد أبتدعوه حتى ما لهم في مصر إلا الكيد والإضرار
بان الضلال من الهدى وبدا لنا في منهج الحق القديم منار
يا أمة ثبتت على كيد العدى لا تجزعى إن الثبات فخار
سيرى إلى طلب (الجللاء) ولاتنى تمنح من العلياء مانختار
أفريد لا تخذل بلادك بعدما جمعت لديك أولئك الأنصار
هذى الشبيبة قل لها لا تحجمى مافى ثبات المتقدمين شنار
لك من يراع الكاتبين صوارم ولديك منهم جحفل جرار
ترمى العداة إليك سهم سموها ويذود عنك الواحد القهار
دعهم كما شاءوا ليوم حسابهم فلهم كما شاء الهوى أطوار
إننا قد اخترناك خير مدافع يرضى به الرحمن والمختار

وفي سنة ١٩١١ ألقى قصيدة أخرى في تحية السنة الهجرية (١٣٢٩) بالاحتفال الذى أقامته الطلبة لهذه المناسبة بدار التمثيل العربى يوم أول يناير سنة ١٩١١، وقد حضره المرحوم محمد فريد، وأشار الشاعر في مطلع قصيدته إلى ما أصاب الحركة الوطنية من اضطهاد في العام السابق. قال:

تجلى العام فاستجلوا الهللا فإني شمتُهُ للسعد فالأ
سأطريه متى عزت بلادى وقد رزقت كما رزق الكمالا

وأمدحه متى قمنا بمصر
فأما والبلاد وساكنوها
فلست بناظم فيه قريضا
ولا أنا قائل فيه مقالا

* * *

إلا نطالب الأعوام خيراً
لم تنعم لنا الأعوام بالآ؟
تمر وتنقضى منها ليال
بأرزاء الزمان غدت حبال
وتلك ممالك الإسلام كادت
صروف الدهر تجلبها خبالا
فلست أخصها بالذكر عنا
ونحن من البلاء أشد حالا

* * *

أيا عاماً تقضى بشس سهم
رمى به الغوائى والرجالا
فقالوا هل صروف العام كانت
نزعاً قلت بل كانت نزالا
هموم لو رشت بها فزاداً
لكانت في جوانبه نبالا
لقد حملتنا للضيم عبنا
ثقيلا لا نطبق له احتمالا
وقد أجريت دمع القوم حتى
كأنا كلنا قوم ثكالى
ولولا ذكر أحمد^(١) كل عام
لما صغنا لك الذكر الحلالا

المضى في الجهاد

أرى فرقا قد افتقرت بمصر
ورامت عن أوصلها انفصالا
أناس أخلصوا من بعد زبغ
وثابوا بعد أن ألفوا الضلالا
وأقوام قد أرتدوا جهاراً
فساءوا في عواقبهم مآلا
وقال الناكصون كفى غلوا
ولاً ذقتهم منه الوبالا
خلاتق في الكارم لم يمدوا
يمينا للفعال ولا شمالا
أولئك عصبة بالخزى باءوا
فسموا الخزى والجبن اعتدالا

(١) يقصد الرسول ﷺ.

وقال يخاطب الشباب :

غَدُوا للنشء بعدهم مثالا	أنابتة البلاد وخير نشء
عرى القُرْبَى فتنخذلوا انخذالا	عليكم بالإخاء ولا تَفَلُّوا
إذا لم تحسنوا عنه النضالا	سيندب حظه الوطن المفدى
ولا تشكوا السامة والكلالا	فجدوا في علومكم صفارا
بلا علم فقد رام المحالا	فمن رام الكواكب والدرارى
فلا تنسوا بربكم القتالا	وإن صرتم رجال النيل يوما
حصيف واجعلوا الحسنى جدالا	وذودوا عنه ما اسطعتم برأى
على رغم الخطوب ولن يزالا	وما زال الرئيس ^(١) لكم كفيلا
تزيدوا عروة الود اتصالا	وكونوا للأجانب خير عون
مَحَوْتُم عنكم قبيلا وقالا	إذا عشتهم وإياهم بخير
نسيم في قصيدته تغالى	لقد أوجزت خيفة أن يقولوا:

الجهاد في سبيل الدستور

وقال يستحث الأمة على طلب الدستور وعلى الاتحاد والثبات في ميدان الجهاد:

عنكم شفار الطبا مخضوبةٌ بدم	فلاتفكوا عرى القُرْبَى ولورجعت
فتقرعوا السن من ذلٍ ومن ندم	ولاتضيعوا من الدستور فرصته
أوتسأموا فاحتمال الذل في السأم	إن تياسوا فانتهاه اليأس مسكنة
قومٌ نيامٌ وشعبٌ غير ملتئم	ما نال قط المعاني وهى دانية
مع الهوان إذا كنتم ذوى شمم	خيرٌ لنا الموت من عيش نكابده

ذكرى مصطفى كامل

وقال في فبراير سنة ١٩٠٩ في ذكرى مرور العام الأول على وفاة مصطفى كامل، وقد ألقى

(١) يريد الزعيم محمد فريد وكان حاضرا الاحتفال. وكانت النيابة العامة قد استدعته لاستجوابه في تهمة صحفية باطلة، ثم أحالته إلى محكمة الجنايات، وقد حوكم فعلا وقضت عليه المحكمة ظلما في ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالسجن ستة أشهر.

هذه القصيدة في دار اللواء بين يدى محمد فريد وأعضاء الحزب الوطنى قبل أن يتحرك موكب الذكرى بالمسير:

ما بال عينك بالمدامع تسجُم	رفقًا بنفسك فالقضاء محتم
قد عادت الذكرى فجددَ عودُها	بين الحشا جرحا يشور فيؤلم
يا يوم كامل كنت يومًا قاتمًا	كالليل أقبل وهو أسود أقم
يايوم لا كانت طلائعك التى	بالنحس أنذر وجهها المتجهم

وختمها بقوله مخاطبا محمد فريد:

أفريدُ يا ابن الأكرمين تحيةً	من شاعر لعقود مدحك ينظُم
أفريد يقرئك السلامَ معاشرُ	مدُّوا إليك يد الولاء وسلّموا
حصنت بيضتهم وصنت ذمارهم	بعزيمة قد أصغرت ما استعظموا
ركبوا مطايا الحزم نحو رئيسهم	إذ أنت بينهم الأجلّ الأحزم
فاضرب برأيك فى مواقف جمة	فالرأى فى بعض المواقف مخذم

يهاجم الاحتلال فى إبان سلطانه

قال سنة ١٩٠٩ من قصيدة يحمل فيها على الاحتلال ويفضح نكته بعهوده ويستنهض الهمم للجهاد، وقد بدأها يستصرخ الإنسانية لتمد إلى مصر المكافحة يد العون والتأييد، وهى من عيون الشعر الوطنى:

يا نَاشِرِينَ لواء العدل فى الأمم	الله فى أمة أنت من الألم
مُدُّوا إلينا يدا بيبضاء تشكرها	عند التحدث شكر الروض للديم
إنّا مُنِينا بأقوام جبابرة	ما بين مغتصب منهم ومحتكم ^(١)
لو استطاعوا لساقونا أمامهم	ما بين متهم منا ومحترم
جاءوا إلينا وفى أيمانهم سرف	يؤهون به فى العهد والقسم
قالوا لنا: إننا جئنا بلادكم	نبنى لكم ركن مجد غير منهدم
حتى تخذرت الأعصاب وانسدلت	على العقول سجوفُ البطل والوهم
ولم يزالوا على هذا الدعاء وهم	لايقصدون سوى الإخماد للهمم

(١) يريد المحتلين.

حتى إذا انتبهت منا جوارحنا
حَكَّوا القلوب فأذكوها ورُبَّتْها
فلا عهد لهم ترعى ولا ذمم
صَبَّوا على مصر سَوَطا من تعنتهم
هم أخرجونا بهذا الضيم من زمن
وأدرك الحال فهم الحاذق الفهم
أدَّى إلى النار حَكَّ البارد الشيم
كما استباحوا الدينا النكت في الذمم
وأججوا في حشاها جَمْرَ بَغْيهم
فإن همنا بدفع الضيم لم نلَم

* * *

يا قائمين بأمر النيل حَسْبُكم
ناموا هنيئاً قريرى العين أن لنا
ما أخرج القوم من ظلم ومن غشم
عَيْنًا من الشعب لم تغفل ولم تنم

وقال فيها يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه:

أنت يا شعب وادى النيل كن حَكَمًا
كم أمة حكمت في مصر وارتحلت
سَلْ أمة الروم هل أبقت لنا أثرًا
مضوا ولم يتركوا في مصر ماثرة
هذى عجائب هذا القطر من زمن
فليس غيرك من مستنصف حكم
عنها حليفة جد بعد لم يقيم
يبقى على الدهر أو سَلْ أمة العجم
ينبيك عنها لسان النيل والهزم
وتلك حالات وادى النيل من قدم

يحيى جريدة العلم

قام في سنة ١٩١٠ خلاف على ملكية (اللواء) بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل، طرح أمره أمام القضاء، وعين حارس قضائى على اللواء، وكانت صحيفة الحزب الوطنى، وأراد الحارس أن يتدخل فى تحريره وتوجيه سياسته، فرفض المرحوم محمد فريد هذا التدخل، وأنشأ جريدة (العلم) وجعلها لسان حال الحزب الوطنى، وابتدأ ظهورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠، فحيها نسيم بقصيدة بديعة، قال:

ألا فليخفق (العلم) الجديد
أيا علم البلاد عليك منى
أرى الأعلام معلقها بناء
بربك خبر الأقوام عنى
يمينا إن طالعه سعيد
سلام الله ما خفقت بنود
ومعقلك الجوانح والكبود
بماتوى الوزارة والعميد^(١)

(١) وزارة محمد سعيد والعمد إلدون جورست معتمدا بريطانيا.

رفعت لنا وبالأبصار شك
فجئنا من لدنك بكل فأل
وإن كنا نرى الأعلام شتى
من الشبهات والأيام سود
تحذاه التيمّن والسعود
فأنت وريّك العَلَمُ الفريد

أيّا(عَلَم) البلاد أرى احتلالا
أصرّ على الجفاء ونحن شعب
وكم من جذوة في القلب شبت
فقل لهم أثيروا كل عسف
مقّ ينأى احتلال النيل عنا
قَضُوا فينا بما شاءوا وصدّوا
لقد فرحوا بما أوتوا فجاروا
ضروب في المكاييد يوم تُحْصَى
وكم ودّوا الشقاء لأهل مصر
مكاييد يفزع التاريخ منها
كأنا عنده نفرّ عبيد
أضرّ به التعسف والوعيد
فلم يدرك تأجّجها الخمود
فريحُ العاسفين لها ركود
وتصدق منه هاتيك الوعود؟
كما راموا فهل نفع الصدود؟
وللباغى إذا عقلوا حدود
عليهم ليس يحصيها العديد
كما شقيت بظلمهم (الهنود)
ويصدف عن إعادتها المعيد

أقول الحقّ لا أخشى انتقاما
أنّ المضيّم فقال رفقا
إذا مدّوا حبال السوء يوما
يَهْمُ إليه (طاغيّة) مريد
تشدّ له السلاسل والقيود؟
فإن الله يومئذ شهيد

أيّا(عَلَم) البلاد إليك شعرا
ودونك عقد نظمي من جنان
يريد الشامتون بنا نكالا
فكن في الحق مثل الحق يمضي
ولا تتبع هواهم بعد عِلْمٍ
فليس بنافع فيهم رشاد
تردده التهائم والنجود
ومن درر يقال لها قصيد
(وياي الله إلّا مايريد)
يكنّ لك بينهم بأس شديد
يضلوا في الغوالة أو يزيّدوا
ولا من بينهم رجل رشيد

إلى الزعيم محمد فريد في سجنه

في سنة ١٩١١ حوكم الزعيم محمد فريد أمام محكمة الجنايات بتهمة أنه حبّذ الجرائم وأهان الحكومة إذ كتب مقدمة لكتاب (وطنيتي) الذي تضمن قصائد نظمها الأستاذ على الغاياتي، ومع أن هذه المقدمة كتبها الزعيم دون أن يطلع على محتويات الكتاب وقبل أن يتم المؤلف وضعه ثم سافر الزعيم إلى أوروبا في مايو ولم يظهر الكتاب إلّا في شهر يولييه، وليس في المقدمة ما يقع تحت أى نص من قانون العقوبات. ومع ذلك فقد أقامت عليه النيابة الدعوى العمومية، وكان الغرض من محاكمته إرهابه وتهديد أنصاره واضطهاد الحركة الوطنية، وقد حكم عليه في ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر في هذه التهمة الباطلة، ونفذ فيه الحكم يوم صدوره.

فنظم أحمد نسيم قصيدة من روائع الشعر الوطني بعنوان (إلى الرئيس في سجنه) حيّاه فيها أبلغ تحية، وعبر عن الشعور العام بإزائه أصدق تعبير، قال:

يا ليتّ سجنك لم يكن بمقدّر	فاصبرْ على المقدور ستة أشهر
قد جلّ رزؤ الشعر حتى خلّته	بعض الرثاء وأنت لما تقبر
لولا احترام الحاكمين وحكمهم	لجعلته مثل الشواظ الأحمر
أقصرّت في ما قلت حتى لم تسَلْ	أقصرا أم كنت غير مقصر ^(١)
وتركت أقبال الدفاع فلم تعن	بالمدرّ المشهور أو بالأشهر
يكفيك عطف العالمين ووجدهم	من أكبر يطاء الثرى أو أصغر
حتى لقد ماد (البقيع) و (يثرب)	وتزلزت أرض (الصفّا) و (المشعر)
التّاع قلب (محمد) لمحمد	رب المحامد والعلا والمفخر

* * *

إني نظرتك في اتهامك واقفا	فظننتُ أنك واقف في المنبر
لتقول شعبي أو بلادى إننى	لهواكها بين اللظى المتسعر
ولقد رأيتك جالسا مستبسلا	خلف الشباك جلوس من لم يدعّر
فرأيت في هذا الشباك معانیا	فهى العرين وأنت أجرا قسور

(١) يشير إلى إيجاز التقيد في جوابه على أسئلة المحكمة وعدم استماتته بمحاميين للدفاع عنه إيمانا منه ببطلان التهمة وتحديا للوزارة التي اتخذت شكل المحاكمة.

ولقد لمحتك ماتسيا في ثُلَّةٍ
فسألت هل هذا المسور «خالد»
تعتز بينهم بقدر أوفر
أم «جواهر» يختال بين العسكر

* * *

أفريدُ يا ابنَ الأكرمينَ تحيةً
في مصر قوم ناولوك بشرهم
ذكروك في حب البلاد وأهلها
لو كنت ممن تاجروا بضميرهم
أو كنت ممن يطلبون مراتبا
وسبقت أجرام السماء وفتها
من شاعر بسوى الأسى لم يشعر
فاردد مكايدهم إليهم وانحر
ما قيمة الإنسان إن لم يذكر؟
للعبت لعبا بالنضار الأصفر
لشأوت في العلياء نجم المشتري
من مظلّم في ذاته أو نير

* * *

أ (محمد) كن في النوائب ضيغاً
إن بت أنت من الفوادح جازعا
أشرق لعلك بين سجنك مشرقا
فالشعب بعدك بات ينتجع العلا
أنعم بسؤددك العظيم ومرحبا
أعزز علينا يا ابن «أحمد» حالة
مستجمعا للطارئ المتنمر
ما فضل مفتول الذراع غضنفر؟
تهدى سبيل الطارق المتنور
وغدا مناهُ ورود هذا الكوثر
بك من كريم الأصل زاكى العنصر
جاءت بعيش بالهموم مكندر

* * *

فكأنه بذرٍ يحجب نوره
أو دُرّة مكنونة في زاخر
أو زهرة فيحاء خيف ذبولها
أو ناظر غمضت عليه جفونه
أو أنت سر الكائنات محجب
ظلمات غيم في السماء كنهور
أو دمة مخبوءة في محجر
وضياع نفحتها إذا لم تستر
حذرا عليه من القذى والعشير
أو بعض مكنون القضاء المضر

* * *

إلى أن قال:
أحمد ما أنت أول مبتلى
بالفادحات من الزمان الأكدر

إني عهدتك خير من يسدى الورى
فأشهرُ لدى الأهوال عزمًا صادقًا
ما الناس إلا اثنان ذاك ميسرُ
جلّ الإله فقد أَرانا علمه
بانت مراحه بأكمل رونق
لولا الفؤاد وما أصاب دفينه
لولا مراس الداء صغت قصيدة

* * *

عفوًا رئيسَ المخلصين فإننى
قد جئتُ أزجى فى القريض خريدة
عطرية فيحاء طورًا عن شذا
فيها معان صاغها لك مبدع
فاخلع عليها من خلالك نفحة
لى فيك ملء الخافقين لآلىء
فعليك منى ما حيت تحية

يحيى الوحدة الوطنية

قال سنة ١٩١٩ يحيى الوحدة الوطنية والتآخى بين المسلمين والأقباط:

أقباط مصر ومسلموها ضمهم
الناشئون على الطهارة والتقى
والخالدون إلى السكينة كلما
برح الخفاء وبان أننا أمة
إننا لنرجو أن نعيش بقبطة
دين المسيح وشرعة الإسلام
والقائمون بمصر خير قيام
جاء الزمان بشدة وعرام
لم تبغ غير محبة ووئام
توحى السلام وتنتهى بسلام

يرثى فريدا

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة فى رثاء محمد فريد:

رمانا الزمان بإحدى الكبر ومنه العظاات ومنه العبر!

رماه القضاء بها والقدر
كسرب النجوم فقدن القمر
ولم تسترح من عناء السفر
وورد الردى ماله من صدر
ولم يحفها عند مس الكبر
ولم يبق إلا اجتناء الثمر
فنال من العيش أقصى الوطر؟

* * *

إلى أن قال:

وطوبى لحي وعى وأذكر
فقد حصدت كفه ما بذر
وأطبقها بعد طول السهر
فأدى الحقوق وأسدى البدر
لكل ضريك إليه افتقر
فهان على نفسه ما ادخر
يرى المال يفنى وتبقى السير
إذا نزل القبر لا ما يذر
بآى فصاح كآى السور
كمن شاع صيب له وانتشر
على صفحات العلى مستطر
وألس من فوق جمع نثر
فكم من جواد كبا أو عثر
فياقى الفجائع حتى ضم
كوارث كاسرة للفقر

شهيد تصارع فى حومة
وخلف من بعده أمة
أقى جثة سافرت للبللى
منى أوردته حياض الردى
تعلقها عند سرخ الصبا
وأينع فى روحها غرسه
وأى امرئ عاش أقصى المدى

هنيئا ليت نعته العلى
وحسب فريد منى نالها
فتى أغمض الموت أجفانه
أفاض على قومه ماله
طويل نجاد الجدى عائل
رأى الحرص عارا على نفسه
وكان بصيرا بعقبى الندى
وأخلد ما للفتى ذكره
وكم صامت ناطق فى الثرى
وليس الذى ذكره خامل
وليس بميت أغر اسمه
خطيب المنابر منطيقها
فإن يكب يوما بضماره
وما زال ينهب فى عدوه
وحق دهنه بأعناتها

وختمها بقوله:

وأودى «فريد» حميد الأثر

أرى «كاملا» راح فى شرخه

زعيما بلاد خلت منهما، عزاء العلا عنها أمة
«أبو بكر» مات وولى «عمر» تنادت لتجديد مجد دثر
وشعب سعى نحو آماله بعز توقد حتى استعر
وما من ضعيف القوى واهن تشبث بالحق إلا انتصر

يحيى جريدة الأخبار

قال سنة ١٩٢٠ يحيى المرحوم أمين الرافعى لمناسبة إصداره جريدة الأخبار:
ياوحى أسعفى بنظم قلادة صيغت لألثها من الأشعار
هذا (أمين الرافعى) ومن له خير السجايا الغر والآثار
يا (رافعى) لأنت أصدق مخلص للنيل فى الإعلان والإسرار
جرّد يراع المخلصين وذوّ بها بطش القوى وصوله الجبار
واحذر على (الأخبار) من آفاتهما إن (الرواة) لآفة الأخبار
اليوم هنأت البلاد بكاتب ملكت يدها صحيفة الأحرار

يندد بالانقسام ويدعو إلى التآخى

وقال سنة ١٩٢١ حين استند الانقسام بين سعد وعدلى وأنصارهما، يندد بهذا الانقسام ويدعو إلى توحيد الصفوف:

قالوا انقسمنا فقلنا فتنة عمّ لم تكن غير جيش راكب طرفا
بها تُفلّ مواضى العزم والهمم حتى يرفّ لواء الفوز منعقدا
شقى المسالك من سهل ومن أكم وكيف نُقسّم والتاريخ ينبئنا
على الزمان بحق غير مهتضم فحاذروا أن تحلوا عقد شملكم
أن الفلاح لشعب غير منقسم ونظموا ما استطعتم من صفوفكم
فتقرعوا السن من حزن ومن ندم ولا أحدثكم عن إرثكم عجبا
فالجيش إن بعره الإخلال ينهزم فمنه كان بزوغ المجد والكرم

والمجد يدرك بالأعمال منجزة لا درك المجد بالألفاظ والكلم

أحمد الكاشف

١٨٧٨ - ١٩٤٨



من الرعيل الأول من شعراء الوطنية، ولد سنة ١٨٧٨ بالقرشية من بلاد مركز السنطة غربية، وهو ابن المرحوم ذو الفقار الكاشف، وجدّه من ضباط الجيش المصري الذين خاضوا غمار المعارك في عهد محمد علي، تلقى علومه الأولية في منزل والده بالقرشية، ثم التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بطنطا حتى استوفى دراسته، ثم عاد إلى بلده وأقام فيها، ومالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب، وكان الشعر طبيعة له وسليقة، فعكف على المطالعة وأكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها، فحاكاهم في الأسلوب والبلاغة، واتجهت نفسه إلى نظم الشعر في المعاني الوطنية، فجادت قريحته بشعر وطني من الطراز الرفيع، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر، وعاش عمره عيوفاً أليماً، معتكفاً في بلدته (القرشية)، وفي ذلك يقول عن نفسه:

ولقد تحاشيتُ المدائن زاهداً وبددت أطلب وحدةً وسكوناً
لا أرتضى غير الطبيعة مأنساً والذكر كأساً والقريض خديناً
وله قصائد عصماء نظمها في مختلف المناسبات، وعبر فيها أبلغ تعبير عن أحاسيسه ومشاعره الوطنية، وظل وفياً لمبادئه طول حياته، وتألق شعره في سماء الأدب والوطنية، وبلغ الذروة في هذا المجال.

اتفاقية السودان

قال عن اتفاقية السودان التي أكرهت مصر على إمضاها سنة ١٨٩٩ على أثر انتصار الجيش المصري في السودان.

انتصرنا وما الذي قد جنينا ه من النصر بعد طول العناء؟

ماجنينا سوى (الوفاق) جزاء
وإذا شارك الضعيف قويا
إن هذا الوفاق شرّ جزاء
في منال فحظه كاهلباء

الجندي في المعركة

وطنى أنت الحبيب الدائم
وغرامى بك طبعُ لازم
لك أسعى دائبًا مجتهدا
لأبالي في طريقى أبدا
وطنى أفديك بالروح إذا
وأرى البلّة في دفع الأذى
دمت يا نيل أبرّ الأنهر
دمت تجرى يا شبيه الكوثر
دمت يا صحراء ميدان الجنود
مظهرا للبأس من بيض وسود
لك في قلبي المقام الأشرف
سرّنى أنى به متصف
برجاء ثابت مقتدر
طال ليلى أو نغادى سهري
مسك الدهر بسوء لا يطاق
عنك بالنيران والبيض الرقاق
بنفوس كم رأت منك وفاء
مُهدى الوادى هناء ورخاء
بين قطريك اللذين اتحدا
يضمن النصر لنا والسوددا

قصيدته في اللورد كرومر سنة ١٩٠٧

لما رحل اللورد كرومر عن مصر على أثر حادثة دنشواى، شيعه الكاشف بقصيدة ندد فيها بطغيانه وجبروته، قال:

أعيا عزائمك القضاء الأغلب
أرأيت كيف يُفاجأ السباق في
ولبت تبدو في زخارف مخلص
غافلتهم حيناً فلم يتلفّتوا
وطوى صحيفتك الزمان القلب
غاياته ويقاطع المتوئّب
للقوم تخفى ما اعتزمت وتحجب
إلا ونابك فيهم والمخلّب

وذكر حادثة دنشواى وكيف فرح المصريون بإقصائه عن منصبه:

وختمت عهدك بالذى اهتزت له
وتنفس الصعداء شعبٌ حامل
ماذا كسبت وأنت عنا راحل
أركان (مكة) واستعازت (يثرّب)
هنا يضيق به الفضاء الأرحب
إلا الجفاء وبش هذا المكسب

ينذر الإنجليز

وقال يخاطب الإنجليز وينذرهم سوء العاقبة:
 قلدتم الرومان في استعمارهم هلاً ذكرتم منتهى الرومان؟
 اليوم سؤددكم وسؤددنا غداً كم أدرك المتماذى المتوائى
 رحاكم فينا لنذكركم إذا دار الزمان وحالت الحالان
 إنا لنرجو من بيننا عُدَّةً لا عُدَّةَ الجيران والضيفان

يندد بوزارة مصطفى فهمى

قال فى أبريل سنة ١٩٠٨ يدعو وزارة مصطفى فهمى إلى الاستقالة، وكانت بغیضة إلى الشعب:

أفى كل يوم يشهد النيل نابغا يعيش فرجوه ويُقضى فنجزع^(١)
 وليس لكم فى موسم الحى مظهر وليس لكم فى ماتم الميت مفزع
 لقد سئمت تلك الكراسى مكنكم فهلا شعرتم وهى تشكو وتضرع^(٢)
 وهلاً اعتزلتم منصباً لا ينيلكم من الأمر إلا أن تذلوا وتخضعوا؟
 أخاف عليكم أن تموتوا وأنتم أضر من العادى علينا وأشنع
 فإن سئتم أن يعفوا النيل عنكم ويكبركم أبناء مصر ويرفعوا
 فخلوا وزارات البلاد لأهلها إذا أرعد الجبار لم يتزعزعوا
 إذن لرأيتم ما رأى من كرامة ومرحمة ذاك الشهيد المشيع^(٣)

يمجد الفلاح ويمدحه

وقال يمدح (الفلاح المصرى):

إذا استبقيت فى الدنيا حبيبا فخير أجبتى فلاح مصر

(١) يشير إلى مصطفى كامل وقد توفى فى فبراير سنة ١٩٠٨.

(٢) مكثت وزارة مصطفى فهمى تتولى الحكم ثلاثة عشر عاماً من نوفمبر سنة ١٨٩١ إلى نوفمبر سنة ١٩٠٨، وكان عهدها خضوعاً وتسليماً للاحتلال البريطانى.

(٣) يشير إلى مصطفى كامل.

كريم يلاً الوادى ثراه ولا يَلْقَى سوى الإجحاف أجرا!
 فقيرٌ ما أراه شكاً افتقارا ولو يُجْزى على تعب لأثرى
 فمحراثٌ يشقُّ الأرض عندى ويخرج من ثراه الخصب تبراً
 كسيفٌ فى يد الجندى لاقى به جيشاً وجِصناً مُشمخراً

صلته بمصطفى كامل

كان الكاشف صديقاً ونصيراً لمصطفى كامل، وكان لدعوة الزعيم وتعاليمه صداها فى قصائده، وكان مصطفى يقدره ويعجب به ويسميه (شاعر الغريبة النابغة)، وكثيراً ما كان هو يردد كلمات مصطفى كامل ومعانيها ويصوغها فى قالب شعرى رفيع.

قال عن صلة الخطابة بالشعر:

ولئن هززت العالمين فإن من تلك الخطابة هذه الأشعارا
 وقال يردد كلمة مصطفى كامل (لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً):
 لو كنتُ فى الخلد أو فى غيره ملكاً وددت لو أننى فى مصر إنساناً
 وقال فى محاربة اليأس:

وما معنى القنوط وأنت حى وما معنى القنوط مع الحياة؟

وقال فى قيمة الاستقلال:

إن البلاد بلا استقلال صاحبها قَفَّرٌ لديه وإصبحن جنات

ولما مات الزعيم رثاه الكاشف بمرثية رائعة بلغت نحو مائة بيت، قال فيها:
 لطفى عليك وقد رحلت اليوم لم تدرك لغرسك فى البلاد ثمارا

إلى أن قال يشير إلى الرحلة التى كان يعتزم الزعيم القيام بها فى الشرق:

لطفى وما لاقتك (يثرب) ضيفها وخطيبها المسترسل المكثارا
 لطفى عليك ولم تسر متفقدا فى الهند إخوانا لمصر حيارى
 لطفى ولم تنقل من اليابان ما يهب البلاد حضارة وعمارا
 قد كنت مزعم هجرة لو قدرت قربت أعوانا لمصر كبارا
 وجمعت بين السابقين وأمة مهضومة تتبّع الآثارا

ثم يستنكر على وزراء مصر. وقتئذ تخلفهم عن تشييع جنازة الزعيم خشية إغضاب الإنجليز، قال :

ويل الذين تخلفوا عن مشهد مَشَتْ الملائك حوله إكبارا
هل يعرضون ترفُّعا وتكبرًا أم يسكنون تهبُّيا وحذارا؟

ثم يصف احتشاد الأمة يوم تشييع الجنازة قال :

يا قائد الأبطال هذا جيشك الـ جرَّار فانظر جيشك الجرارا
يوم كيوم الحشر ضمَّهم وكم رحَّبت في أرب لهم مضمارا
فلئن بكوا فلقد بكيتهم وهم غرباء في أوطانهم وأسارى
أو يحملوك على رءوسهم فقد أصعدتهم فوق النجوم فخارا

وختم مرثيته بقوله :

أشَّهَدُ مصر على علاك ونيلها وصعيدها والنَّبْتُ والأحجارا
لو لم تسل قطع النفوس لشيءوا منها لك التمثال والتذكارا
ما مات من ورثت منه أمة تجرى على منهاجه استمرارا

يحمل على سياسة الوفاق، ويعاتب الخديو عباس الثاني

في سنة ١٩٠٩ كانت سياسة الوفاق بين الخديو عباس الثاني وإنجلترا تسيطر على الجو السياسى في مصر، وكان هدف هذه السياسة محاربة الحركة الوطنية، وبدأت مظاهر هذه السياسة في تنكر الخديو للكفاح الشعبى ومناصرته للاحتلال وسياسته.

نظم الكاشف هذه القصيدة سنة ١٩٠٩ يحمل فيها على سياسة الوفاق ويخاطب الخديو عباس الثانى ويعاتبه ويحذره مغبة الاستنامة إلى وعود الإنجليز، وهى من أبلغ قصائده وأقواها :

أهلاً وسهلاً بالوفاق ومرحباً لو كان فيه قضاء ما وعدوكا
إن كنتَ مشترطَ (الجلاء) فواجبُ لك أن نودَّهم كما ودوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من أن يعلنوا ذا الموثق المفكوكا
حاسنتهم لتردَّ عنا شبهة كم حاربوك بها وما حربوكا؟
ما كان حبًّا ما ترى لكنه كَتَمَ المخائِلُ سرَّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مهذب حرِّقَ كانَ الْإِفْكَ الْمَأْفُوكا؟

اليوم يشكونا إليك وما بنا غير الوفاء وفي غد يشكوكا
أعيا على أوهامه ووعيده هذا المراس فقام يستصفيكا

ماذا ترى في غاصبين يسوءهم أنا نحس وأنتا نروكا
أتخاف شكوى المخلصين ولم تخف فيما مضى عدوان مضطهديك؟
ياليتهم جعلوا القيود لكل ذى نظر وما انتقموا بأن حجبوكا
هل كان مُسمِعَكَ السلامَ مشاغبا أم كان غير مشوّق رائيكا؟
إنّا وإيّاك ابتليناهم فهل صدّقوا الورى يوما وهل صدّقوكا؟
أولى بهم وقد اتهمنا نصحهم أن لا تصدقهم إذا نصحوكا

أرهم مراسك قبل أن يستأسدوا إنّا لنخشاهم إذا أمنوكا
يا حبذا يوم (الجلاء) ولا نرى جندا يصول ولا دما مسفوكا

يخاطب اللورد كتشنر

في سنة ١٩١١ عين اللورد كتشنر معتمداً لبريطانيا في مصر، وكان معروفاً عنه الصلف والغطرسة، فاستقبله الكاشف بقصيدة رائعة تفيض وطنية وشمماً وإباءً. قال في مطلعها:

مهلاً لثمتحن الطريق خطاكا إن كلفوك لغاية إدراكا
في مصر شعبٌ لا يُضام ومالك^(١) متفرد لا يقبل الإشرাকা
ما أنت حابس نيلها يوماً ولا أهرامها مهدومةً بقواكا
الله أكبرُ من جيوشك سطوة والدهر أبعد من مدى مرماكا

إلى أن قال:

هل يُذنب الجرحى إذا هم حاولوا دون الضواري صحيحةً وحراكا؟
لسنا قطيعاً غابَ راعيةً كما كنا ولستُ الضيغم الفتاكا

(١) لعله يقصد المالك الأمة فهي مصدر السلطات ولا تقبل إشرাকা في سيادتها.

إن كنت طلق الوجه أو متجهها فالله يعلم منتهى نجواكا
ولعل شأنك في مشبك غير ما أسلفته في عنفوان صباكا
إلين قال:

واذكرُ لوادى النيل نعمته عسى تُعطى بنيه بعض ما أعطاك
فإذا تجاوزت الكنانة فافتتح ما شاء عزمك واصعد الأفلاك
في غير مصر ذرائع ومواقع للمستزيد مطامعا وعراكا
ولئن غضبت على الآباة فصبرهم أولى وأجمل من رجاء رضاكا
فاعرف لهم عذر الحريص إذا هم لم يسلموا لك ما تنال يداكا

يبشر بالاشتراكية

في أعقاب الحرب العالمية وبعد توقيع معاهدة الصلح في فرساي (مايو سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء، نظم الكاشف قصيدة عصاء تناول فيها شتى المعانى السياسية والوطنية. فمن قوله يبشر بالاشتراكية:

للاشترائية العُقبى إذا شملت شتى الشعوب وجاراها المجارونا
فلا الكثيرون ملكاً للأقليات ولا الأقلون ملكاً للكثيرينا
ولا نرى واحداً ملأى خزائنه بالمغنيات وآفا يجوعونا
ولا نرى درة في رأس محتكم تهفو إليها قلوب المستظلينا

يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر

وقال في هذه القصيدة يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر بعد أن عاوتهم في تلك الحرب:

يا نائلين من الحرب العوان سوى ما كان منتظراً منها ومظنوننا
نجوتُم من رزاياها ومالكُم لا تذكرون وفاقا غير ناجينا؟
مدُّ الحديد لكم في كل مرحلة وذلُّوا لكم أطواها لينا^(١)
ورابطوا لأعاديكم على هدف وألقوا النيل بالأردن ساقينا

(١) يشير إلى تسخير العمال المصريين في مد السكك الحديدية في سيناء إلى العريش أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكم عتيخ على قوم لأجلكم
وقلتم لم ينل قومٌ بغير دمٍ
ونال من دمنا في عصر جندكم
فهل غسلتم خطايا الأبرياء به
أستهيئون بالإنسان مائلكم
هَبُوا حِمَى مصر والسودان مزرعةً
ورثتم خصمكم ميتاً وصاحبكم



جربتمو مصر في تقييدها زمنا
أمنتُم مصر فيها نال أمتكم
وقلتم: مصر للهند السبيل فإن
أما إلى الهند إلا مصر من سُبُل
يهدد الهند أهلوه وجيرته
خافوا سوانا وأعطونا أمانينا
وإن فردا. لذي ملك يبرُّ به
عن أى شيء لمصر تسألون وقد
بالسيف والنار يدعو الناس جندكم
ضَعُوا السلاسل عنا واطلبوا جدلا
وربما قبلت دعواكم دولٌ
لَيْتَ الذى حَرَمَ الألمان غايتهم
وليت من زاد قوما قوةً وغنىً
أتسفكون لمظلوم دماءكم
وهل وفيتم بميثاقٍ لمصر كما

فجربوا مصر في إطلاقها حيناً
فأى شىء على مصر تخافونا؟
ضاع السبيل أضعنا الهند ساهينا
ملأى شواهين أو ملأى سراحينا^(١)
ولا يزال سبيل الهند مأمونا
فما تضرُّكم يوماً أمانينا
خيرٌ له من جماعات يشورونا
هزَّت مسائل مصر الهند والصينا^(٢)
وتطلبون من الصرعى مجيبينا
تروا أدلة مصر والبراهينا
وأق مصر أباةً غير راضينا
أخاف قوما سواهم لا يبالونا
يرعى ويحرس أقواماً مساكيننا
وبالكلام على عانٍ تَضُنُونَا؟
رعيتمُ العهد للبلجيك موفينا؟

(١) السراحين: الذئاب.

(٢) يسير إلى تأليف الحكومة البريطانية للجنة المعروفة بلجنة ملنر بدعوى البحث عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ والوسائل للافاة هذه الأسباب.

كم أعجبتكم من الأحرار عزَّتكم
فهل ذكرتم وأكبرتم لنا غرَضاً
كم أنجب البطل الأحداثَ عالية
كنا أمانة دهر عندكم وأقى
وقد أقرَّ لمصرٍ كل منتصف
قد أصرت على استقلالها فعلى
كانوا موالين أو كانوا معاديننا
كما ذكرتم وأكبتكم (وشنطونا)^(١)
وأنجب الحدثُ الأبطال عاليننا
وقتُ الأداء فهل أنتم مؤدُّونا؟
بحق مصر فهل أنتم قرونا؟
أى المآرب أصبحتم مصرينا؟

يحذر قومه من التحالف مع بريطانيا

وفي هذه القصيدة (التي نظمها في أواخر سنة ١٩١٩) يحذر قومه من فكرة التحالف بين مصر وبريطانيا. قال:

أواهون لمصرٍ كل ما طلبت
وإن رفعتهم عن الوادى حمايتكم
وإن تروا بدلا منها (محالفةً)
إنا لنعجز عن حق الحليف وعن
وما مجاورة الأقوى وشركته
ادعوا بنى مصر أندادا لكم ودعوا
وغادروها لأكفاء تجارهم
يفدون مصرَ وإن شاکت منابتها
وإن تدفق في البيداء منصرفا
أحرار مصر تبارهم حرائرها
أم آخذون بمقدار ومُعطونا؟
فما اسم لاحتها فيما تُسمونا؟
فمن لنا بضمانات المساوينا؟
حق الشريك وأنتم تستزيدونا
إلا كما جاوز العصفور شاهينا
ولاية مصر ملوكا أو سلاطينا
تُغنيهم عن تكاليف المشيرينا
وإن جرى نيلها مهلا وغسلينا
وإن أقام وراء السدِّ مخزونا
ففاديات كما نرجو وفاديننا

يندد بالاستعمار والطغيان

وفي هذه القصيدة يندد بالاستعمار والطغيان ويحملها مسئولية الحرب الطاحنة التي أكتوت الشعوب بنارها. قال:

أَمْضَى عَلَى الصِّلَحِ قَوْمٌ يَعْبَثُونَ بِهِ وَقَدْ نَأَى عَنْهُ قَوْمٌ غَيْرُ مُمَّضِينَ

(١) جورج واشنطن محرر أمريكا، وكان على رأس الجيش الوطنى الأمريكى الذى حارب الإنجليز وقد اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٨٣ بعد أن انتهت الحرب بظفر الأمريكان.

تنفس الصعداء اليوم بعضهم
هل يعرف الدهر حربا كالتى شهدت
صناعة هى يعتز الملوك بها
أم كانتِ المرضُ الموروثُ فى دولٍ
ما كان أكبر آثام الأنعام وما
أين الأسرةُ والتيجان أسألهما
الرافعين على الأشلاء دورهم
جَنَتْ على ملكهم أسلاب غيرهم

إلى أن قال:

دانت لعسكر (ولسون) جبايرة
أغرى البرية باستقلالهم ونأى
وَأَيْنَ ما صنعتِ آراءَ ولسونا^(١)؟
عنهم وهم بالذى أغرى يهيمنوا

القوة سناد الحق

والحق فى كل عصر فاقدُ سندًا
فدو السلاح هو المهروب جانبُهُ
إن لم يجد طلبًا بالبأس مقرونا
إذا اثنتى الأعزل المغلوب مغبونا

أمل مصر فى بنيتها

وختم هذه القصيدة الرائعة بقوله:

من لم ير اليوم فى العمران موضعه
ونحن أولى بأن نرعى مواطننا
لم يلق فى غده دنيا ولا ديننا
نوفى المكاييل فيها والموازيننا

مؤتمر لوزان

الحق للقوة

فى سنة ١٩٢٣ ترامت الأنباء عن مؤتمر لوزان بأنه يخذل مطالب الشعوب الشرقية فقال
الكاشف يدعوها إلى القوة والتعاون فى مكافحة الاستعمار:

(١) ولسون الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية. يشير الشاعر فى هذا البيع والأبيات التالية إلى مبادئ
ولس الى أعلنها حين دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها وكيف تنكر لها بعد انتصار الحلفاء.

عودوا إلى البأس بعد اللين فهو لكم
لا حق للشرق إلا في معاقله
هل يملك الحكم في (لوزان) خصمكم
ما كان (كرزون) بالموفي لأمته
إلى أن قال:

إني لأشفق من يوم على دُولٍ
ممالك الشرق والإسلام تذكرة
أين الأمانة والميناق بينكم
بجد الرجال على مقدار ما بذلوا
ذودوا عن الوطن الغالي وعن شرف
ومن أراد حياة العز طيبة

* * *

يا وافتد الشرق جوابا بلا سند
مسير كل قبيل بعد جولته
فصل الخطاب لهم بعد القضاء غدا
أين السلام وأين العاملون له؟
كل يد وراء الغيب غايته
في الغرب ينتظر العقبي ويرتقب
ما خطه في فروق الفتية النجب
في سائر الأمر جدّ القوم أولعوا
وأنه أمل الأبرار والأرب
وليس يعلم ما يأتي به رجب

يتندر على عيد ١٥ مارس سنة ١٩٢٢

قال من قصيدة له في مارس سنة ١٩٢٣ يتندر على عيد الاستقلال الذي جعلوا تاريخه يوم
١٥ مارس سنة ١٩٢٢ حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر على أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير
سنة ١٩٢٢:

يا عيد الاستقلال أن
للعتيق أم للرق ما
أبهرجان تحنفي الـ
ت له خيال أم حقيقه؟
خطوه في تلك الوثيقه
ظمأى وتحتفل الغريقه؟

وتتال مصر مرامها من بعد ماسدوا طريقه^(١)
يتكلفون^(٢) الصالح ات لها وتأبها السليقه
إن أطلقوا أسس البلا د فمنهم ليست طليقه
وحديقة أضحت ول كن للغريب جنى الحديقة
وإن استبدَّ بنيلها قتل الشقيقة بالشقيقه^(٣)

* * *

وأحرَّ أكبادٍ إلى حرّية الوادى مشوقه
هذا زكى دمي لها أجد الرضا في أن أريقه

* * *

أنخذلُ زعاء مص ر أمام هاوية عميقة؟
أى العقاب أحق بال رجل الذى يؤذى رفيقه؟
عاد الغريم لمصر يع بس بعد خدعته الدقيقه
فإن افترقتم عنده كنتم جميعكم فريقه

يحذر من نوايا الإنجليز ويدعو النواب إلى أداء واجباتهم

وقال من قصيدة له يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وهو اليوم الذى اجتمع فيه البرلمان الأول وكان سعد زغلول يتولى رئاسة الوزارة الأغلبية.

سلاما على حصنكم والعلم ورعياً لندوتكم فى الأمم
سلاما على ذلك الملتقى سلاما على ذلك المزدهم

إلى أن قال:

أمانة مستوثق معلن لكم من سرائره ما كنتم
وهذا غريمكم^(٤) الملتوى تجمل بعد الأذى واحتشم

(١) يشير إلى الإنجليز الذين وضعوا العقبات أمام مصر فى جهادها لتحقيق أهدافها.

(٢) الإشارة هنا أيضاً إلى الانجليز.

(٣) مصر والسودان.

(٤) يقصد الاحتلال.

تولّى بغاياته عابساً	وعاودها فاتنا فابتسم
إلى أجل أم إلى منتهى	مراميه يلزمكم ما التزم
وهل ينجلي الأفق أم يرتقى	بعاصفة بعد هذا النسم
ولو كان يعرف عُقبى النزا	ع في الحق من زمن لا نحسم

وقال يدعو إلى التآخي وصفاء القلوب بين المواطنين:

وليس يقالُ فريقُ هَفا	وليس يقالُ فريقُ ظَلَم
يضيع على مصر هذا النعي	م إن لم يكن كل بيت أجسم
وما أنا بالأمن المطمئن	إلى المستعد الذي لم ينم ^(١)
أعد المرباط في المسلكين	ومن ملّك المسلكين اقتحم
وهل يترك الذنبُ عاداته	وإن لبس الذنب ثوب الغنم؟

* * *

وداهية مرجف بالذى	تعدّى به غيره فانهزم
وليس الذى قاله حجة	فقد أَلِفَ الناس هذا النغم
وهل يستطيع اغتصاب الرقا	ب من يبراس النفوس اصطدم
وما صنعت بالمغير القلا	ع صُنِعَ إبانكم والشمم
وحسبكم شملكم عُدَّة	وحسبكم صبركم معتصم
وما أحسن العفو من قادر	إذا ما انتهى حاقِدٌ وانتقم
سيجلو عن الأرض جبارها	ويلبث فيها كريمُ الشيم
ولا دولة لسوى المصلحين	ولأمْلِك لأهل الهمم

عيوب الحزبية

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له حين اشتد التنافر بين الأحزاب، يدعو إلى نبذ الخصام:

وقفت وما أدرى أعدّ حوادثاً	تدور أمامى أم أعدّ ذنوباً
تحملت عن قومي نصيباً من الأسى	ولم أرجُ من أجر الجهاد نصيباً

(١) يريد الانجليز.

وأمعنت في غيب المقادير علني
وليس بمن أن أمة خصب أرضها
أرى فرجا للآمتين قريبا
إذا لم يكن خلق الرجال خصيبا

* * *

تنازع قومي اليوم جندا وقادة
مبادئ أحزاب أرى أم منافعا
تقضت حروب العالمين ولم أزل
بقومي على قومي استعان غريبهم
فمن لهب المنفذ الأمر حازما
يردهم بعد القطيعة والنوى
فلم أر إلا سالباً وسليبا
توالت صنوفاً بينهم وضروبا
أرى بين أبناء البلاد حروبا
فصال شمالا واستطال جنوبا
إذا لم يطيعوا نافذا وحسيبا
رفاقا كما يلقي العليل طبيبا

قريتي

قصيدة نظمها بهذا العنوان سنة ١٩٣٦، يصور فيها حياته في بلدته (القرشية) ويؤثرها على حياة المدن، قال:

جمعت في العيد حولي سائر الآل
أبنا دعوني وما لي فيهم ولد
كأنني وهم في الدار مطلع
إلى أن قال في إثارته الإقامة في الريف:
أقمت في الريف لا أشقى بطاغية
وعشت بالرطب من بقل وفاكهة
أطلت فيها اعتزال العالمين ولي
لقيت في عشرة الجهال عاطفة
وملتقى الآل حولي كل أمالي
ولست للقوم غير العم والخال
منهم على أمم شتى وأجيال
لم ألقها من رجال غير جهال
من الرجال ولا لاهٍ وختال
فيها ملكت وماء فيه سلسال
بكل ناحية همى وأشغالى
لم ألقها من رجال غير جهال

يحذر قومه من مفاوضات سنة ١٩٣٦

وعرج في هذه القصيدة بالمفاوضات التي كانت جارية وقتئذ بين مصر وبريطانيا وأسفرت عن معاهدة سنة ١٩٣٦، فحذر قومه من مغبة هذه المفاوضات، قال:

ولم أزل بينهم للخصم متقيا
دخائلا هي في ذهني وفي بالي

أخشى على رسلهم نياته وهم
وما تزال كما كانت سياسته
وموضع الند أرجو عنده لهم
وقد يكون لهم من ضيقهم فرج
منه أمام جلاميد وأدغال
يدور فيها بأشكال وألوان
لا موضع الصيد من أنياب رنبال
كما تُدافع أهوال بأهوال
وظل الكاشف في قريته وعزلته، وفيًا لشعره ومبادئه، إلى أن أدركته الوفاة في ٢٩ مايو سنة ١٩٤٨.

* * *

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١



هو الشاعر البدوي البليغ، والمجاهد الوطني الصميم، محمد عبد المطلب، ولد سنة ١٨٧٠ ببلدة (باصونه) من قرى مديرية جرجا لأبوين عربيين مصريين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب، وكان والده رجلاً صالحاً متفكهاً، فأرسل ابنه إلى الأزهر وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين، ثم انتقل إلى (دار العلوم) ومكث بها أربع سنوات، وتخرج منها عالماً أديباً، وتولى التدريس في مدارس الحكومة، واختير مدرساً بمدرسة (القضاء الشرعي)، ثم مدرساً في (دار العلوم)، ونضج علمه، واكتمل شعره وأدبه، فصار من فطاحل الشعراء الذين

يشار إليهم بالبنان، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده، وخلد حوادثها بقصائده الغر، وكان حجة في الأدب واللغة، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب، وبلغ في مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين، وكانت الروح الوطنية الدفاعة تتجلى في معظم أشعاره وقصائده؛ وله في هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح في ذاته أن يكون ديواناً يجتمع من الشعر الوطني؛ وقد ظل على إنتاجه الشعري إلى أن أذركته الوفاة سنة ١٩٣١.

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته في الجهاد وخاصة في ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله في رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوي إذ يقول عن (جهاده الوطني):

فإنك للجلى وللحادث الجد	فذاك وإن جدت خطوبٌ وأجلبت
وقضى وصوت (الموزريات) كالرعد	تخاطر والجند المدجج محقق
وتعدو على العادي عليه وتستعدي	فتبكي وتستبكي العيون على الحمى
وقد حميت أناف قومك من وقد	وتخطب حتى تستشير وتننى

وما هالك الجندُ الذى كان محققا ونفسك من فرط الحمية في جُند
نزلت عن النفس الكريمة فديةً إلى الوطن العاني، كذلك مَنْ يفدى

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانتها مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وينعى على الإنجليز بغيهم وعدوانهم وإعلانهم الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٤، ويندد بفظائع السلطة العسكرية البريطانية في سنى الحرب:

وعادت رياض النيل نارا جحيماًها يُشَبَّ لغير الخائن المتملق
فكم سيدٌ بين الغيابات حتفه وآخر بالأصفاد والسوط مرهق^(١)
ترى أدمع النعمى بناعم جسمه نجيع دم من جلده المتمزق
يقضى الليالى بين ظلم وظلمة طريد الكرى فيجوف أغبر مطبق
وتمسى نَجِيَّ الحزن جارةً بيته سواد الدجى بالدمع المترقق
وفى حجرها لو أبصروا ذو تائم يكلمها بالعين من غير منطق
إذا فزعت في الخدر من هول ما ترى فلا راحماً تلقى ولا عطف مشفق
ودارة عزٍّ أوحشت من أنيسها وما كان فيها من جلال ورونق
تحمل أهلوها على غير موعد وبانوا على حكم الزمان المفرق
ينادى لسان الحال من شرفاتها «قفوا ودُّعونا قبل وشك التفرق»
ولم يُنْسَها التوديع موقف شامت يقلب في الغادين أجفان مُحَنق
وما ملَّهم فيها ثواءً وإنما نَجَّيُوا بالنوى من ظلم أرعن أحق
يناديه فينا قائد الجيش^(٢) قومُه وما قادهم إلا إلى شر مأزق
تعسف بالأحكام غير موفق وما ظالم في حكمه بموفق
فكم ساقٍ من مصر إلى الموت فتيةً زهاها الصبا في عنفوان وريق^(٣)
جوعٌ كأجال النعام تلفها يدُ القمر للأجال من كل منعق^(٤)

(١) يريد بالغيابات السجون والمنفى.

(٢) يريد قائد جيش الاحتلال.

(٣) الريق: أول الشباب.

(٤) أجال أى القطيع والمنعق من نعق الراعى غنمة إذا زجرها.

له عُصَبٌ فِي غُورِهَا وَصَعِيدُهَا
فَفِي كُلِّ إِقْلِيمٍ حُجُولٌ مُقَيَّدٌ
وَفِي كُلِّ وَادٍ مِنْهُمْ سَوَطٌ مُعْجَلٌ
وَمَنْ لَمْ يَسْقَهُ السَّوْطُ وَالسِّيفُ سَاقَهُ
تَخَيَّرُ أَبْنَاءُ الشَّبَابِ وَتَنْتَقِي^(١)
لِغَيْرِ عَصِيٍّ أَوْ حَبَالٍ مُرَبَّتٍ^(٢)
يَهْدُدُ بِالتَّنْكِيلِ كُلَّ مَعْوِقٍ
إِلَى حَيْثُ شَاءُوا جَهْدُ عَيْشٍ مَرْمُقٍ^(٣)

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٤:

بَلَاءٌ عَلَى الْقَطْرَيْنِ أَغْطَشَ لَيْلَهُ
دَجَتْ يَوْمَ إِعْلَانِ (الْحَمَايَةِ) شَمْسُهُ
بِهِ لَقِحتُ سُدُودَ اللَّيَالِي فَلَيْتَهُ
قَضِينَا بِهِ يَوْمَ الْمَدْلَةِ بِالْأَسَى
عَشِيَّةً يَدْعُو «مَكْسُوِيلَ»^(٧) سَرَاتِهَا
يُبَوِّئُ عَرْشَ النَّيْلِ مِنْ شَاءَ جَانِفًا^(٨)
«رَوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي
فَمَنْ دُونَ عَرْشِ النَّيْلِ كُلِّ مَدْرَبٍ
بَصِيرٍ بِأَسْبَابِ الرَّدَى غَرْبٍ سَيْفِهِ
تَوَتَّ نَفْسُهُ مِنْ بَأْسِهِ فِي مِجْنَةٍ»^(٩)
ضَحَى يَوْمَ نَحَسَ بِالْخُطُوبِ مَوْوِقُ^(٤)
فِيَالِكَ مِنْ يَوْمٍ عَلَى مِصْرٍ أَوْرَقُ^(٥)
قَضَى فِي بَطُونِ الْغَيْبِ لَمْ يَتَخَلَّقْ
وَبَتْنَا عَلَى لَيْلِ السَّلِيمِ الْمَوْرُقِ^(٦)
لِعِيدَيْنِ يَوْمَ الْجُمُعِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ
فَنَنْشُدُهُ وَالْخُطْبُ بِالْخُطْبِ يَلْتَقِي
غِيَابَةَ هَذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلِّقِ
كَمْ مَتَى يُرْعِدُ لَهُ الْهَوْلُ يُبْرِقُ
لِبُوسِ الْمَنَايَا بَيْنَ هَامٍ وَمُفَرَّقِ
مَتَى يَدُنْ مِنْهَا طَائِفُ الْمَوْتِ يُصْعَقُ

نقض العهود والمواثيق

وقال يهاجم الإنجليز وينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق:

فَسَائِلُ بَنَّا أَعْلَاجَ «لَنْدُن» هَلْ وَقَّوْا
بِعَهْدٍ لَنَا بَيْنَ الْأَنْامِ وَمَوْوِقِ

(١) يريد بالغور الوجه البحري ونخير أى تتخير.

(٢) الحجول القيود، وربق أى شد.

(٣) المرمق من بشبع جوعا وعيسك رمقا.

(٤) أغطش ليله أظلمه ومووق اسم مفعول فعله أوق. يقال أوقه أى حمله المشقة.

(٥) الأورق الذى لونه إلى الرماد. يريد أنه مغمى بالخطوب.

(٦) المدله: الذاهل.

(٧) الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية.

(٨) جانفا أى ظالما.

(٩) المجنة: الترس

حمية حام أو تقيّة متقى
ولا بلداً بناؤها لم يحرق
سوى صلف المستكبر المتعزّق^(١)
ولا طيب مخضّر من العيش غيّق^(٢)
وهول زمان بالحوادث متآق^(٣)
تفئ إلى عام من اليأس أبقى
سفاهة غار في المكاييد مفرق
متى مانذكّره القوانين يحرق
لغير الهوى في حكمه لم يوفّق
وتدبير أعمى في الحكومة أحق
لأعلم منه بالنكايه أحق
ويُسعد أشقاها ويشقى به التقيّ
على النهج لم يعدل ولم يترقى

لدى فتنة لم يغن عن مصر عندها
جرت عمّا لم تبق أرضاً أمانةً
ثلاثين عاماً لا ترى مصر منهم
ثلاثين عاماً لم تشم برق راحة
ثلاثين عاماً بين يأس وحسرة
إذا ودّعت (عاماً) من الجور أبقعاً
ثلاثين عاماً بالهوان تسومها
يرى نفسه فوق القوانين بيننا
يبيح غداً ما حرّم اليوم بالهوى
إلهة جبار وإمرة خاطل
إذا ما شكوناهم عميداً فأمرنا
يقرب خوانا ويرفع جاهلاً
إذا ماضى هذا أتى ذاك بعده

إفساد التعليم

وقال يذكر إفساد التعليم والدور المشنوم الذى قام به دنلوب في هذا الصدد:

وبالعلم سلّ «دنلوبهم»^(٤) لم لم يدع
هو الجهل فينا حشدته لحكمة
رمتنا به حمى أصابت بلاده
فحلّ بنا فيمن تمزّق منهم
ولو وزنوا في غير مصر مقامه
فأصبح داءً في المعارف قاتلاً

(١) المتعزّق: العسر الخلق.

(٢) الغيّدق: الرخص الناعم.

(٣) متآق أى مملوء.

(٤) المستر دنلوب وكان سكرتيراً عاماً ثم مستشاراً لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم في عهد الاحتلال.

(٥) الدوق: المهزول.

(٦) القدم: الأحمق، والحليق: الصغير القصير.

فواها على تلك العقول التي ثَوَّتْ
ثلاثين عاماً يسْكُبُ النيلُ حسرةً
وما وردوا من عذبه غير لامع
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة
أ «دنلوب» ما تلك المباني رفيعةً
وما العلم أن يعلو رتاجُ وقبة
أ «دنلوب» هل أرضيت قومك غايةً
بكفيه في لحدٍ من الجهل ضيقُ
على العلم دمَعُ الواله المتشوقُ
من الآل في يبدائها مُتْرِيقُ
تلاً بالأنوار للمتأنق
مق ما تسامق هاهما النجم تَسْمُقُ
على فدن بالأرجوان مزوقُ
أم العير^(١) إن يبعد به الشوط ينفق

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غراء في ثورة سنة ١٩١٩ أرخ فيها جهاد المصريين والمصريات وفضائع الإنجليز في قمع الثورة.

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ في الاحتفال بعيد النيروز يشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم:

فلا. يا ابنة البيت الذي عند بابهِ
رويدك إننا في العلّا يوم نَتَمي
لنا ذروة المجد الذي تحت ظلّه
لنا آية الأهرام يتلو قديمها
ملأنا بها لوح الوجود متاقباً
وللعلم من آثارنا في جبالنا
وللملك منا كلُّ أروع نظمت
ومنا الذي ساق الأساطيل شرّعا
إذا جهلوا «مينا» و«خوفو» و«كفرعا»
وإن أنكروا مُلْك «ابن يعقوب» بيننا
تخرّ ملوك العالمين إذا مرّوا
كلانا أبوه النيلُ أو أمه مصر
تناسلت الأحقاب واعتمل الدهر
حديث الليالي فهي في فمها ذكرُ
إذا ما خلا عصرُ تلاه بها عصر
على الدقر آياتُ بها ينطق الصخر
على تاجه الأفلاك والأنجم الزهر
على البحر يستحبي لصولتها البحر
فليس «برميس» على ملكه نُكر
«فموسى» على ما أنكروا شاهدُ برّ

(١) العير: الحمار، وينفق: يهلك ويموت.

لنا كل ما في الأرض من مدينة بها تعمُر الأمصار والبلد القفر

جزى الله مصرًا ما جزى أهل نعمة
فكم كشفت من ظلمة «عين شمسها»
لنا في الوري حقّ المعلّم لورعوا
فهل يُنكر اليونان أنا هُدايتهم
وهل نسي الرومان للنيل أنعمًا
فنحن الأولى قد أورثوا كل أمة
إذا اعتزّ قومٌ بالجديد سمّت بنا

على الناس يغيّا دونها العُدّ والحَصْر
فما تمّ سهل لا يضي ولا وعر
لنا ذمّة والدهر شيمته الغدر
إلى حكمة في العالمين بها بزوا
بما ورثوا منها سما لهم الفخر
من الفضل ما يغني به الحمد والشكر
مكارم في طيّ الزمان لها تشر

الوحدة بين العنصرين

وقال يشيد بالوحدة بين عنصري الأمة:

بنينا على آداب عيسى وأحمد
فنحن على الإنجيل والذكر أمة
لنا كل ما في مصر والحق قائم
فلن يستطيع الدهر تفريق بيننا
كلانا على دين به هو مؤمن
إذا ما دعت مصر ابنها نهض ابنها
تري ذكر مصر في الهياكل قرينة
فلا يحسن للناس أنا نزلت
ألم ترنا في كل عيد وموسم
إذا كان عيد الفطر فالكل مُفطر
وإن جاء بالنيروز يوم تزاوجت
فيا عيد أهل النيل عدّ أهلك المنى
وصافح بشعبك السعادة مُقبلًا
تلاقت أمانينا على خير غاية

منازل عزّ دونها يقع النسر
يؤيدها الأنجيل بالحق والذكر
تؤيده الآيات والحجج الغر
وان جرّ قوم بالسعاية ما جرّوا
ولكن خذلان البلاد هو الكفر
لنجدتها سيان مرقس أو عمرو
وفي صلوات المسلمين لها ذكر
بنا قدّم أو مسّ وحدتنا الضر
حليفى ولأى لاجفاء ولا هجر
يهلل بالبشرى ويزهو به البشر
عليهم به الأفرأح وانتعش القطر
تجلى منار الحق وانبلج الفجر
بمصر على الأفرأح وليقل الشعر:
وسارت بنا الآمال يقدمها النصر

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدتها في حفلة لعقائل السيدات في مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩:

مصرُ أُمِّي، فداء أُمِّي حياقي	سلمتُ أُمَّنَا من العاديات ^(١)
يارياح الحياة في مصرَ هُبِّي	روّحينا بطيب رِيّا الحياة
ياسماء الحياة في مصر جودي	أنفُسًا فوق نيلها صاديات ^(٢)
مالأمّ الأمصار حملها الدهر	ر صنوف الآلام والموجعات؟
مارعى ذمّة لها يوم كانت	زينة في عصوره الخاليات
إن تناست قديم مصر ليالٍ	أنكرت صالحاتها الباقيات
فاسألوهن عن حديث حديثٍ	لبنيتها عَدُوّه في المعجزات
دهش الناس يوم قيل صحت مصر	رُ وكانت في غفلة وسبات
إذ لقينا الخطوب وهي شداد	فتولّت جموعها مُدِيرات
وركبنا متن الزمان ذلولا	فمضينا لغاية الغايات
بين شايب بالحزم تحدو شبابا	صادقى العزم ثاقبي النظرات

دور المرأة في الثورة

وقال يشيد بدور المرأة في الثورة:

وغوان سمعن دأعى مصرٍ	بين تلك القصور والغرفات
أفزعتهنّ حادثات الليالي	في بنيهنّ بالردى راميات
فترامين من وراء خدور	كنّ فيها البدور مختدرات ^(٣)
سافراتٍ ولسن أهل سفور	حاسراتٍ من شدة الحسرات
وكتبن الوفاء للنيل عهدا	في قلوب بحبه داميات
وتواصين لا يضيّعن ديننا	أو يعطلن سنّة المؤمنات
إيه. لله سعيكنّ جيلا	يابنات الأنجاب والمنجبات

(١) العاديات: الأحداث والنواب،

(٢) صاديات: عطشى.

(٣) مختدرات: مستترات في خدورهن.

سيل جهلا في زُمرة الجاهلات
سلم ونور العرفان محتجبات
ل وراء الآفاق والظلمات
ساطع في بدورها النيرات
من وراء الأستار والحجرات
كيف يقفو أباه في المكرمات
فتولته بالتقى والأناة
عن كرام الآباء والأمهات
خالد في آثاره الخالدات

ظلموا النيل يوم عدوا بنات الد
زعموهن بالحجاب عن الع
بنت مصر كالشمس يحجبها اللي
وهي في أفقها ضياء ونور
أو هي المسك ينفذ العرف عنه
عرفت كيف يكبر المرء طفلا
أبصرت منه المحامد فيه
وغدته المجد الذي ورثته
يا ابنة النيل أنت للنيل دخر

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر:

وأملى على الأيام فليكتب الشعرا
وحسب الليالي أن يقال صحت مصر^(١)
ويا ربما أزرى بصاحبه الصبر
ولكن صمت الليث يعقبه الزار
ولا زهدت فينا مناقبنا الغر
لنا علم بين الدهور ولا ذكر
وهم في بطون الغيب عرفانهم نكر
مقدسة والنيل في لوحها سطر
ونحن الجبال الشم والزهر النضر
بحاضرنا تعلو المحامد والفخر
مضاربه وانشق عن ليله الفجر
وذو الذل أولى ما يكون به القبرا

تكلم وادى النيل فليسمع الدهر
فحسب العوادي نهمة النيل زاجرا
صحت بعد ما أزرى بها الصبر والأنى^(٢)
لعمرك ما صبر الأبي مهانة
فلا تحسوا أنا ونينا عن العلا
ولا أنكرتنا شمس جيل ولا انطوى
وفي الناس من شابت قرون «وأعصر»
وهل مصر إلا آية أزلية
تفلقت الأجيال حول وجودنا
لئن كان ماضينا فخارا فإنا
وقفنا لريب الدهر حتى تغللت
حرام علينا أن نعيش أدلة

* * *

فظائع الإنجليز في قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز في قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا في طريقهم ببعض القرى كالعزيزية والبدرشين:

لو أن مفجوعاً يردّ سؤالاً
وعدا عليهم بالخطوبِ وَصَالاً
للسلم في أرجاء مصر بجالاً؟
سارت رسائلكم بها أرسالا؟
أنا بمصر نكابد الأهوالاً؟
شعبٌ يريد بأرضه استقلالاً؟
عن مصر صوتاً بالشكاة تعالى؟
طار الزمان لوقعها إجحالا؟
يتفثون من السلام ظلالاً
صفوا وشرب رجيقه سلسالا
شرع^(٢) المنايا مسرعين عجلاً
تمدوا عليه وخادعوا الآمالاً
في أرض مصر نكايةً ونكالا
هتك الستور ومزق الأوصالا
نصب الخداع حبالاً وحبالاً
ليس المسوح مُرائياً محتالاً
ويعلموا من أهله الجهالاً
ساموا بنيه الضيم والإذلالاً
خلقت لهم ثمراتها أنفالاً

يا مصرُ ما بال الأسى لك حالا
ظلم الزمان بئى في أحداثه
يا ناشري علم السلام، ألم تروا
ما العدل؟ ما حرية الأمم التي
ما عهد (ولسن)^(١) أين ولسن هل درى
أمن العدالة عنده أن يُبتلى
سفراء (ولسن) هل لكم أن تُبلغوا
صرخات أهل النيل من أحلافكم
أضحت شعوب الأرض في بحبوحه
وهم أحق العالمين بورده
لكنهم سيموا الردى فتواردوا
تعمسوا بحكم الإنجليز وطالما اد
ما بال أبناء الحضارة أوغلوا
وثبوا على القطرين وثبة قاهر
نزلوا بأرض النيل منزل غادر
حلفوا لأهل الأرض حلفة فاجر
أن يسيطوا ظل الحضارة فوقه
حتى إذا ملكوا أزيمة أمره
واستنزفوا ثمرات مصر كأتما

(١) ولسن: الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية. ويريد بعهد مبادئه المشهورة التي أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها.

(٢) شرع، جمع شرعة وهي المورد.

فإذا بدا وجه الخداع وأشرقت
نغضوا^(١) رموسهم لغييلة أمة
شمس العدالة في الوَرَى تتلالا
خُلِقَتْ تعاف الغادر المغتالا

شجاعة المصريات في الثورة

وقال في هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات في مقاومة الإنجليز:

تلك العقائل يرتقين مع الطبّا
تَغْضَى عيون بنى البلاد مهابةً
وأرى ابن لندن نحوهن مصوّبا
يابن اللّكيفة^(٢) إنهن عقائل
يابن اللّكيفة إنهن عقائل
يابن اللّكيفة ما حملن صوارما
أبناؤهن إذا الأصول تقارعت
يا بن اللّكيفة تلك سُبتك التي
وارحمناه لقريّة مفجوعة
محزونة خبّا القضاء لأهلها
من غداة غال البغاة عفافها
ومصونة في الخدير طار يلها
ماذا أرى؟ جنّ أحاط بمضجعي
ما هذه الجلبات؟ لا أدري لها
أنا لست نائمة؟ وهذي جنة^(١)
ويلاه! ما لأبي عَليّ نائما؟
أعلىّ نادِ أباك، لا، أنا خائف
هذي جنود الإنجليز رأيتها
صاحوا بصحن البيت صيحة فاتك
فإذا متاع البيت يُنهب بينهم
ولربّ دار بالقنابل أصبحت

مستقبلات للردى استقبالا
من حولهن وتنحنى إجلالا
بيض الطبا متوثبا مجتالا
يُفدّين من فتكاتك الأنجالا
يسألن حقّا لا يرُدّن قتالا
لبنى أبيك ولا دعون نزالا
كانوا الكرام وكنتم الأنذالا
صدع المقطم خزنها فأمالا
والليل يُرخى فوقها أسدالا
تحت الظلام وقبعة ونكالا
فبكى الحجاب عفافها المغتالا
صيحَات كلب في الحظيرة جالا
أم تلك أحلام تَمُرُّ خيالا؟
معنى ولست أعى لهنّ مقالا
تدنو كأعجاز النخيل طوالا
والبيت من وقع الحوافر زالا
يا أم لا تتكلمي؟ لا لا لا
(بالبدرشين) تقتل الأطفالا
عاتٍ يرى النفس الحرام حلالا
وقد استحلوا نهبه استحلالا
قبراً تضمّن نسوة وعيالا

(٣) جنة: جن.

(١) نغضوا رموسهم: حركوها وهزوها.

(٢) اللّكيفة: اللثيمة.

وأب تحيط به هنالك صبيّة
ظُلماً تشول به القنابل فهو في
يا رَبِّ، إنَّ الإنجليز تعمّدوا
يا رَبِّ، مصرُ بك استجار ضعيفها
فأذقُ عدوك سوءَ ما مكروا به
تبكى عليه وتكثرُ الإغوالا
جوّ السماء مع القناعم شالا^(١)
إرهاق مصر سفاهة وضلالا
في عبّرة تدرى الدموع سجّالا
واجعل عواقبه عليه وبالا

يخاطب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة في أوائل سنة ١٩١٩، يذكر الثورة ويعاتب مؤتمر الصلح في إهماله مطالب مصر :

يادماء الشباب تجرى على الأر
ما لباريس لاترى أهل مصر
كل شعب له بمؤتمر الصلح
ليت شعري فهل أتاه كتاب
أو درى أننا نراد اختلاساً
سفراء الملوك، ضجة مصر
كم رفعنا إليكم في شكاة
وسألناكم البلاغ فلم نسم
إنّ للنبيل ذمة وعهوداً
لو حقنتم تلك الدماء اللواق
كان سهلاً عليكم أن تصونوا
ض جسادا^(٢) به ترى مصر يطلى
بين أهل السلام للعدل أهلاً؟
ح نصير من البعث ومولى
أو تلقى من جانب النيل رُسلًا؟
في بياض النهار والشمس تُجلى
حولكم من زمازم^(٣) الرعد أعلى
حُجّة كالصباح أو هي أجلى
مع جواباً يردّ في الغمد نصلاً
هي دينٌ عليكم ليس يبلى
أهرقتها بنادق القوم سيلاً
أنفساً وردّها الردى كان سهلاً

يندد بفظائع الإنجليز في إخماد الثورة

وقال في هذه القصيدة موجهها حديثه إلى المارشال أَللنبى الذى عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة :

(١) تشول. تعلق. والقشاعم: النسور.

(٢) الجساد (بالكسر): الزعفران.

(٣) الزمازم، جمع زمزمة، وهى الصوت البعيد المدوى.

قَاتَلَ اللهُ مَنْ عَلَيْنَا أَذْلًا
 كَانَ هَذَا بِأَرْضِ (بلجيكا) ^(١) أَوَّلَى
 فَإِذَا جَدَّ جِدُّهَا عَادَ هَزَلًا
 لَمْ تَكُنْ لِلْحُرُوبِ وَالسِّيفِ قَبْلًا
 وَهِيَ زَيْنُ السِّيفِ هَزًّا وَحَمَلًا
 تَرَكْتَهُمْ حَوَادِثَ الدَّهْرِ عُزْلًا؟
 فَ بَدَارِ الْأَمَانِ ^(٢) سَيِّمًا وَسَلَا
 بِرِ بِلَادٍ وَلَمْ يُجِرْ لِلْحَرْبِ خَيْلًا
 أَشْرَفَ الْمَوْتُ فَوْقَهُ أَوْ أَطْلَا
 رَ لَدَيْكُمْ وَبِالدُّنْيَةِ تُبْلَى
 مِنْ حِيَاضِ الْمُنُونِ عَلَا وَنَهَلَا
 جُبْتُمُ الْوَعَرَ مِنْ فِلَسْطِينَ سَهْلًا
 فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ لِلْفُوزِ حَبْلًا
 لَمْ عَلَيْكُمْ، لَا تَنْكَرُ الْعُجْمُ فُضْلًا
 حَرَّمَ الْأَرْضَ غَيْرَةً أَنْ تُغْلَا
 مِيزَ عَنْهُ وَنَاءَ بِالْعَبَاءِ حَمَلًا
 تَفْضُخُ الْجَارِيَاتُ وَزُنَا وَكِيلًا ^(٣)
 كَمْ بِهَا الْقَطَنُ كُلُّ عَامٍ أَهْلًا
 مَا وَفَيْتُمْ مِنْهَا الْقَلِيلَ الْأَقْلَا
 إِنْ تَقُولُوا قَدْ يُنْكَرُ الْفُضْلُ جَهْلًا
 مِنْ هِبَاتٍ مَا جَاوَزَتْ بَعْدُ حَوْلًا
 تُبْهِمُ فِي الْوَعْيِ وَبَاءَ وَقَتْلًا

أَيُّهَا الْقَائِدُ الْمَدِيدُ عَلَيْنَا
 صَلَفٌ بَيْنَ أَهْلِ مِصْرَ وَعُجْبٌ
 صَلَفٌ جَدُّ فِي مَوَاطِنِ هَزَلٍ
 عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ مِصْرَ بِلَادٌ
 مَنَعَتْهَا الْأَيَّامُ حَمْلَ الْمَوَاضِي ^(١)
 فَلَيْمَ الْكِبَرِيَاءُ بَيْنَ أَنْاسٍ
 أَيُّهَا الْقَائِدُ الَّذِي حَيَّرَ السَّيِّدَ
 عَلَّمَ الْخَيْلَ كَيْفَ تَخْتَالُ فِي غِيَدٍ
 إِنَّمَا يَحْمَدُ الْمَخِيلَةَ ^(٢) يَوْمٌ
 مَا لِمِصْرَ تُجْزَى جَزَاءَ سِنَمَا
 وَأَرَاكُم لَوْلَا بَنُوها سُقِيتُمْ
 سَائِلُوا الشَّامَ هَلْ بَغِيرَ بَنِينَا
 أَوْ مَدَدْتُمْ بَغِيرَ أَبْنَاءِ مِصْرٍ
 إِبْلُ مِصْرَ وَأَتْنَاهَا ^(٣) تَعْرِفُ الْفُضْ
 لَوْ دَرَى النَّبِيلُ مَا سَيَلْقَى بَنُوهُ
 كَمْ ظَفَرْتُمْ مِنْهُ بِمَا عَجَزَ (التَّسَا)
 كُلُّ عَامٍ تَجِبِي إِلَيْكُمْ حُبُوبٌ
 وَقَنَاطِيرُ مِنْ نَضَارِ يَوْافِيهِ
 نَعَمٌ لَوْ أَرْدَقْتُمُوهُمْ شُكْرًا
 مَا جَهَلْتُمْ لِمِصْرَ فِيهَا صَنِيعًا
 أَنْسَيْتُمْ لِمِصْرَ مَا مَنَحْتُمْكُمْ
 أَمْ نَسَيْتُمْ أَبْنَاءَها يَفْتِكُكُ الْمَوْتُ

(١) يشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألماني في بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى.

(٢) المواضي: السيوف.

(٣) الشيم: أغماد السيف.

(٤) المخيلة: الكبر.

(٥) الأتني: الحمير؛ والعجم: البهائم...

(٦) الجاربات: السفن؛ وتفَضَخها: تسكرها، لتفلها وكثرتها.

وختمها بقوله:

معشرَ الإنجليز مصر لأهليها ومن ظن غير ذلك ضلًّا
معشرَ الإنجليز مصر استقلت وجديرٌ بالنيل أن يستقلا

يخاطب مؤتمر الصلح أيضًا وينادى بالاستمرار في الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يخاطب مؤتمر الصلح بباريس، وينذر بالاستمرار في الكفاح إذا لم تجب مطالب مصر:

أباريسُ إن كانت لضيفٍ كرامة	لديك فضيف النيل أبلغ من يُثني
أباريسُ إن تُدنى العدالةُ وافدًا	عليك فأهل النيل أكرم من تدنى
أباريسُ كم للنيل عندك من يد	تناقلها التاريخُ قرنًا إلى قرن
ومن شكرها أن تعرفوا حق أهله	وَألا تَسُومُوا (وَقُدَّه) صفقة الغبن
حرامٌ عليكم أن يراق له دم	حرامٌ وأنتم قادرون على الحقن
فيا أمراء الغرب دعوة مُسمع	يُصرِّح في رفع الشكاية ولا يكتن
سلوا جلفكم عما جرى في ديارنا	وما جرحوا مما يشين وما يظني
وما هذه الغارات يعلو صريخها	مُوجبةً، هذى ترُوعُ وذى تُفنى
وما هذه الأجسادُ في كل بلدة	مُصرَّعةً فوق التراب بلا دُفن
إذا طفح الخزان من دم أهله	فثُمَّ دَمٌ في الثغر يُربى على الخزن
نرى الحرب فيما بينكم جفَّ عودها	فما بالها في مصرَ ناضرة الغصن؟
على غير ما ذنب جنينا فما لنا	نُسَامُ الدنيايا لم نحارب ولم نَجِن
فيا عجبًا شعب يساق بأرضه	أسيرًا إلى دار المذلة والسجن

ملوكُ الوردى، لن يترك النيل حقه	ولو مزقونا بالمتقفة اللدن ^(١)
ملوكُ الوردى، لن يترك النيل حقه	ولو طحنوه بالمتقفة الدكن ^(٢)

(١) يريد بالمتقفة اللدن الرماح المقومة.

(٢) يريد بالمتقفة الرصاص والقنابل. والدكن: ما تضرب إلى السواد.

ظننا بهم خيراً من الدهر حِقْبَة فكانت قصارنا بهم خيبةُ الظن
صبرنا وأشهدنا الأنام عليهم إلى أن رَمَوْنَا بالمهانة والجبن
ثلاثين عاماً بعدها سبعة خلت طوال الليالي السود حالكة الدجن
عواصفُ بأسٍ ينشدها النيل تحتها نَقَمْتُ الرضا حتى على ضاحك المُنَن
سَقَوْنَا بها مُرّاً من العيش آجناً وياليتهم لم يرهقوا الناس بالْمَن
فإن تُتَصَفَّوا أبناء مصر فَمِنَّةً لكم أبداً نُثْنِي عليها بما نثْنِي
وإلا رددناها عليهم كريمة وللدهر شأن لا يُقاس على شأن

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعي الزعيم محمد فريد في منقاه (نوفمبر سنة ١٩١٩) - وكانت مصر في إبان الثورة - رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية وبلاغة قال:

سَلُّوا جَفْنَ عَيْنِي مَا لَه بَات يَنْزِفُ وعهدى به إن سُمِّتَه الدَمْعَ يَأْنِفُ
ويا رَبُّ هَمْ يَمْلِكُ النَّفْسَ بِالْأَسَى ويعدو على العين الجمود فتذْرِفُ
وما أَنَا مَا دَمَعِي! وفي مصر أَنَّهُ بها الطير نوح والغمام كُفُ^(١)
بكين غريباً طَوَّحَ البَيْنُ دَارَهُ فلا الْعَوْدُ مَأْمُول ولا الدَارُ تُعْرِفُ

وما أنكرتُ مصرُ ابنها فَنَبَتْ به ولكنه دهرٌ على الحر يُجْنِفُ^(٢)
ثوى غريبةً، بعد المعاد قرأها فيا طول ما يستشرف المُتَشَوِّفُ
وكنا حسينا شُقَّةَ البين تنطوى فيأوى إلى مِرباعه المُتَصَيِّفُ^(٣)
وأطمعنا في الملتقى لمعُ بَارِقِ من السُّلَم في ليل الحوادث يُخْطَفُ
فلم نر سُلماً ينتهى النأى عندها بناءً ولا حتم الردى يتخلفُ

بعينى من نادى مناديه للنوى فَوَدَّعَ لا يَأْنِي ولا يتوقَّفُ

(١) وكف: مرسلات بمائها.

(٢) أجنف: جَار وعدا.

(٣) المرباع: المكان ينبت في الربيع؛ والتصيف: المصطاف.

لها حُرَقٌ تُدمى القلوب فتَنطَفُ
يكاد لها من تحته البحر ينشَفُ
يكفكفها كِبَرًا فلاتتكفكف
قسا أهله جهلا عليه وأجَنَفُو
يُعْنَى عليها جارم أو يُعْتَفُ
إذ الدهر ألوى والحوادث تُعْصِفُ
تؤيدنا يوم العتاب وتُنْصِفُ
بذى حَدَبٍ يُقْسَى عليه فيرَأَفُ
هو الدهر في أحكامه يتعَسَّفُ

يُدافع آلامًا تياسرن قلبه
ففى قلبه مما دهى النيلَ زفرةٌ
وفى عينه من لوعة البين عبرةٌ
وفى نفسه عُتْبَى على البلد الذى
برمت بنا يا مصر لا عن جناية
وكيف تناست مصر حسن بلاتنا
مواقفنا يا أم فيك شهودها
رويدك نفسًا أنكرت فعل قومها
على رغم قومى ما لقيت وإنما

وللنيل ما ألقى وما أتكلف
فيجمعنا يوم بمصر وموقف
ومالى من أسبابها أتخوف
بأن المطايا بي إلى الموت تزحف
بلادى تحبو في الإِسار وترسُفُ
أليّة^(١) من لا يترى حين يحلف
فيما الردى أو يُنصف النيل مُنصفُ
وحجبه سترٌ من الغيب مُسجَفُ^(٢)
وبين ديارينا جبال وصَفْصَفُ^(٣)

سلامٌ على قومى، وداعًا بنى أبى
ويا موقفَ التوديع هل تُسعد المنى
أخاف المنايا أن يكنّ رواصلًا
تحدثنى طيرٌ جرّين بوارحًا
ويحزننى ورد المنايا ولم تزل
حرامٌ علينا أرضها وسماؤها
ويا فلكُ باسم الله بحراك أقلعى
فما كان إلا ن طوى البحر والثرى
فدون تلاقينا ليالٍ وأشهرُ

على همة من هبها الدهر يُكَلَفُ
عوادٍ إذا صبت على «الألب» يحترَفُ
جدير بها الليث الهصور المقذَفُ

هنالك ألقى فى بنى الغرب رحله
بعيد المرامى لا تهد صفاته
تقذفه فى زاهر اليأس همة

(٣) الصفصف: القلاة.

(٤) جبال الألب المشهورة.

(١) الأليّة: القسم.

(٢) أسجف الستر: أرسله.

سوى الحق أو يغنو لبأس فيضعف
وفي الغرب للعاني مراد ومألف
وأنيابها من شدة البأس تصريف
على القَرَّ أسمال به يتلقف
تجلد لا يشكو ولا يتأفف
وفي مصر يبكيه البناء المطئف
بهم نعتلى هامَّ الفخار ونشرف
على البأس ماضٍ ذو غرارين مُرهف
بذكرهم تلهو القيمان وتعزف
نمَّتْهم لعلها معدٌ وخندف^(٢)
مناقبهم وُرُق من الفخر هتف

مُنَى قومه والحرَّ للحر يُنصف
من الغرب ناعٍ قام باسمك يهتف
رسائلهم بالموجعات وأرجفوا
على فُرُش البلوى ببرلين مُدنف
وقاموا بأكناف السرير وطوفوا
وتبكي له منهم قلوبٌ وترجف
من الموت مُضنى داؤه يتجوف
كؤوسا بالاستسقاء للنفس تخطف
عليك بنيتها، والردى ليس يُصرف
بنو مصر غَالوا في الفداء وأسرفوا
بما جمعوا من تاليدٍ أو تطرفوا
براها الأسي من بعده والتلف

وهيهات أن يخشى أخو الحق قِوَّة
ثوى في بلاد الغرب بالنيل عاتياً
يصرف أحداث الليالى غواشياً
فطوراً تراه في «جنيف» لباسه
إذا صَفِرت من ذات دنياه كفّه
ويأوى إلى بيت وطىء عماده
ويكنفه من فتية النيل أنجم
إذا احتدمت للبأس نارٌ فعلهم^(١)
وإن ذكر المجد القديم فإنا
إذا ما انتمى قوم لدنيا جدودهم
وإن ذكروا أبناء فرعون رجعت

فيا مُسمَحَ الأحرار من كل أمة
لقد فجّع «الفسطاط» فيك وأهله
لقد فجّعونا فيك يوم تتابعت
فيا ويح يومٍ قال فيه غريبها
بروحى إذ جاء الأطباء خُشْعاً
يعلّله بالقول منهم مُبشّرٌ
تَجَوَّفَ الداءُ العضال وهل نجا
قضى الله أن يُسقى «فريد» بأرضنا
يعز على «برلين» أن يغلب الردى
أطبائه: لو يستطيع فداءه
فليل عليه لو يُفدّيه قومه
فليت الليالى سالت فيه أمة

(١) العلم: الضخم العظيم.

(٢) معد وخندف حيان من العرب؛ يريد أن أصولهم عريقة في النسب والشرف.

عرفنا له بِرّ الوَفَى بعهدِها إذا خان قومٌ عهدَ مصر فلم يُفُوا
أفاض عليها نفسه بعد ماله ومالَ بهم عنها متاعٌ وزُخرف
ولولا رجال مؤمنون نَجَوْا بها لراحت بها ريح من الغدر زَفَزَف^(١)

يندد بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق في الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدلى وانقسمت الأمة تبعاً لذلك، نظم قصيدة يندد فيها بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى توحيد الصفوف قال فيها:

كنا أشقاء الإخاء فما لنا صرنا بنى العَلَات والأخْياف^(٢)؟
بالأمس كان إخواننا مثلاً وكنا زينة الخلطاء والآلاف
كنا إمامَ المشرقين، سبيلنا قَصْدٌ ومُشرعنا نَمِيرٌ صافي
يترسمون على الحياة طريقنا للحق في الإيضاح والإيجاف
فإذا بنا جارت هَوَادَى رَكْبنا عن منهج الآباء والأسلاف
عَبَثْتُ بوحدتنا الخطوبُ وأعلمت في غَرَس أَيْدِينَا يَدُ الإِتلاف
والخصم يحجل بيننا للشر في ثوبين ثوب مُوافق ومنافي
مُتَنَمِّرٌ يُغْرِى العداوة بيننا بالكيد والتفريق والإرجاف
أَوَ لَيْسَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ عِبْرَةٍ لِبْنِي أَبِي، وَالْأَمْرُ لَيْسَ بِخَافٍ؟
أَوَ لَمْ يَرَوْا أَوْ يَسْمَعُوا نَذْرَ الردى تَطْوِي إِلَيْنَا لُجَّةَ الرَّجَّافِ^(٣)
هَذِي تُلَوِّحُ بِالوَعِيدِ وتلك تر مِينَا بِهِ فِي لَهْجَةِ الْأَجْلَافِ^(٤)
جعلوا صحافتهم مظاهرَ كَيْدِهِمْ فتزاورت جنفاً عن الإنصاف
صحف يضيغ الحق في ألوانها صوراً يزد بها على الآلاف
الحق فيها كل ما شاء الهوى حُكْمٌ تُوَيْدُهُ بِلَا اسْتِثْناف
فليعتبر قومي كفى ما قد جرى من ذات خلف بيننا وتنافي
لَا تُوجِعُوا تِلْكَ الْقُلُوبَ فَحْسِبَهَا جَامَ أَصَابَ مِنَ الزَّمَانِ الْجَافِي

(١) زَفَزَف: شديدة الهبوب في دوام.

(٢) العَلَات: جمع علة، وهى الضرة. والأخْياف: الذين أهمهم واحدة وآباؤهم شق.

(٣) الرجاف: البحر؛ سمي به لاضطرابه.

(٤) الأجلاف: جمع جلف؛ وهو الرجل الجافى.

عشر كواملُ في الخلاف فهل بها
 شربت من الأيام كل مرتق
 أبني أبي، ردوا القلوب إلى الهدى
 الوفد منا والحكومة بعضنا
 والنسر غايته البوار ومن أبي
 من ذلك الداء المبرح شافي
 من كل مر بالخطوب زُعاف
 وتبهاوا فالدهر ليس بغافي
 هذا أخو هذا بغير خلاف
 فالله للشعب المروّع كافي

* * *

أحمد زكى أبوشادى

ولد سنة ١٨٩٢



هو الشاعر المجدد، والأديب الحر المفكر، الدكتور أحمد زكى أبو شادى.

ولد سنة ١٨٩٢ بالقاهرة، من أسرة عريقة فى الوطنية، وأبوه المرحوم محمد أبو شادى أحد كبار المحامين الذين نالوا المكانة الرفيعة فى عالم المحاماة ومن جاهدوا فى الحركة الوطنية، ووالدته السيدة أمينة نجيب من السيدات الأدبيات الشاعرات، وكان أخوها المرحوم مصطفى نجيب^(١) أديباً وطنياً وصديقاً ونصيراً للمرحوم مصطفى كامل.

أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية فى المدارس المصرية، وظهرت مواهبه الشعرية والأدبية فى هذه المرحلة من الدراسة، وكان من تلاميذ مصطفى كامل فى الوطنية، ودخل كلية الطب بالقاهرة، ولم تصرفه الدراسات الطبية والعلمية عن الاستمرار فى دراساته الأدبية، فأحب الشعر وتذوقه، وأقبل على نظمه وهو فى هذه السن المبكرة، وشعره رقيق ممتع، يمجّد الوطنية وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة، واحتفظ بهذا الطابع على تعاقب السنين، وأكمل دراسته الطبية فى إنجلترا، وتعمق فى الآداب الإنجليزية إلى جانب دراسته من قبل للآداب العربية، وازداد تعلقاً بالتجديد فى الأدب والشعر، ولما عاد إلى مصر تنقل فى مناصب الحكومة وصار أستاذاً للبكتولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومديراً للمعمل البكتولوجى بالمستشفى الحكومى بها.

كان ولا يزال يصدر فى شعره عن إلهامه وعقيدته وإيمانه، وفى ذلك يقول عن نفسه: وهل كان شعرى غير إيمان مهجتي وعشقى وإحساسى ولحنى المردّد وكون مدرسة أدبية تزعمها ترمى إلى الثورة على القديم والدعوة إلى الحرية فى الفكر

(١) والد الأديب الأستاذ سليمان نجيب.

والأدب والفن، وكان لهذه المدرسة مجلة أدبية تسمى مجلة (أبولو) الشعرية الأدبية، أصدرها أبو شادى فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وكانت ندوة لأنصار الجديد من الشعراء والأدباء، وتكاد تكون المجلة الشعرية الوحيدة التى ظهرت فى العالم العربى، وقد استمرت نحو ثلاث سنوات ثم احتجبت.

وقد صادف أبو شادى فى حياته الحكومية والأدبية عنتا وأذى من رؤسائه وأنداده، واستهدف من أجل نزعتة الحرة لشتى ضروب المناوأة، فاعتزم الهجرة من مصر، وهاجر فعلا إلى نيويورك فى سنة ١٩٤٦، وهناك رحبت به الدوائر الأدبية والعلمية ترحيباً عظيماً، وأخذ ينشر فى الصحف والمجلات العربية والأفريقية فى أمريكا ثمار أدبه وشعره، ونفحات آرائه وأفكاره، كما أخذ يذيع من «صوت أمريكا» مرتين فى الأسبوع، وأسس فى نيويورك (رابطة مينرفا) الشعرية الأدبية على غرار (جمعية أبولو) وقدرته الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية فى العالم الجديد، وانتخب أستاذاً للأدب العربى بمعهد آسيا بنىويورك، وهو يتولاه إلى اليوم^(١) بجدارة تفخر بها مصر، ويعد أبو شادى رائداً من رواد النهضة الأدبية والفكرية الحديثة، وهو رغم هجرته إلى العالم الجديد دائم الصلة بوطنه بواسطة الصحافة فى أمريكا وفى مصر، وبواسطة مريديه وتلاميذه الممتازين الذين اقتبسوا من روحه التقدمية وتعلقه بالحرية وإيمانه بما يقول ويكتب.

وهو فى أحاديثه ومحاضراته لا يفتأ يذكر مصر ويناضل عنها ويحن إليها ويشيد بها ويعلمائها وأدبائها وكتابها وتاريخها، وهو فى غربته خير سفير أدبى لمصر فى العالم الجديد. وله عدة دواوين من الشعر نعى فيها منحنى التجديد والابتكار. وحلّق فى سماء الفن والخيال والسمو الفكرى.

نذكر منها ديوان «أنداء الفجر» وهو أول دواوينه ومختارات من نظمته سنة ١٩١٠. و «أنين ورنين» وهو صور من شعر الشباب. و «الشفق الباكي» وقد ظهر سنة ١٩٢٤. و «الينبوع». و «أشعة وظلال» وقد نشر سنة ١٩٣١. و «أطياف الربيع». و «فوق العباب» وقد طبع سنة ١٩٣٥. و «عودة الراعى» وقد ظهر سنة ١٩٤٢.

ومن آخر دواوينه «من السماء» وقد ظهر فى نيويورك سنة ١٩٤٩ ويضم معظم شعره من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٩.

هذا ماعدا ما أخرجه من الكتب والمؤلفات والقصص والمسرحيات.

(١) وقت ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٥٤.

رثاؤه لمصطفى كامل

قال من قصيدة له في فبراير سنة ١٩٠٨، وكان ما يزال طالباً بالمدرسة الثانوية يرني مصطفى كامل:

يا مصر حلق طير اليأس في أفق
مات الرئيس فمات بعده هم
داج بأحزان شعب كان ساليها
قد كان نبراس فكر منه يجليها
إلى أن قال:

سارت به أمة أحيا مداركها
ودت لو أن صروف الدهر تأتيها
وتلكم النفس هذا الشعب يفديها
والكل يلبس ثوبا للحداد أسي
على الفقيد ومامن ثمت يهديها
أبصارها نكست من فوقها كتبت
عبارة كان صدق الحس يليها
يامصر الفتاة مرور العمر تذكره
لروحه لم تزل تعدو أمانيتها

مفخرة رشيد

وله في سنة ١٩٢٥ قصيدة وطنية من نيف وستين بيتا، نظمها تمجيداً لذكرى معركة رشيد التي وقعت يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ بين المصريين والإنجليز وفاز فيها أبطال رشيد على الجيش البريطاني الذي زحف على مدينتهم يريد احتلالها، فصدوا له وقابلوه في الشوارع واستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم حتى صدوه عنها وهزموه وارتد عن المدينة بعد أن فقد في المعركة ١٧٠ قتيلًا و ٢٥٠ جريحًا و ١٢٠ أسيرًا^(١)، وكانت هذه المعركة حقاً مفخرة لرشيد وأشاد أبو شادي أيضاً في قصيدته بالمعركة الثانية التي وقعت في (الحمام) وانتهت كذلك بهزيمة الجيش البريطاني.

قال:

رَوَّحِينَا بِأَحَادِيثِ الْجَلالِ
وَأَسْمَجِي (يَا مِصرُ) أَنْ نُزْجِي لَهُمْ
مُنْتَهَى فَخْرٍ رِجالٍ بِرِجالٍ
سِيرَةً مِنْهُمْ تُغْشِيْنَا بِحَالٍ
وَبِأَمالٍ لِآتٍ غَالِبٍ
إِنَّ آتِي الْمَجْدِ مِنْ ماضِي الْخِيالِ

(١) راجع في تفصيل معركة رشيد كتابنا (تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد علي).

خاطئي مَنْ ظَنَّ ماضيه بلا
مأنسا شعب بلا جهيد مضى
هى أحلام وأعمال بننت
هو مهذ ولدت فيه العلى
لم تحيى طفرة جيل لاعب
كابِر عن كابِر قد صانها
مُرشيد يهدي إلى غالى المآل
وتبقى فيه تذكّار الفعّال
فى سنين وسنين كلّ غال
بأناسة وكفاح ونوال
إنما جاءت على طول الليالى
بمراعاة وأخلاق المعالى

إلى أن قال محييا ذكرى أبطال رشيد الذين صدوا جيش الغزاة المستعمرين :

رَوّحينا (مصر) مِنْ ذكراهمو
بلغينا كيف أودى عَزْمُهُمْ
كيف هَزُّوا قُوَّةَ أَكْبَرِهَا
كيف ضَحُّوا للرمال دَمَهُمْ
كيف أَفْنَوْا مِنْ جُنُودٍ صَوَّبَتْ
كيف كيف استبسّلوا فى واجب
تلك ذكرى عن بُلوغٍ لِمَحَالٍ !
بصعابٍ قُمْنَ أَقْسَى مِنْ جِبَالٍ !
عالمُ القُوَّةِ والحربِ الضَّلَالِ !
فى دفاعِ العزِّ عن تلك الرّمال !
نحوهم أقوى مُعدّات القتال !
وأقاموا المُلْكَ وضَاءَ الخلال !

يا (رشيد) الذكْرُ حَيٌّ خالِدُ
أنتَ تُغرُّ ناطقٌ فى رَسْمِهِ
لعظيم الجُهدِ معدوم المِثالِ
حُرْمَةُ الماضين (للنيل) الزّلالِ

إلى أن قال :

مثل ما أذكى لها شُبانها
كالبجرادِ نَشْرُهُمْ فيكَ على
فإذا العادون جاءوا ما بهم
وأنتَ فرقتهم فى نَشْوَةِ
بين قَتْلَى وَحيارى هربوا
ثم جاءوا فى جيسٍ لِحِبِ
فتحدّوا خَصَمَهُمْ قبلَ السّؤالِ
رَبَوَاتٍ يرقبون وتلال
ثِقَةَ إِلَّا وضاعت فى مَلالٍ
عَنكَ فارتدّت خيالاً فى خيالٍ (١)
وضحايا لإسارٍ وعقال
وعَوادٍ لم يكن جالت ببالٍ (٢)

(١) يقصد معركة رشيد.

(٢) يقصد معركة (الحمداد) التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وادكو؛ وقد وقعت فيها المعركة الثانية بين الإنجليز والمصريين يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧؛ وكانت أشد وأقوى من معركة رشيد، وهزم فيها الجيش البريطانى أيضاً هزيمة ساحقة، انتهت بفشل الحملة البريطانية وجلاء الإنجليز عن الديار المصرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧.

مِنْ مَتَارِسٍ كَفَتْ رُؤَيْتَهَا
وعديد بين باغى مدفع
وَأَبَوْا إِلَّا حَصَارًا هَائِلًا
وَعَبِمَتْ كُلُّ مَا كَانَ لَهُمْ
رحلوا رحلة جانٍ ضائع
لحسابٍ وَعَقَابٍ وَنِكَالٍ
أَسْوَدِ الْوَجْهِ وَإِمْدَادٍ مُوَالٍ
فَدَفَعَتِ الْحَصْرَ دَفْعًا بِالْعَوَالِ
مِنْ شُمُوخٍ وَإِبَاءٍ قَبْلَ مَالٍ
بِئْسَ يَوْمُ الْخُسْرِ مِنْ يَوْمِ ارْتِحَالٍ

* * *

هكذا بالبأس تحيا أمة
هكذا بالوحدّة الحسنة لا
إِنَّ شَعْبًا يَتَحَدَّى (انجلترا)
وَبَنِينَ يَنْشُدُونَ مِثْلَ مَا
إِنَّمَا الْأُمَّةُ مِنْ أَفْرَادِهَا

إلى أن قال:

إِيَّاهُ قَوْمِي قُمْتُ فَيْكُمْ ذَاكِرًا
وَأَنَا الْيَوْمَ طَرُوبٌ ذَاكِر
فلنا كلتاها عنوان ما
أَيُّ مَصْرِيٍّ دَرَى مَا لَقَّنَا
أَيُّ جَمْعٍ مِنْ خِصَالٍ خَرَّةٍ
أَيُّ شَعْبٍ فِي جِلَالٍ وَسْنَى
كُلُّنَا فَرْدٌ لَهُ أُمْتُهُ
لَأَسْبَاتٍ - هَانَ أَمْ طَالَ بِنَا -
فِي طَلَابِ الْمَجْدِ - أَنْ تَمْضَى بِنَا
خَابَ مَنْ ظَنَّ الرِّقَادَ مَيْتَةً

(نافرين) الْأُمْسَ فِي مُشْحَى الْمَقَالِ
دُرَّةُ التَّارِيخِ شَعَتْ كَاللَّالِي
يَحْفَظُ التَّارِيخُ مِنْ غَالٍ وَحَالٍ
مِنْ عِظَاتٍ ثُمَّ أَضْحَى وَهُوَ سَالٍ ؟
لَمْ تَكْرَمْ جَمْعَ هَاتِيكَ الْخِصَالِ ؟
يَدْعَى أَنَا عَبِيدٌ وَمَوَالٍ ؟
حَظُّهُ بَلْ قَضَاهُ فِي كُلِّ حَالٍ
مَا يُؤَدِّي بِعُلَانَا لَانْحِلَالٍ
فَتْرَةٌ لِلَّهِ أَوْ دَوْرٌ لانتِقَالٍ
كَمْ أَسْوَدَ رَقِدتُ تَحْتَ الظَّلَالِ !

* * *

آن رَجْعُ الْجَهْدِ قَوْمِي فَاَنْفَضُوا
بِسِلَاحِ الْعِلْمِ قَبْلَ السَّيْفِ قَدْ
سِنَّةُ اللَّهِ وَهَيَّا لِلْمَجَالِ !
صَارَتْ الْحَرْبُ أَعَاجِيبَ اشْتِغَالِ

رَبِّ خَيْطٍ مِنْ نَسِيجِ الْقَطَنِ لَا يَبْلُغُ الْمَدْفَعُ مِنْهُ كِفْعَالِ
عَالَمٌ فِيهِ الْفَنُونُ قُوَّةُ وَالصَّنَاعَاتُ، وَلَيْسَتْ لِلْجِدَالِ
عَمَلٌ مُسْتَتَبَعٌ لَا يَنْقُضِي لاَقْتِصَادٍ وَانْتِفَاعٍ وَاشْتِمَالِ

* * *

أُمِّي ! أَحْلَى دُعَائِي دَعْوَةٌ لَكَ مِنْ قَلْبِي بِهَا أَسْمَى ابْتِهَالِي ؟

رثاؤه لفريد

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة له في رثاء محمد فريد :

سلوا (برلين) عن حل فيها يفتت كبده المرض العنيد
مضى يستوهب الأيام عمرا تتم به المساعي والجهود
قلم يذهب بعلمه طبيب ولم يكتب له عمر جديد
وخرّ على السرير وحب مصر على تبريح علمه يزيد
فيا لهفى عليك وأنت كهمل غريب عن أحبته بعيد
تموت فلا ترى مثواك أم ولا أخت ولا زوج ودود
ولا يروى ثراك أخ شقيق بدمعته ولا طفل وليد

الحياة كفاح

قال سنة ١٩٢٣ من قصيدة له عن (المجاهد الجريح) يصف الحياة وأنها كفاح وجهاد :

شهدتُ من الدنيا المعارك والمُنَى تسوق الفتى نحو المعارك والخطب
فصرتُ كجندىٍ جريحٍ مضمدٍ يشن ولكن كم يحنُّ إلى الحرب
ويهرب من حكم الحجا في وثوبه إلى ساحة الهيجاء والموقف الصعب
توالت جراحاتي وأوذيتُ دائما وهيهات ألقى من سلاحى ومن دأبى

يدعو الشعب إلى مجاهدة الفساد

وقال من قصيدة له في ديوانه (عودة الراعى) سنة ١٩٤٢ :

يا شعبُ قمْ وانشدْ حقو كك فالخنوع هو الممات

تشكو الغريب وعلة الشد كوى الزعامات الموات

قد عمت الفوضى وقد دب الفساد بكل شئ
فإذا سكنت فلن تُعد مدّ ولن يفى لك أى حى

ما دمت تقبل أن تك نون من الضحايا كالعبيد
سيُسومك القوام والأسد ياد ألوان القيود

يا شعبُ كيف تطالب الغُ رباء بالبرّ السخى
وتطبق مُلكك فى محَا باقٍ وفى نهب وغى

هيهات يُعطى الحقّ من ألف التهاون فى الحقوق
هذا هو العدل الصحيح وغيره عَيْن المروق

انهض وحاكم بائعيك إلى الهوى وإلى الفساد
أو مت ذليلاً لا يُقا س بذله حتى الجماد

يودع مصر

وقال يودع مصر ويذكر أسباب هجرته فى قصيدة له عنوانها (لم أرتحلت؟):

سألوني لم ارتحلت؟ كأنى لم أجبههم بسيرتى نصف قرن
شادياً بالطلق من شعري الباكي أغنى لمجدهم ما أغنى
وحياى لعزهم فى كفاح ككفاح الشعاع فى وسط دجن
مُثل لن تخد نوعاً وعدا كنجوم الساء فى كل فن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤس مرارا وكل حظى التجنى.

وكأنى وحدى المسىء بإحسا
 ما كفاهم أنى أعانى وجودى
 ما كفاهم أنى أوصل ليلى
 ما كفاهم أنى أضحى بروحى
 ما كفاهم أنى تناسيت نفسى
 ما كفاهم أنى لهم ذلك الرا
 ما كفاهم أنى ارتضيت شقائى
 ما كفاهم هذا وهذا فنادوا
 ثم حالوا بين المثالية العد
 فترحلت حيث تحترم الأحرار
 وأظل الوفى رغم اغترابى
 فى لعصرى أو أنه لم يسعنى
 فى وجود بقاؤه محض غبن
 بنهارى لأجلهم وسط من
 حينما عز من يضحى ويفنى
 فوق نسيانهم حقوقى وأمنى
 تد يشقى كالراح فى أسردن
 لى جزاء ويهدمون وأبنى
 بعقوقى وما راعوا حق سنى
 يا لفكرى وبين شعبى وبينى
 وحيث الهواء طلق لذهنى
 لبلادى ما غيبت قط عنى

القلب الباكى

ومن قصيدة نظمها فى عيد ميلاده عام ١٩٤٨ يتاجى فيها الوطن قائلاً:
 يامصر لولاك ما فارقت فى حرقى
 أهواك فى غربتى أضعاف ما سمحت
 ما العيد عندى فى مباهاجه
 على سلام وفى حرية شملت
 الثلج حولى أحنى فى تحرره
 والنفى أسعد أيامى إذا فرضوا
 ياربّ مقترب فى حكم مقترب
 أزكى الجنان، ولا عوقبت، لولاك
 به المقادير فى قربى، وأهواك
 أنا الغريب فعيدى يوم ألقاك
 لا أن أعبود لأغلال وأشارك
 على فؤادى من ضيم بدنيك
 ذل الجباه لألئون وأفأك
 وضاحك كل ما فى قلبه باك

الحنين إلى الوطن

قال يصف حنينه إلى الوطن وتعلقه به فى غربته:

نفيان: نفى مغرب عن أمتى
 وحيالى الأفراح شتى ما لها
 قالوا فررت وما فررت وإنما
 عان، ونفى معذب فى وحدتى
 حد، فلا ألقى التعيم بنعمتى
 كافحت فى وطن به حريقى

وضربت بالحرمان أمثال الهدى
لم أعن بالأشكال قدر عنايتي
حرق البخور لن أذلّ بلاده
وجعلت ما عانيت قربانا لها
وطنى! رضيتك منصفًا في قدره
للعاملين وكم شقيتُ لأمتي
بتمسكي بمبادئى في ثورتي
وحرقْتُ في إعزازها من مهجتي
وأظلّ في سقمى وفي شيخوختي
جهدى وإخلاصى وغاية غيرتى

يتشوق إلى مصر

ومن قصيدة له في حفلة أقيمت لتكريمه في نيويورك سنة ١٩٥٠:

تركتُ مصر وقلبي لوعة ولظى
فدّى لها - لو أباحت - كل ما ملكتُ
تركتُها وبودى غير ما حكمت
وقلت على بُعدٍ أشارفها
أثنان خلّدت الدنيا لأجلهما
لجنة ضيّعت في نَوْم جَنان
نفسى وما وهبت في حبها الجانى
به المقادير في أشجان لهفان
وأنفخ الصور إن فاتته نيرانى
الحب والتيل مذكنا بإنسان

الوطن بأبنائه

قال في اعتراف المواطنين بأقدار الرجال وأنه من مظاهر الوطنية السليمة:

إذا عرف الرجال حقوق بعض
فتنتظم البلاد بهم وتسمو
لبعض نُزّهوا عن كل ضعف
ويغدو الفرد معدودا بألف

تأملات

ومن قوله في قصيدة له بعنوان (أقصى الظنون):

ما الخلق، ما هذه الدنيا ومنشؤها؟
مسائل هي لأحقاب باقية
أجل فرض لها وهم وأيسره
ما الفكر ما الجوهر الباقي وما العدم؟
كنا سيقى الردى والشك والألم
وهم وقد يستوى الدهاء والعلم

الوطنية والعروبة

ومن قصيدة له يعبر فيها عن وطنيته وعرويته:

إن العروبة والكنانة ملتي دين يوحدّه الوقيّ العابد
فلموطنى روحى وكل جوارحي ولكم حنينى والشعور المساجد
يكفى لنا النسب العتيد مجمعاً فجميعنا صيدٌ رماه الصائد

نداء الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩٥١ يناجى الشعب ويعجد جهاده ضد الاحتلال فى معركة القتال:

بوركت يا شعب الكنانة ثائراً حرّاً وياوطن البطولة قاهراً
أزجى إليك تحيتى من خاطرٍ دامٍ ومن قلب يذوب مشاعراً
يأبى النفاق ولا ييوح بغير ما جعل الحياة نفائساً وذخائراً
ليس الصديق هو المقرب وحده ولربّ مهجور يُظن الهاجراً
إن كان غيبي العتاة فمهجئ لك أين كنت مكافحاً ومناصراً
أبى مساومة الطغاة وإن أذق شر الأذاة، موالياً لك ذاكرأ
إن كان يُعوزنا السلاح فربما خلق الإباء بنا السلاح الباتراً!

وحشٌ للاستعمار يعن شره باسم الحضارة والتقدم ساخراً
وكأئما حسب العقول نفاية للناس، أو بعض الهواجس دائراً
هل يصلح المذيع من آثامه حين الرصاص بصيح أرعن كافراً؟
حين الفظائع قد خطّبن بالسن للنار واعتلت الجراح منابراً؟
حين الأساطير التى يدلى بها سبت بصائر للورى وسرائراً؟
حين الخرائب صارخات حوله مثل اليتامى لا تمثل عامراً؟

إن كان حسن الظن ذنباً أولاً فيه، فكيف يعد ذنباً آخرأ؟
هو غاية الإجرام للوطن الذى عانى وعانى من أذاه خسائراً
لن ينسح الوطن المفدى صفحة لفقى يخادع أو يخادع صابراً
ويرى بالاستعمار بعض خلاصه هل كان الاستعمار إلا جائراً؟

قرنٌ من التفرير عَلمَ نشأنا
حذرًا بنى وطني! فذاك عدوكم
لا تمنحوه سوى القطيعة وحدها
أو ما يكون به الخلاص ليوكم
حذرًا بنى وطني وكونوا وحدة
ليست سلامتكم مجالا هيئنا
لا تأسفوا - مها حزنتم - للآلئ
حمل الأديم من النجيع وصية
خلُّوا التغني بالجدود وفضلهم
فهو الغنى بذاته عن ذكره
وخذوا بأسباب لئنة حاضر
كونوا من الشهداء في إعجازكم
لا عُثر بعد اليوم عند تهاون

أن يحذروه مفاوضا ومشاورا
مها تقلب في المظاهر ما كرا
فمن القطيعة ما يكون الزاجرا
وعد تؤمل فيه بعثا باهرا!
فعالة، لا ضجة وحناجرا!
إن السلامة قد تكون مخاطرا
ذهبوا الضحايا في (القناة) حرائرا
تبقى لأحقاب تدوم ذواكرا
مها تلالاً روعة ومفاخرها
إلا ليلهم غافياً أو شاعرا
إن الحقيقة ما تمثل حاضرا
بثباتكم، لا تجعلوه العابرا
إن التفوق لا يطيق معاذرا!

يهاجم فاروقاً قبل خلعه

ومن قصيدة له نشرها في مجلة (الشهداء) التي تصدر في حلب - عدد ابريل سنة ١٩٥١،
يهاجم فيها فاروقاً قبل خلعه بعام، ويشبهه بالكركدن، وهي من بليغ شعره الوطني، قال:

من دم الأمة في نردِه	من دَمعة الشعب ومن كدِّه
يأليتها تملك من حدِّه	مملك الحد على صفوها
ليحنق المصلح في مهده	كم يجعل الدين حبالته
إلا فم يرشِف في وجده	قد عَضَّها النحس، وما عضه
ويسرق الأمة في رنده	يمرِّغ الأمة في رجسه
في قُربِه الجاني وفي بعده	عانت به وبأوشابه
في، اللهو كالصائد في صيده	متنفخاً، يمزج مستغرقا
في قبحه يسخر من قده	كالكركدن الذي يزدهي
إلا كمن تهزأ من رشده	لم تعطه غانية قبلة
إلا ومغزاهها مدى نقده	أو بادلتها نكتة حلوة

حتام يا قوم ضلالاتكم
 كنا نرجيّه مثال الهدى
 كنا نغنيه أغاني العلى
 كنا نفديه بأرواجنا
 ما باله أضحي فتى ماجنا
 حتام يستهزىء من مجدكم؟
 حتام يسترسل في غيّه؟
 حتام أعلاكم له صاغر؟
 أعقلكم دون دفين الثرى
 تمكّن الفاجر من قصده؟
 فأصبح الغاشيم في حقه
 فأصبح المبدل من حمده
 في روحه العالى وفي زهده
 الشارد الخادع في وعده؟
 حتام؟ والخسة من مجده
 حتام؟ والسوقة من جنده
 حتام؟ بل أهون من عبده
 لو يعقل الميت في لحده

يحيى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

وقال سنة ١٩٥٢ من قصيدة له يحيى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢:

بوركت يا وطنى العزيز محرراً
 لو أستطيع كتبت شعري من دمي
 لو أستطيع سألت كل خيلة
 لو أستطيع زفت ما أنا عاشق
 لو أستطيع بعثت من ضحك الضحى
 لو أستطيع وهبت كل مكافح
 لو أستطيع أعدت أعواماً مضت
 لو أستطيع بذلت أضعاف الذى
 لو أستطيع غسلت ساحة دوركم
 لو أستطيع هربت من شيخوختي
 سمحاً، وفي كل القلوب حبيبا
 حتى أزيد بشعري الترحيبا
 وبعثت بالشعر المنور طيبا
 ليكون قربانا أعز قريبا
 كنزاً، ومن لهف الغروب نسيبا
 عمراً تكرر في الخلود عجيبا
 لتقص أحلاماً رأت ووجيبا
 حملت في إشارى التعذيبا
 بدماعى، ورششتها تطيبا
 ورجعت أرفل في الشباب قشيبا

ينادى بإلغاء الملكية

من قصيدة له في أكتوبر سنة ١٩٥٢ يدعو إلى إلغاء الملكية:

اقطعوها وانبذوا من دعاها
 قد خدعنا في الذى قالوا لنا
 نعمة، إنا شعبنا من أذاها
 عن جناها، بش ما يجنى جناها

أَثَرُ أَحْيَا قَرُونَا سَلَفَتْ وَأَمَاتِ الْعَصْرَ^(١) فِي بَغْيٍ تَنَاهَى
 قَلْتُ «أَحْيَا» لَيْتَهُ الْحُلُمُ الَّذِي كَانَ أَحْيَا الْأَمْسَ إِصْلَاحًا وَجَاهًا
 إِنَّمَا أَحْيَا شُرُورًا سَلَفَتْ زَوَّقُوهَا كَيْ يَعْدُوهُ إِلْهًا
 خَدَعُونَا حَقْبَةً وَاسْتَسْهَلُوا أَنْ يُضَلُّوا الشَّعْبَ فِي الذَّلِّ فَتَاهَا^(٢)
 كَمْ تَغْتَنِّيْنَا بِحُبِّ صَادِقٍ فَرَأَيْنَا مَنْ هَوَى فِيمَنْ تَبَاهَى
 سُلْطَةُ الشَّعْبِ هِيَ الْأُمُّ الَّتِي أُنْتِ الْأَحْرَارَ لَا دَعْوَى سِوَاهَا

يَحْيَى الْجُمْهُورِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ

وقال من قصيدة له في ١٩ يونيو سنة ١٩٥٣ يحيى الجمهورية المصرية بعد إعلانها^(٣) :
 إِذَا الْحُكْمُ لِلْجُمْهُورِ أَصْبَحَ رَائِدًا أَبِي الْحَقُّ أَنْ يَلْقَى بِهِ الْعَارَ وَالظُّلْمَا
 فِيهِ أُمَّةٌ (النَّيْلُ) الْمُبَارَكُ حَاذِرِي - وَقَدْ ثَلَّتِ مَا تَهْوِينَ - أَنْ تَخْلُقِيَ الضُّيَا
 وَلَا تَقْبَلِي التَّفْرِيقَ فِي أَى مَظْهَرٍ فَمَنْ يَقْبَلِ التَّفْرِيقَ يَسْتَأْهِلِ الرَّجَا

أَعِيذُكَ مِنْ وَهْمٍ يَصِيرُ عَقِيدَةً فَكَمْ أُمَّةٌ هَانَتْ بِإِعْزَازِهَا الْوَهْمَا
 أَعِيذُ (جَمَالًا^(٤)) وَالزَّعِيمَ (مُحَمَّدًا^(٥)) بِحَذَقِهَا مِنْ حَدِّ مَطْلَبِكَ الْأَسْمَى
 قَدْ انْتَزَعَا مِنْ قِيلِ حَظِّكَ عُنُوءَةً وَمَا بَرَحَا وَالذَّهْرَ كَالطَّائِشِ الْأَعْمَى
 تَجَبَّرَ وَاسْتَعْلَى فَرْدَاهُ صَاغِرَا وَقَدْ كَانَ كَالْمَحْمُومِ سَكْرَانٍ بِالْحُمَى
 وَهِيَ أَنْتِ بِالْعَهْدِ الْجَدِيدِ طَلِيقَةٌ وَمُنْجِبَةٌ أَعْلَامَ نَهْضَتِكَ الشُّمَى
 فَفِي كُلِّ شَبْرٍ مِنْ ثَرَاكِ خَمِيلَةٍ وَقَدْ كَانَتْ الْوَيْلَاتُ تَغْتَالُهُ قَضَا
 وَفِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ رِبْوَعِكَ مَلْجَأٌ تَلَوِّذُ بِهِ خَيْرُ الْمَوَاهِبِ أَوْ تُحْمَى

(١) أى العصر الحاضر.

(٢) فتاة، أى فضل.

(٣) أعلنت الجمهورية في مصر يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣.

(٤) جمال عبد الناصر

(٥) محمد نجيب.

على ما كسبتَ اليومَ واغتنى اليوما
تبزُّ بإعجاز لها كلُّ ما تَمَّا
وفنَّا تهزُّ الغافلين أو الصُّمَّا
أزلتِ بهذا النَّصر من دَمِكَ اليُتَمَّا
وها هو قد أضحى لكل الورى غُنا
وما خصَّ شعبا يستفيق ولا قوما

فيا (مصر) عَضَى بالنواجذ حُرَّةً
وهيَّا أعدى للغد المرتجى عُبلُ
إخاء وتنظيها وعلمها وهمة
ولا تشتكى من لاعج اليُتم بعدما
ألا فى سبيل المجد ما قد غَنِمته
فإنك للأقوام أمثولة الهدى

* * *

تعاف ذليلَ العيش واليأس والنُّوما
منائرُك الزهراء تستقبل السُّلما
وحسبى - على رغى - مفارقتى الأُمَّا
فمن قلب محروم تهال إذ يُدْمى
تعيشُ على الأضداد مهباً تكن غُرماً

تبارك ربِّ حين يُنصف أمةً
عزيزٌ على مثلى البِعادُ وقد زَهَتْ
عزيزٌ فى قلبى حنان مؤرق
إذا جئت هذا اليوم أزجى تهانئى
ولكنَّ نفس الحر نفسٌ عجيبةٌ

يذكر مصر ويحن إليها

وقال من قصيدة أخرى يذكر مصر ويحن إليها:

دَمَعى الذى تأبون بعض مودعها
وأظُلُّ أحياء فى صميم ربوعها
ونوافح الغدران حول ربيعها
والذكريات وهو بها كمنوعها

لاتنهرُوا روحى لفرط ولوعها
ألَقَّتْ بى الأحداثُ دون ربوعها
تشب الرُّوى حولى بأنفاس الربى
وتهزنى الذكرى فأشرق بالأسى

* * *

معنى السلو وحرقتى لجموعها
كبكائه لسماثها وزروعها
بحناتها، وتراقصت بولوعها
شنان بين عبادتى وخضوعها

كم واهم أنى سلوت وما درى
إن الفتى الوافى بكى حصاءها
دنيا الصباحة والجمال تلالأت
أجد الخضوع لها أحبَّ عبادة

* * *

غير الندى والشمس غب طلوعها

لو أستطيع طردت عن أزهارها

وجعلت أضلاعى أبرّ دروعها
في عزمها كالشمس بعد هجوعها
سيان بين وضيعها ورُفيعها

وحميتها مما أغار تجنيًا
وبعثتها من نومها، وجعلتها
وأثرتها لعظائم ومفاخر

منها الخيار، فخيرها بجميعها
بحياتها وتصورت بصنيعها
فلقد أفاء على حلم بديعها
فلقد جنت عيني طيوف نزوعها
والنفس حيرتها أشد صدوعها
وتبتلت في حبها وركوعها
والدمع والتقييل يوم رجوعها
دمعى الذى تأبون بعض دموعها

مصر الحبيبة جنة لا أشتهى
أهوى لها الإعزاز كيف تمثلت
إن كان عاقبى الزمان بغربى
أو لم تتل عيني شعاع سنائها
وتركننى في حيرة لا تنتهى
ركعت بمحراب الجمال بوهيها
وأذابت الأحلام في ألحانها
لا تنهروا روحى لفرط ولوعها

ذكرى الشهداء

وقال في (ذكرى الشهداء):

ألق الشموس لها من الأنفواف
عمر البطولة بآل كل شغاف
من يحجمون إلى الخلود الصافي
واليوم نقرؤها الحنان الوافي
عبقت بحر شعورها الرفاف
شهم، وليس على الأبي بخاف

ذكرى يرددها الزمان الوافي
شعت على مرّ السنين، وعمرها
متغلغلا بنهى الفوارس، دافعا
اليوم يوم صلاتنا لجلالها
وعلى الثرى نجثو، تقبل ترربة
ما كان بالخافى على مستلهم

ونشيمها في النور والأطيفاف
وبكل نبع للحقيقة صاف
سمحا على رغم الردى المتلاف

إنا بنى الأحرار نعرف قدرها
وبكل معنى للعظائم شامخ
لا يجد غير الحق يبقى ناصعا

هذى مقابرهم وتلك دماؤهم مثل النجوم ونورها الشفاف
 هيهات يدركها الطغاة وربما سجدوا لها رغبا عن الآناف
 سيجىء يوم للحساب، قضاتهم تلك العظام، بغضبة الإنصاف!

* * *

يا أمة الأحرار دوى حرة والتضحيات لك الجلال الكافي
 وبحسبك الشهداء ضمخ ذكرهم هذا الأثير، وشاع في الألفاف
 يوم كهذا اليوم تهتف عنده مهج الشعوب العانيات هتاف
 وتعزه الدنيا التي حلمت به حلمى، وتزار وثبة الآلاف!

يهاجم الإستعمار وينادى بالثورة عليه

ومن قصيدة له يهاجم فيها الاستعمار وينادى بالثورة عليه، نظمها سنة ١٩٥٢ لمناسبة الصراع بين الحرية والاستعمار في تونس، قال في مطلعها:

نوروا على الظلم العتيّ جهارا لا ترهبوه وإن يكن جبارا!
 النار لم تخلق لغير مجاهد طلب العظام حين خاض النارا
 لا بد من صُهر اليقين بشعلة حتى يخلص رائعا قهارا
 خلّو الرصاص مدوّيا من حولكم لا بد أن يهوى وأن يتوارى
 هذى البداية للنهاية، لم يدم حكم أسفّ به الدخيل فبارا
 مُرّاكش ثارت عليه، وفي غد سنرى الجزائر تصفع الجبارا

* * *

أمم العروبة نخوة وأرومة وثقافة، أتقدس استعمارا؟
 خسئوا وضلّوا، والخنس بطبعه يلقي الكرامة والمكارم عارا
 ياويلهم، ومن الضحايا حولهم لُسُنُ تحدث في البصوت مرارا

* * *

«فرحات»^(١) ليس بأول أو آخر. لجرائم روعننا تكرارا

(١) الزعيم العمال التونسي الذي اغتاله الفرنسيون.

ما كان الاستعمار إلا سُبَّة
يلهو به المستعمرون كأن نسوا
قالوا: «هو النعم الجزيلة فيضه»
فتضاحكت منهم، وفاضت عبرة
ودما، وآلما حوت، وشارا
عقبى الذين يلاعبون النارا
واستنطقوا الأدهار والآثارا

إلى أن قال:

إن قدر المستعمرون خضوعها
ومن الشعوب الساكنات ثوائر
لن يستطع الذل من تجرى بهم
أبدا فقد فقدوا لهم أعمارا
في حين يسمع غيرها هدارا
تلك الدماء وتخلق الأحرارا

عبد الحليم المصري

١٨٨٧ - ١٩٢٢



من الشعراء الضباط. ولد في مايو سنة ١٨٨٧، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية دخل المدرسة الحربية وتخرج منها سنة ١٩٠٦ في التاسعة عشرة من عمره، وألحق ضابطاً بالأورطة السادسة عشرة من المشاة في كسلا.

تعشق الشعر والحرية منذ صباه، فغاد بقصائد رقيقة في التغني بالوطنية والحرية.

وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن وفي في يولييه سنة ١٩٢٢، وكان حين وفاته في ريعان الشباب، فكان لوفاته وقع أليم في النفوس.

كانت له في الشعر مكانة ممتازة، عبر عنها حافظ إبراهيم بقوله في رثائه:

لَكَ اللهُ قَدْ أَسْرَعَتْ فِي السَّيْرِ قَبْلُنَا	وَأَثَرَتْ يَا «مِصْرِيَّ» سَكَنِي الْمَقَابِرُ
وَقَدْ كُنْتَ فِينَا يَا فَتَى الشَّعْرِ زَهْرَةً	تَفْتَحُ لِلأُذْهَانِ قَبْلَ النُّوَاطِرِ
فَلَهْفَى عَلَى تِلْكَ الْأَنَامِلِ فِي الْيَلَى	فَكَمْ نَسَجَتْ قَبْلَ الْبَلَى مِنْ مَفَاخِرِ
وَيَا وَبِحَ لِّلْأَشْعَارِ قَبْلَ نَجِيَّهَا	وَوَبِحَ الْقَوَائِي سَاقَهَا غَيْرَ شَاعِرِ
تَزُوْدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ ذِكْرًا مَخْلُودًا	وَذَاكَ لِعَمْرِي نِعَمَ زَادَ الْمَسَافِرِ
وللمصري ديوان شعر من ثلاثة أجزاء.	

فجر الأمل

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٩:

تَرَعَّرِعَ عَهْدُ الْيَمَنِ وَاخْضَلَّ جَانِبُهُ	وَرَدَّ عَلَيْنَا اللَّهُ مَا الدَّهْرُ سَالِبُهُ
مَضَى زَمَنٌ كُنَّا فَرِيْسَةَ حَرْبِهِ	وَجَاءَ زَمَانٌ مَا نَزَالُ نَحَارِبُهُ

فلم يغلبِ الدهر العصى مجاهدا
فيا شرقُ قد جاشت بنفسك أنفُسُ
فإِما أصابت من مُناها طليبة
تقول له إما احتسبت جزاءنا
جزاكُنَّ عني الله يا خير أنفس
إذا ما النفوس الطاهرات تضامنت

إلى أن قال مخاطبا الزعيم محمد فريد:

(محمد) لا يُلُو الكرى لك عزيمةٌ
نهزت بأنبياء البلاد ولم تمل
طلعت في باسم الصبح عابسا
كأني وأنت اليوم تدعو إلى الهدى
فجرد شبا تلك اليراعة صارما
لقد روعت منا الهموم جوانحا
ثم قال مخاطبا الكتابة:

فيا عادة في الشرق قد غار نجمها
لقد كان روضا وارفا الظل في العلى
فأصبح تذرره الرياح عواصفا
إلى أن دعا داعي الصلاح حياله
دعوتُ أناسا ليس يدعوه هو امرؤ .

يصف قصر أنس الوجود ويشيد بعظمة مصر

وَقَفَّ عليك دموعي أيها الطلل
أرسلت بالعين في سقياك هامية
لولا بقية أطلال لما عَرَفَتْ
ليت الأحبة حين البعد طاح بهم
يا عالما بالهوى أرشد فتاك إلى
عيني إليك وقلبي للأولى رحلوا
وفي السلول البوالى ترسل المقل
عيوننا أين كانت دورُنَا الأوّل
أدناهم الشوق أو أقصاني الأجل
غير البكاء فقد ضاقت به الحيل

أن أبكها وكلانا خطبه جل
هوّن عليك كلانا بعد هم طلل
واليم مضطرب والموج مقتبل
وأنت كالركن فيه تحمد القبل
في وجهك الطلق لا يبدوها ملل
شتان ما بين من قالوا ومن عملوا

تبكى على دورهم مثلى وتعذلى
يا أيها السطل المزورّ جانبه
وقفت باليم رسماً لحرارك به
رَيَّاك من جنة الفردوس سارية
الدهر ملّ وآى الدهر كامنة
قرأت فيهن سر العالمين فيا

وختمها بقوله :

فمن يجاريك فيما شدت يا (أنس) المرء مرتحل والذكر مقتبل

يكرم الشيخ عبد العزيز جاويز بعد خروجه من السجن

ومن قصيدة له سنة ١٩٠٩ في حفلة تكريم الشيخ عبد العزيز جاويز لمناسبة خروجه من السجن بعد استيفائه مدة الحبس (ثلاثة أشهر) التي حكم بها عليه في أغسطس سنة ١٩٠٩ عن مقالة له في (ذكرى دنشواي):

تصف السجون وما بها	من جائر للمستجير
أيام كنت تحال نفس	ك بين سكان القبور
متقلبا فوق الفرا	ش تقلب العاني الأسير
وتود رؤية زائر	يحنو على ذاك المزور
ما خفت من سجن الخيا	ل وخفت من سجن الضمير
في جانب الوطن العزيز	ز تهون هائلة الأمور

أسود النيل

من قصيدة قالها سنة ١٩٠٩ في الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٢٧:

مالي أرى السودان طعمة آكل	هل أطمعتهم مصر في السودان؟
أنسوا أسود النيل يوم تضرجوا	بدم العدى حين التقى الجيشان
متسابقين إلى الحصون كأنها	أوكارهم شيدت على الأفنان
متقاسمين العاديات كأنهم	في الحرب مشتركان مختصمان

صوت الشعب

من قصيدة له يخاطب الخديو عباس الثاني ويطالبه بالدستور:

رُدِّ الدويعة لا مالا ولا شانا لم نرجُ في جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يدا من الرجاء ولم نسألك غفرانا

يُنَاجِي الحرية

من قصيدة له في مناجاة الحرية سنة ١٩١٠:

حَلَّاهَا البينُ فأنجابت عن المقل ولم تودع قبيل السير من رجل
كأنما لم يصفها القوم في بلد ولم يؤهل بها في منزل حفل
إلى أن قال:

عودى أطلَّ علينا إننا نفر إن جَلَّتْ عنا فإننا عنك لم نحل
الدهر غيّرنا حتى إذا بصرت بنا الديار غدت منا على دخل
رُدِّي علينا عهدًا منك ناضرة ياربُّ عهد تولى ثم لم يؤل
كنا وكننٍ وكان الدهر، فانقرضت أيامنا وتوليننا على عجل
أصبحت في غير وادى النيل ثاويةً والشمس في الحوت غير الشمس في الحمل
أسجنون يراعا لم يُثر فتنا ويعقلون لسانا غير منعقل^(١)

وختمها بقوله مخاطبا المواطنين:

أنى زمان نهوضٍ وانقضى زمنٌ كان البكاء يُرى فيه من الحيل
فراقبوا الله يومًا في كنائنه إن الكنانة أضحت مطمح الدول

(١) يشير إلى تقييد حرية الصحافة.

عزیز فہمی

شاعر الحرية والشباب

١٩٥٢ - ١٩٠٩



هو الدكتور عزیز فہمی، من أعلام الحرية والأدب،
وأبطال الوطنية والجہاد.

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام
فہمی جمعة رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاہدين
في الحركة الوطنية.

تلقى علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة الابتدائية
ثم في المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة
الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا.

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوي ميوله
نحو الحرية والأدب والشعر وأنشأ وهو في مدرسة الجيزة
الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره.

وانتقل إلى التعليم العالي بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق في كلية الحقوق ودراسة الأدب
بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق في سنة ١٩٣٣،
وكانت رسالته التي قدمها إلى كلية الآداب في المقارنة في الشعر العربي بين العصر الأموي
والعصر العباسي.

وكان طموحًا إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسافر إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق
بجامعتها وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه في القانون وكان موضوع رسالته (الامتيازات
الأجنبية في مصر ومعاهدة مونترلو)، وكانت أول رسالة من مصرى عن هذه المعاهدة، والتحق في
الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه في الأدب.

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو في باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءًا وطنية
وتضحية، مستكملًا دراساته العلمية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتاً قصيراً، ثم ضاق صدره بالقيود الحكومية، فاستقال مؤثراً العمل الحر والجهاد الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديباً شاعراً، وخطيباً مفوهاً، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة التفكير، وغزارة المادة، والشجاعة الأدبية، كان يدافع عن الحرية بقلبه ولسانه على صفحات الجرائد، وبلسانه فوق المنابر، وفي ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان.

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب في الذات الملكية، أو التحريض على الإخلال بالنظام، وكان في المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين في جرائم الرأى، ويهاجم الطغيان والقلم السياسى والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائباً عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته في دار النيابة أقوى صفحات حياته التي قضاها في الكفاح الوطنى، وعلى أنه انتخب مرشحاً من الوفد، فإنه لم يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها، وله في ذلك المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلمانى من الطراز الرفيع، كان يناضل عن الحرية في كل مناسبة، وله المواقف المشهودة في معارضة نظام الاشتباه السياسى، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذى قدمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوى صوته بمجلدلا معارضا مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دوى كبير وصدى استحسان عظيم في الرأى العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها في معارضته لهذه المشروعات حتى انتهت يسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد في حياته السياسية والوطنية.

ولما شبت معركة القتال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ في أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القتال، وساهم في حركات المقاومة ضد القوات البريطانية، واستهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ في حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة، إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن في صبيحة ذلك اليوم ليرافق أمام محكمتها في إحدى القضايا، وكان يتوى السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف، وقد فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، فلم يدرك قطار الصباح، فاستأجر سيارة ركبها قاصداً الفشن، وفيها هى تسير في الطريق الزراعى وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائى، قلبها رأساً على عقب وهوى بها في التربة المحاذية للطريق، فمات الفقيد غريقاً،

وكانت وفاته فجيرة للوطن وبنيه، إذ فقدوا بوفاته مجاهدًا صادقًا بين المجاهدين الأحرار. كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى في الحياة السياسية رسالة يؤديها، لا يبتغي منها لنفسه مغنًا ولا نفعًا، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غرو أن حزنت الأمة لوفاته حزنا عظيمًا.

اسلمى مصر

. قال رحمه الله من قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمى مصر):

اسلمى مصرُ على مرِّ القرونِ . حُسْبِكَ اللَّهُ نصيرًا ومعينُ
لن تُضَامِيَ أَنْتِ يا مهد الخلو د وهذا بعض أشبال العرين
من تكن ليلاه مصر لا يَهِنُ ساعة البذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعاكَ الله يا عهدًا مضى عهد بغى وافتشات وأفون
محنة لا عهد للناس بها جزع الصبر لها، والصابرون
عصفت بالحرث والنسل معا وأعادت عهد كسرى ونرون
ونضت سيفًا بَتوكا كلما هبَّ، ذُقنا حُدُية المنون
دولة الحجاج أن قيست بها مَثَلُ في الرق عند المتصفين

وهوى الأوطان للأحرار دين

إلى أن قال في تمجيد التضحية:

في يمين الله ما ضحيتمو لا يُضَيِّعُ الله أَجْرَ المخلصين
في هوى مصر يضحي عن حِجًّا ورضاء كل مُسْتَبَقٍ ضنين
لن يُضَيِّعُ العُرفُ عند الله إنَّ ضَيِّعَ الخير أَصِيلٌ وهجين
هو عند الناس جوْدٌ ووفاء وهو عند الله إيمان ودين
ولبانات الهوى شتى كنا ر، سلَّ التاريخ عنها والمنون
فهوى ليل قيس متعة وهوى الأوطان للأحرار دين

هى ليلانا جميعا فانظروا هل قسطنا ما علينا من ديون؟
 هل جمعنا من أفانين المني ماقتته على مرّ السنين؟
 ليتنى أحيا إلى يوم أرى فجر مصر فيه وضّاء الجبين
 لا أبالي أعظامى بعده في سهوب^(١) من تراها أم حزون
 لا سقاك النيل يا مصر إذا لم نقرب من أمانيك الشطون
 ونُعذ مجدا سليبا غابرا ونُعير بلواك العالمين

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت في ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.

قال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت):

أيها العراف هل عند النجوم سر هذا الكون أو عند المنون؟
 كاذب علمك ما لم تنبني جرأت والله ولجت في الظنون
 جهل السر أناس قبلنا وجهلنا فوق جهل الأولين
 حملوا العبء وقد ناءت به أم من قبل عاد (أمون)
 ولكم ساءلت نفسي حائرا حيرة السارى بليل ذى دجون:
 ما وجودى؟ ما سبيلي؟ من أنا ما ماصيرى بعد حين؟

يا بنى أمى لقد جدّ نوى وغدا يجمعنى واد شطون^(٣)
 لا تقولوا مات في شرح الصبا ذلك الحق تجلّى واليقين
 ليس منى من بكافى فارغوا لن يردّ الدمع محتوم المنون

(١) السهوب، كالسهول: الأراضى المستوية؛ والحزون: جمع حزن وهى الأرض الصلبة.

(٢) الشطون: البعيد.

(٣) الشطون: البعيد.

لا تقولوا ليه عاش! فقد فارق الأصفاذ عصفور سجين
شاقى الخلد كما شاق القطا سلسيل في عقاب وقرون^(١)

يا قارئ الكف

وقال في هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (يا قارئ الكف):

يا قارئ الكف ماذا أضمر القدر؟ ولا عليك إذا لم يصدق الخبر
وما اهتمامك باسمي؟ هبة عنتره وهبه زيذا.. وجدى عمرو أو عمر
عليك بالكف فاقراً بين أسطرها ماذا يدل عليه الخط والأثر؟

أطالع اليمن أن الخط متصل وآية النحس أن الحد منبر؟
وما الشيات^(٢) على جنبى ثمانية تبدو كوشم وتخفى حولها غرر؟
خبر عن الفأل لا تجفل فسانحة عندى كبارحة والشر ينتظر
هل أنساً الله في عمرى إلى أجل يلح فيه على الهمة والكبر؟
وهل أبلغ آمالي؟ وأبعدها عندى كأقربها ناءً ومحتضر
هبنى ظفرت بآمالى على ظمأ إذا ارتويت فماذا يعقب الظفر؟
وهل أوسد حزننا حرّة وحصى فى جوف هاربة أغوارها حجر
أم هو جللاً^(٣) قذفاً^(٤) تنبو براكبها لا البيد عبدها يوماً ولا الحضر
قفراء جرداء لم تكلاً حشائشها إلا السواقى ولم يعلق بها مطر
أم تُقدح النار من حولي فتطعمنى حياً وأشوى بها أيمان تستعر
أم أن فى مسبح الحيتان منقلبى يوم الرحيل إذا نادانى السفر^(٥)

(١) قوله: فارق الأصفاذ عصفور سجين: طريق فى الجبل وعمر، وقرون؛ جمع قرن؛ القطعة من الجبل.

(٢) الشيات، جمع شية؛ العلامة.

(٣) الهوجل: المازة البعيدة لا علم بها.

(٤) القذف: البعيدة.

(٥) كأنه فى هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقاً، وقد توفى رحمه الله غريقاً سنة ١٩٥٢.

قل ما بدا لك واهرف غير مبدع
 اللحد كاللحد والأكفان واحدة
 والمال كالْعُثم لولا أنه أُمِّل
 والسعد حال على الإنسان طارئة
 لولا التشابه في الأقدار ما صدقت
 فالرجم بالغيث - لو تدرى - هو الهذر
 ولا خيار لميت حين يدثر
 إن الغنى إلى الأموال مفتقر
 (وعند صفو الليالي يحدث الكدر)
 عرافة الحى من تُوفى لها النذر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بنى مصر هذا الحق أبلغ واضح
 إذا شئتم الشورى فذلك حكمها
 تولى زمان الحاكمين بأمرهم
 تولى زمان الفرد لا عاد عهده
 وهذا صراط يستوى عنده القصد
 وإن شئتم الفوضى فليس لها حد
 ولم يبق في الدنيا مسود ولا عبد
 ويسدل بالدستور سلطانه الفرد

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحبٌ وسمان من طول السهر
 كلما غافلته في سكرة
 فإذا كُفرت عن وزر عفا
 ليس ملموساً فتدرى كنهه
 وتواريه فيغضى ساعة
 ليس عقلاً أو شعوراً خالصاً
 فهو عقل ياطن أو ملهم
 كم جرعت الصاب من ترياقه
 أتتبا الدهر طريدٌ آبق
 أينما وليت أحصى مُرجئاً
 إن تتم ناداك أو تنس أدكر
 من أمانيك تجنى أو عذر
 وإذا عدت إلى إثم ثار
 وهو ما كتمت يدرى ما تسر
 ثم يستيقظ في لمح البصر
 بل تُراثاً من شعور وفكر
 وهو إحساس قديم مدخر
 واستسغت الشهد بما قد هصر
 وغيرم طارد أو منتصر
 موعداً حتماً فأيان المفر؟

يتراءى شاحباً أو إمّعا وهو جبارٌ عنيف تارةً
وهو إعصارٌ وريحٌ صرصر
وهو كالبحر إذا البحر طفى
وهو كالسهم إذا السهم رمى
أمرٌ ناهٍ وعاصٍ طيحُ
لا ينالُ العمر إلا سناعةً
ساعةً إن غمت عنها غافلاً
أيها الساهرُ نم أو لا تنم
إن جنينا فعلينا وزرنا

فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو أحياناً ضعيف يأتمر
وهو كالسيل إذا السيل انهمر
وهو كاللوح إذا الموج انحسر
وهو كالسيف إذا السيف بتر
وهو الأمر وهو المزدجر
فترقبها وبالع في الحذر
عدت كالمخمور أو كالمحتضر
وترفّق وتجلد واستبعرُ
وإذا نحن أثبتنا فاعتذرُ

ومصر تناديهم وصوتى يردد

وقال في يونيه سنة ١٩٤٦ وهو معتقل في سجن الأجانب:

كفأك عزاء أنك اليوم أوحده
يهون عذاب: السجن والليل موحش
وقد يؤسر الليث المتيع عرينه
أهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى
أهبت بقومى والخطوب زواحف
وأندرت: حتى يح صوتى ولم أزل

وقد يسكن القعد الحسام المجرد
ويذهب عنك الحزن فيه تجلد
ويرهب منه الصوت وهو مصفد
ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد
تلم بهم طورا وطورا تهدد
ومصر تناديهم وصوتى يردد

نذرت نفسى قرباناً لفاديتها

ومن قصيدة أخرى نظمها وهو في سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

شكت إلى الله من عدوان أهليها
واحراً قلباه من يأس يضرعها
فزعت من غدها علماً بحاضرها
وقفت قلبى عليها فى شبيبته

وعاث غاصبها فى أرض راعيها
يكاد لولا بقايا الصبر يردىها
ورضت نفسى على نسيان ماضيها
فشاب منها ومن عدوان ساليها

لما أفقت من الماضى بلا أمل نذرت نفسى قربانا لفاديها

ذكرت مصر فهاجتنى مواجهها
يا لائى وأنا الجانى على كبدى
كل يغنى ليشجى سامرا وهوى
وليس لى سامر فيها ولا وطر
وإنما هى آلامى أكتمها
وحتى يضيق بها صدرى فأحكىها

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنها
وصنت شعرى إلا عن مفاتنها
ورق شعرى كما رقت جداولها
وما رأيت كناسا فيه جؤذره
وبات قلبى أسيرا فى مغانيها
وهمت فى الأرض مسحورا بواديها
وراق وصفى كما راقى بحاليها
إلا ذكرت غزالا فى مراعيها

لما رددت إليها رد لى أملى
وقد طويت إليها اليم واقتربت
فكاد يظفر قلبى من توثبه
وحال قلبى دموعا عند ما اتادت
سجدت لله عرفانا لنعمته
فكيف حالت حياتى عندها سقرا
عند اللقاء وأحيانى تدانيها
بى السفينة من أولى موانئها
وقد تنسم ريحا من نواحيها
فرحت أنثر دمعى فى ضواحيها
لما حلت رفيقا من روايها
وكيف أصليت نارا من سواقيها

جارت عليها صروف الدهر واختلفت
راشوا لها السهم مسموما فشتتها
واخنوها جراحا فى مقاتلها
أيدى الرماة فأها من أعاديها
وكاد لولا يد الرحمن يصمىها
باللجريمة من عدوان آسيها

إلى أن قال:

فزعت من شرك يلقى غاصبها
قبل الجلاء لعل (الوعد) يغريها

وما الجلاء إذا شدت^(١) بسلسلة من القيود و (شرط الحلف) يليها
تشعب الرؤى والأحزاب سادرة ومصر صابرة والصبر يضيئها
وكيف تنهض من أسر يكبلها والقيود أمرها والقيود ناهيها

بنى وطنى أهبت بكم زماناً

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التى وقعت منهم فى
القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلوا من سامها^(٢) هذا العذابا ومن شرع الأسنة والحرابا
سلوا جلادها تبّت يدها بأى شريعة فرض العقابا
أما ينهأ عقل أو ضمير يرد له المحجة والصوابا
ضلال أن يعاتب مستبداً رَ أولى بالمسود أن يعابا
وجهل أن يخاطب غير أهل فلا تحزن عليه إذا تغابا
يصعّر خده صلفاً وحمقاً ويوردها على ظمأ سرابا
وكم أسدت إليه وكم تجنى ولم يحسب لعاقبة حسابا
بأى جريرة وبأى عدل تجرع مصر كأس النصر صابا؟
ولولا مصر ماغنموا فلاة ولو مصر ما غلبوا ذبابا

سلوا (دنكر ك) هل نهضوا بعبء وقد غنموا السلامة والإيابا
سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا وهل تخذوا النعم لهم ركابا
سلوا (العلمين) هل نبثوا بأرض وقد سبقوا مع العدو السحابا
فكيف تعاضموا بعد انكسار وكيف تبدلوا أسداً غضابا
سلوا (الميثاق)^(٣) هل وأدوه صبحاً وهل نسجوا من الكفن الإهابا
وكيف جرى على فمهم كذابا وسال على سواعدهم خضابا

(١) الإشارة هنا إلى مصر.

(٢) يقصد الإنجليز

(٣) ميثاق الأمم المتحدة.

وكيف استبدلوا شرعاً بشرع
كذلك تلذع الأفعى كريماً
وبين الناس رقط وابن آوى
إلى أن قال:

ويا وطنى فديتك من جراح
وهل يأسو الجريح سوى جريح
وكم من قسور ورد المنايا
إذا كرت عليه الخيل فرّت
روى دمه ثراك ففاح مسكاً
وأخر فى (الجنوب) ثوى شهيداً
لحما الله الخوارج والمطايا
ولا كان الجلاء إذا أحلوا
وطوبى للأولى ذهبوا فداء
إذا نكأت حملناها عذاباً
يشاطره الفجيعة والمصابا
يروع يبطشه السبع السغابا
وإن سام الجياد حمى العربا
وأينع روضة وزكا ترابا
فضج النيل واجتاح الرحابا
ومن أضحت نفوسهم خرابا
مع الحلف المرافق والرقابا
إلى الرضوان واستبقوا الثوابا

بنى وطنى أهبت بكم زمانا
ولو نطق الجماد كما نطقنا
فلما بح صوتى قيل هابا
لأسمعه الصدى عنكم جوابا

على الغايات



من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التي ألقاها بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء الحافظين لعهدده طوال السنين.

انضم إلى أسرة الصحافة منذ صباه. وعمل في صحف الحزب الوطني المتعاقبة. واتجهت نفسه إلى الشعر، فنظم قصائد تفيض وطنية وإخلاصا. وقد جمعها في ديوان أصدره سنة ١٩١٠ بعنوان «وطنيقي» وله مقدمتان، إحداها بقلم محمد فريد، والثانية بقلم عبد العزيز جاويز. وكان لهذا

الديوان قضية أنرت في مجرى حياة الشاعر. فقد أقيمت عليه الدعوى العمومية وحوكم على قصائد من هذا الديوان عدتها الحكومة وقتئذ عيبا في ذات ولي الأمر (الخديو عباس الثاني) وتحريضا على كراهية الحكومة والإزدراء بها، وتحييذا للجرائم (السياسية)، وحكم عليه من محكمة جنايات القاهرة في أغسطس سنة ١٩١٠ بالحبس سنة. وقد صدر الحكم عليه في غيبته، إذ أركان قبل محاكمته قد ارتحل إلى الاستانة، ثم إلى سويسرا حيث أقام في (جنيف)، وأصدر بها سنة ١٩٢٢ جريدة (منبر الشرق) بالفرنسية، وجعلها وقفا على الدفاع عن قضية مصر وقضايا الشرق عامة. وظل في منفاه حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ واستأنف فيها إصدار صحيفته (منبر الشرق) بالعربية حتى اليوم^(١) - مد الله في حياته - وهي صحيفة وطنية شرقية إسلامية أخلاقية، تدافع عن القضية الوطنية وقضايا العروبة، وتتاضل عن الحرية والاستقلال للشعوب الشرقية جمعا.

إلى مصطفى في حياته

من أول شعره الوطني قصيدة نظمها سنة ١٩٠٧ وقدمها إلى مصطفى كامل عقب خطبته بالإسكندرية، قال مخاطبا الفقيه:

(١) أى حتى وقت ظهور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٤.

اصدع بقولك إن أردت مقالا
لم تدر مصر سوى حماك تؤمه
أقبل على الوطن العزيز بصارم
وختمها بقوله
فادأب على إنهاض أمتك التي
ترجو وراء خطاك الاستقلال

وطن ينجى ربه

قال من قصيدة له بهذا العنوان:

رب. أن البلاد أرهقها الظلم وحاقت بأهلها البأساء
رب إلى الصدر أخرجها الوجد وأودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيل حتى لا تجارى حياة مصر دماء

قصائد حوكم من أجلها سنة ١٩١٠

من قصيدة بعنوان (طيف الوطنية):

وعداة ملكوا الأمر ولم
وولاية أقسموا أن يسجدوا
رب ماذا يصنع المصرى إن
طال يوم الظلم في مصر ولم
هل يرى المحتل أنا أمة
أو يرى الظالم فينا أننا
زعموا زورا، فما من أمة
كتب النصر لشعب ناهض

يحفظوا للشعب في حق ذماما
كلما رام العدا منهم مراما
جاوز الصبر مدى الصدر فقاما
ندر بعد اليوم للعدل مقاما
مذ عرفنا السلم لاندري الخصاما
نحمل الحسف ولا نبغى انتقاما
سامها العسف ظلوم ثم داما
في سبيل المجد لا يخشى الحماما

ومن قصيدة له يندد بالخديو عباس الثاني:

أعباس هذا آخر العهد بيننا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة
ونياس من آمالنا فيك كلما
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى

فلاتخش منا بعد ذاك عتابا
ننال إذا رمنا الحياة عقابا
قضيت علينا أن نكون غضايا
وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
ولا تستمع للظالمين خطايا

فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة تحول أقدام السلام خرابا
وها قد رمى حرية القول رمية بسهمك تجنى للبلاد خرابا

يهاجم الوزارة

وقال في هذه القصيدة يهاجم وزارة بطرس غالى التي كانت تتولى الحكم وقتئذ:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ولكن ستلقى دون ذلك أناما
وزارة خدّاع أقامته بيننا يد الحاكمين الآثمين فقاما

ومن قصيدة أخرى له يندد بهذه الوزارة على أثر امتناعها عن حضور جلسات مجلس شورى القوانين فرارا من مناقشات الأعضاء:

يا أيها الوزراء ماذا نابكم حتى هجرتم صورة النواب
إلى أن قال:

فتزلزلت أقدامكم من هولها وهرعتمو فزعاً إلى الأبواب
ورضيتمو الهرب المعيب لأنه خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة لم تدرك إن سئلت بيان جواب
ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٠:

طال ليل البلاد والشعب سار لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم فلمن يشتكى خصام القضاة

ومن قصيدة له يخاطب الشيخ عبد العزيز جاويز عندما حكم عليه لأول مرة سنة ١٩٠٩ ونشرها في ديوانه (وطنيتي):

يا ساكن السجن الكريم وأنت نعم الأكرم
ما السجن للشرفاء إلا رفعة وتنعم
أنت البريء ومن يخام لك مجرما هو مجرم

هذا ما وعته الذاكرة وما وسعنى الجهد فى استقصاء الشعر الوطنى، ولعلى بإخراج هذا الكتاب أحقق أمنية كانت تجول فى خاطرى منذ عدة سنوات. ولا زلت أكرر اعتذارى عما عسى أن يكون قد فاتنى تدوينه من الشعر الوطنى. وإنى لمتدارك هذا النقص فى المستقبل القريب إن شاء الله^(١).

* * *

راجع هذا الكتاب

الأستاذ حلمى السباعى شاهين

المستشار بإدارة قضايا الحكومة

(١) لم أستطع تدارك هذا النقص كما وعدت القارئ فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب ما ألم بى من مرض مازلت أعانيه، أدعو الله الشفاء.

وفاة المؤلف

وعقب الانتهاء من مراجعتى هذا الكتاب بأيام معدودة كان يوم مصر الحزين، يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦. حيث فقدت مؤرخها الوطنى المحقق. فروع الشرق لوفاته. وخرجت جموع الشعب ظهر ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ تودعه إلى مقره الأخير. إلى ضريح زميله فى الكفاح المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد بميدان القلعة بعد أن أدى الفقيد الكريم رسالاته فى جميع الميادين التى خاضها - محاميا صادقا ونقيباً للمحامين وأباً روحياً لهم، وبرلمانياً جريئاً، ووطنياً مخلصاً ثابتاً على مبادئه. ومؤرخاً حراً محققاً - جمع لمصر تاريخها القومى فى مؤلفاته العديدة، فى مختلف عصورها، فإليك أيها الفقيد العظيم بكائى، بل دعائى، وما أنت فى حاجة إليه، بل نحن أحوج ما نكون إلى تسجيل تاريخك وكفاحك، ليكون هادياً ونبراساً للجميع، وهو دين فى عنقى لعلى أوفيه لهذه الأمة العظيمة، أما أنت فمشواك الجنة مع النبیین والصديقين والشهداء والأبرار...!

ابنك الروحى
حلمى السباعى شاهين

١٩٦٦/١٢/٢٥

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٥
رفاعة رافع الطهطاوى	٩
عبد الله نديم	١٥
محمود سامى البارودى	٢٠
إسماعيل صبرى	٣١
أحمد شوقى	٤٢
حافظ إبراهيم	٩٣
خليل مطران	١٤٨
أحمد محرم	١٧٥
أحمد نسيم	١٩٦
أحمد الكاشف	٢١٣
محمد عبد المطلب	٢٢٨
أحمد زكى أبو شادى	٢٤٦
عبد الحليم المصرى	٢٦٣
عزيز فهمى	٢٦٧
على الغاياتى	٢٧٧
وفاة المؤلف	٣٨١

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح للمبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضة القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .
الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاکمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابتستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)
الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .
الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢)

الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .
وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومى .

من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتى (١٨٨٩ - ١٩٥١) :

خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية في مصر: تراجمهم . وشعرهم الوطني . والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

أربعة عشر عامًا في البرلمان :

مجموعة أقوال وأعمال في البرلمان :

في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعت النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابي :

(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغاني : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حاية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة في العصر الحديث :

في ست حلقات تشمل على كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه في العهود التالية إلى بداية

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)

مختاراتي من دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام .

١٩٩٢ / ٩٠٤٢	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3873-4	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ٧٩

طبع بطنابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه الأعمال الكاملة

ظهر ان عبد الرحمن الرافعي على انه جرتى مصر الحديث
فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصرى فانه تاريج
الحركة القومية فى عصر اماليك والحملة الفرنسية حتى ثورة
٢٣ يوليو فى سبع سوابق وفى جانب هذه الحقبة التاريخية
عنده يكتب ايضا مؤلفات اخرى هامة
وكتابات الرافعي تسمى بالصدق والدقة والحيطة فهو يبداء
بذكر اسباب الحادث ثم سرده ثم رايه فيه ومن ثم فال فكر
الرافعي بسوء هذه المؤلفات ويعبر عن كفاح الشعب المصرى فى
مواجهة القوى اختلفة والملاسات التى احاطت به
ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للتارى العرف
حتى يلقى على تاريخ وطنه العظم وكفاحه المسترف
ومطالبه الدالة بالحرية والحق والديمقراطية